T
210 A

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

M.H. HAIKAL'S ATTITUDE UP TO 1932 TOWARDS AN EGYPTIAN NATIONAL LITERATURE.

محمد حسين هيكل والدعوة إلى الأدب القومي المصري حتى ١٩٣٢ .

by

NAJAH TALA'T ATIYYAH

A thesis
submitted in partial fulfillment of the requirements for the
degree of master of arts in the
Department of Arabic and Near Eastern Languages
of the American University of Beirut

Beirut, Lebanon

October 1993

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

M.H. HAIKAL'S ATTITUDE UP TO 1932 TOWARDS AN EGYPTIAN NATIONAL LITERATURE.
محمد حسنين هيكل والدعوة إلى الأدب القومي المصري حتى ١٩٣٢ .

by
NAJAH TALA'T ATTIYAH

Approved:

Professor Muhammad Y. Najm — For Dr. Najm Samir Makarem
Advisor

Professor Nadeem Naimy — N. Naimy
Member of Committee

Professor Tarif Bazzi — Tarif Bazzi
Member of Committee

Date of Thesis Presentation: October 19, 1993

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis release form

I, Mrs. Najah Attiyah Hawa

authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals on request.

Najah Atiyyah
Signature

19 / 10 / 1993

Date

مقدمة

طغت الدعوة إلى القومية المصرية وخلق أدب قومي مصري على كتابات محمد حسين هيكل خلال العقدين الاول والثاني من هذا القرن . وقد ساعده على نشرها اسهامه في تحرير جريدة الجريدة (١٩٠٨ - ١٩١٥) ورئاسته لتحرير صحيفة السياسة والسياسة الاسبوعية (١٩٢٢ - ١٩٣٦) . على ان هذه الفكرة لم تولد مع هيكل بل هيأت لنموها ظروف سياسية واجتماعية ترجع الى عهد رفاعة الطهطاوي بالرغم من انها لم تكن آنذاك اكثر من مجرد تعبير عن الاحساس بالوطنية .

واشتد هذا الاحساس وقوي مع الجيل التالي . جيل العرابيين ، فأصبح تمييزاً لما هو مصري ازاء ما هو اجنبي . واذا اعتبرنا هذه النزعة ، اي النزعة نحو القومية المصرية ، ذات شقين: سياسي وفكري، فانه في زمن العرابيين طغى الشق السياسي فتمخضت عنه الثورة العرابية . وذلك على عكس ما حصل زمن الجيل اللاحق - جيل محمد عبده وتلاميذه الذين عملوا على نشر النزعة المصرية فكرياً حتى بلغت قمة نضوجها في العشرينيات من القرن الحالي مع هيكل وغيره من تلاميذ جريدة الجريدة وكتاب السياسة والسياسة الاسبوعية .

لهذا كان لا بد ، في هذا البحث ، من تتبع نمو الفكرة القومية المصرية في مراحلها المختلفة مع ذكر ابرز الشخصيات التي عُنيت بها ، ولو بشكل موجز . لذلك آثرنا البدء بجيل رفاعة الطهطاوي وتلاميذه ، ثم جمال الدين الافغاني وتلاميذه او جيل العرابيين ، ثم محمد عبده وتلاميذه . وبعد ذلك تحدثنا عن نشأة الاحزاب المصرية مع التركيز على

حزب الامة وطبقة الاعيان التي كانت وراء نشوئه ، باعتباره اشد الاحزاب مناصرة للفكرة القومية ، كما افردنا قسماً للتحدث عن احمد لطفي السيّد وجريدة الجريدة الناطقة بلسان حزب الامة والتي تبنت الدعوة للقومية المصرية والجامعة المصرية .

أما حديثنا عن هيكل فقد قسمناه الى فصول ثلاثة : الاول يتعلق بحياته ، والثاني بفكره ، والثالث بكتاباته في جريدة "الجريدة" وفي جريدة" السياسة" وصحيفة السياسة الاسبوعية . ورأينا ان نقف بالبحث عند مطلع الثلاثينيات لأنه منذ ذاك الحين اتجه هيكل الى كتاباته الاسلامية مغيراً اسس دعوته من ربط مصر بالماضي الفرعوني الى ربط مصر بالعصر الاسلامي . غير انه مع ذاك ، لم يغيّر اتجاهه القومي المصري اذ لم يكن في اي وقت من الاوقات من مناصري الجامعة الاسلامية او القومية العربية .

اعتمدت في هذا البحث (على كتبه الصادرة حتى بداية الثلاثينيات : زينب (١٩١٤) وفي اوقات الفراغ (١٩٢٥) وتراجم مصرية وغربية (١٩٢٩) وولدي (١٩٣١) و ثورة الادب (١٩٣٣) واكثرها نشر في السياسة والسياسة الاسبوعية .

كما اعتمدت على مذكراته التي اصدرها عام ١٩٥١ من ثلاثة اجزاء . وقد عكفت على قراءة ما عثرت عليه من مقالاته في النسخة الناقصة من جريدة الجريدة التي تحويها مكتبة الجامعة ، كما قرأت مقالاته في السياسة الاسبوعية (١٩٢٦ - ١٩٣٠).

اما يوميات باريس، التي لم تزل مخطوطة في حوزة ابنه أحمد هيكل ، فلم يتسنّ لي الاطلاع عليها بالرغم من بذل محاولات عدة للاطلاع عليها باءت جميعاً بالاخفاق . ولذا اعتمدت على ما كتبه حسين فوزي

النجّار والمستشرق تشارلز سميث عنها . واما مقالاته الاخرى في السياسة اليومية والسفور والاهرام فالمتعلق منها بموضوع البحث قليل نسبياً ، وقد نشر معظمها في كتبه لاحقاً فعدت اليها في هذه الكتب .

بالنسبة للمراجع المتعلقة بالبحث ، فإن الكتب التي تتناول النهضة الفكرية والثقافية في مصر كثيرة متعددة دون ان يكون بينها كتاب متخصص في بحث الدعوة للقومية المصرية، ولذا كان عليّ ان اجمع من متونها المتفرقة ما يفيد هذا البحث .

اما الكتب التي تتناول هيكل وفكره وآثاره فتكاد لا تتعدى اصابع اليد الواحدة ، معظمها سرد لاحداث حياته مأخوذ في غالبيته من مذكراته ؛ والكتاب المتميز الذي نجد فيه تحليلاً قيّماً هو كتاب "تشارلز سميث". لذلك احسست ، اثناء بحثي في كتابات هيكل وتصنيفها واستخراج ما يبرز دعوته للقومية منها ، انني اقدم على عمل جديد بعكس الاحساس الذي تملكني عند كتابة القسم الاول من البحث اذ وجدتني عاجزة عن ان اضيف ما كتب عن محمد عبده وجمال الدين الافغاني وأحمد لطفي السيد وغيرهم، فاقتصر العمل هنا على جمع المواد ومحاولة الربط بين ما تفرق منها لتشكيل خلفية لموضوع البحث .

المحتويات

مـدخـل

تمهيـــد

اسباب الدعوة الى القومية المصرية

مع بداية القرن الحالي ، وحتى أواخر العشرينات منه ، تبلورت فكرة القومية المصرية ونضجت . فكثرت الدعوات لمناصرتها وتأييدها وتعددت الكتابات التي حث اصحابها على خلق الادب المصري وتسجيل التاريخ المصري والتحدث عن الفن المصري بشكل عام .

أما الروافد التي غذّت هذه الدعوة فقد تشكلت من مصادر متفرقة . وقد رأينا ان نمهّد بذكر ابرزها من خلال تقسيمها الى مصدرين اساسيين : مصدر غربي او تأثير الواقع الغربي ،ومصدر مصري او تأثير الواقع المصري . هذا مع العلم اننا سنعالج بعضها بشيء من التفصيل عند حديثنا عن تطور مفهوم القومية .

أولاً : تأثير الواقع الغربي :

منذ اواخر القرن التاسع عشر ، أخذ عدد الطلاب المصريين الذين يؤمون اوروبا للدراسة في جامعاتها يزداد . فلم يعد السفر الى الخارج لتلقي العلم مقتصراً على البعثات الحكومية بل أصبح الاعيان والأثرياء من المصريين يوفدون ابناءهم الى جامعات اوروبا على حسابهم الخاص ، كما أخذت بعض الطوائف ترسل ايضاً أفراداً من طائفتها على نفقتها من اجل إكمال تعليمهم في الخارج. كما فعل أخنوخ

فانوس مثلاً .[١] فتأثر هؤلاء بما كان سائداً في الغرب من تيارات فكرية وسياسية وأهمها :

أ - انتشار الشعور القومي في اوروبا :

كانت فرنسا ، في القرن التاسع عشر ، تموج بمبادىء الحرية والإخاء والمساواة التي نجحت ، بعد الثورة الفرنسية ، في خلق نمط جديد في الفكر الفرنسي وفي قيام نظام تربوي جديد يرتكز على القومية .[٢] واعتبر التعليم ، للمرة الأولى ، واجباً وهدفاً أساسياً للأمة ، لأنه يؤدي الى نشوء وحدة بين المواطنين وارض الوطن : لذلك تحول الاهتمام من تدريس الادب الكلاسيكي والعلوم الانسانية الى تدريس الاناشيد الوطنية والتاريخ .[٣] أما خارج فرنسا فقد قامت المجموعات العرقية في اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية على السواء تطالب باستقلالها . من هذه المجموعات، الصربيون والبلغار والبولنديون والرومانيون واليونانيون والألبان والكرواتيون وغيرهم . فثارت هذه القوميات ، طوال قرن كامل ، (١٨١٥ - ١٩١٨) ضد الحكم الملكي الذي كانت تمارسه كل من روسيا والمانيا وتركيا .[٤] ولما تمتعت باستقلالها رأت ان تحافظ على مواطنيها بتنمية الشعور القومي عندهم .

١- انظر يونان لبيب رزق ، الحياة الحزبية في مصر ، ص ٢١. وسنشير اليه فيما بعد باسم : رزق.(أخنوخ فانوس درس على نفقته في الجامعة الأميركية في بيروت وهو قبطي مصري من طائفة البروتستنت) .

٢- Hans Kohn, *Nationalism: Its Meaning and History,* P. 26.

وسنشير اليه فيما بعد باسم : Kohn

٣- نفسه.

٤- نفسه .

وقد قامت نظرية "الروح الشعبية" (Folk Spirit) التي ابتدعها الماني من تلامذة روسو وهو "يوهان هردير" (Johann Herder 1744-1803) بدور هام في تنمية الشعور القومي . تظهر هذه النظرية ان التقاليد الوطنية تصل ما بين مفهوم الوطنية والزمن القديم . لذلك شدد هردير على اهمية الأغاني الشعبية وكل ما يطلق عليه تسمية فولكلور .[١] كان ذلك في المانيا ، أما دويلات اوروبا الشرقية فقد تأثرت ايضاً بهردير وأدّى هذا التأثر الى ان ازداد الميل الى كتابة الادب الخاص بها باللغات المحكية او الدارجة ، وبدأت تبحث في تقاليدها الشعبية .[٢]وبعد أن كانت الطبقات المثقفة منها تتكلم اللغة الفرنسية والألمانية واللاتينية بدأ الجيل الجديد من المثقفين يدون قواعد للغته القومية ويضع القواميس لها ويجمع الأغاني الشعبيـــة ويهتم بالبحث في كتب التاريخ.[٣]

وسنجد دعاة القومية المصرية فيما بعد يسيرون على المنوال نفسه . فهم لا ريب تأثروا بهذه الحركة في الغرب ، سواء باطلاعهم المباشر على أفكار هردير أو غير المباشر ، لأن دعوتهم تمحورت بالاجمال حول النقاط التالية :

١ – إحياء كل ما يتصل بالماضي من فنون وآثار وتاريخ وتقاليد.

٢ – استخدام اللغة العامية .

٣ – نبذ الادب الكلاسيكي وقواعد اللغة الموروثة .

٤ – الدعوة الى التجديد في الأدب واللغة .

١- Kohn, P.P. 30-31

٢- نفسه ، P.P. 46 - 47

٣- نفسه .

ب - تهجمات بعض الغربيين على مصر :

قام بعض المؤرخين الغربيين بوضع كتب تعطي صورة مشوهة عن مصر والمصريين وتحط من شأنهم وشأن تاريخهم .[١] ويذكر انيس صايغ ان هذه الآراء تعود الى مخيلة مريضة اسم صاحبها "هوبينو" (وهو كونت فرنسي غريب الاطوار - كما يصفه)، الذي قال ان مصر بلد مستعبد للآخرين منذ مطلع التاريخ لأنه قلما استقل وان احتلال الاجانب لمصر طيلة التاريخ ولد في الشعب المصري عبودية طبيعية .[٢] هذه التهجمات دفعت بالمصريين الى الاسراع في الرد عليها وكان في طليعتهم قاسم امين الذي وضع كتاباً بالفرنسية اسماه "Les Egyptiens" (١٨٩٣) أو "المصريون" يرد فيه على الدوق داركور (Le Duc d'Harcourt) . وكان هذا الاخير قد وصف المصريين في كتاب له (١٨٩٣) بأنهم متأخرون حضارياً وفكرياً وتربوياً ، وعاب عليهم معاملتهم للمرأة وتركها عرضة للجهل ، وأرجع ذلك كله الى العقيدة الاسلامية التي يدينون بها .[٣] فانبرى قاسم امين يفند مزاعمه ويقول ان عيوب المصريين منشؤها توالي الحكومات الفاسدة على بلادهم وليس عقيدتهم الدينية .[٤]

وكان محمد حسين هيكل ايضاً من الذين قاموا يدافعون عن

١- محمد حسين هيكل ، تراجم مصرية وغربية ، ص ١٠. وسنشير اليه فيما بعد باسم : هيكل، تراجم ؛ وانيس صايغ ، الفكرة العربية في مصر ، ص ٨٤. سنشير اليه فيما بعد باسم : صايغ .

٢- صايغ، ص ٨٤ .

٣- محمد حسين هيكل : في أوقات الفراغ ، ص ١٢٩. وسنشير اليه فيما بعد باسم : هيكل : في اوقات.

٤- نفسه .

وطنيتهم فصب جام غضبه على العرب وعلى الفرنسيين وعلى الانجليز على حد سواء . فحسب رأيه ان العرب الذين خلفوا الرومان في مصر شوهوا التاريخ المصري ، وشوهه ايضاً نابوليون حين قدومه بالحملة الفرنسية ، ولم يقصر الكتاب الانجليز كذلك في تشويهه تشويهاً قائماً على اساس استعماري . فهم الذين روجوا ، على حد قوله ان شعب مصر ظل محكوماً بأمم اجنبية منذ عهد الفراعنة ."[١]

ويرد هيكل على ذلك بقوله :"ان كل الذين اقاموا بمصر اما تمثلتهم مصر فأصبحوا مصريين او لفظتهم فلم يطيقوا ، ولم يطق أخلافهم من بعدهم، بها مقاماً." [٢] ورأى ان السبيل لإبطال هذه المزاعم هواعادة كتابة التاريخ المصري منذ عهد الفراعنة حتى يومنا هذا بطريقة علمية نزيهة. ومن هنا جاءت دعوته لإنشاء ادب قومي مصري يستلهم من مصدرين: التاريخ والطبيعة . فهو يقول بهذا الشأن :"هذا التاريخ وذاك الوادي ونهره كلها جديرة بأن تكون مصدر الوحي لأدب قومي يصور مصر في ماضيها وحاضرها صورة صادقة قوية تنطبع في نفوس ابنائها وفي نفوس الاجانب عنها ممن يقرأون هذا الادب فيعرفون مصر كما هي حقاً، لا مصر التي شوهت أشد تشويه بالدعاية الفاسدة لغايات سياسية

١- هيكل ، تراجم ، ص ١٠ .

٢- نفسه . وراجع للتفاصيل ص ص ١١-٢٥. ويبدو هيكل في رده هذا منطقياً شديد الحجج والادلة التاريخية ، بالرغم من انه بعض الاحيان ، وربما لشدة اعتزازه بمصريته، يندفع اندفاعاً رومنطيقياً وهو يتكلم عن هذه القضية . مثل قوله عن مصر : "هي عالم وحده ، تخلق الناس فيها خلقاً ، وتسكب في عروقهم دماء تجري فيها روح النيل وقوة سلطانه". ثم يعزو عدم قيام الثورات في مصر الى الطبيعة المصرية "من شمس وهواء ونهر وارض ورمال. هذه الطبيعة لا تعصف بشيء اجنبي عنها ولكنها تظل حتى تبليه وتفنيه."

وغير سياسية."[١]

ثانياً : تأثير الواقع المصري :

أ - الاحداث السياسية :

كان للأحداث السياسية التي شهدتها البلاد ، بدءاً بغزو نابوليون حتى الاحتلال البريطاني وما بينهما من احداث وانتفاضات كالثورة العرابية وحادثتي دنشواي وطابا وثورة ١٩١٩ ، أثر شديد في بروز النزعة الوطنية وتغذية الشعور القومي . ويكفي ان نعرف ان حادثتي دنشواي وطابا كانتا من اهم الدوافع لاصدار صحيفة "الجريدة" التي تبنت فكرة "المصرية" او القومية المصرية ، حتى لقب رئيس تحريرها ، احمد لطفي السيد ، "بأبي القومية المصرية" لأنه كان اول من نادى بها . كما ان ثورة ١٩١٩ جاءت لتثبت ركائز هذه الدعوة . ونستشهد بقول لمحمد محمد حسين يذكر فيه أثر هذه الثورة : "بدا عند ذلك ان الحركة الوطنية تنحرف نحو الانطواء على نفسها وان فكرة الانفصاليين ."[٢] الذين كانوا يدعون قبل الحرب الى قصر الجهود على معالجة مشاكل المصريين قد انتصرت . واطلت النعرة الفرعونية برأسها، واسفرت عن وجهها ، بعد ان كانت لا تظهر الا مقنعةاو من خلف الستار ، وانتهز دعاتها هذه الفرصة المؤاتية فنشطوا لغزو الافكار بها ، وملأوا ابصار قارئي الصحف واسماع مشاهدي الندوات بالدعاية لها ، ورسموا رأس ابي الهول على طوابع البريد وعلى اوراق النقد ، واتخذه النحات محمود مختار شعار تمثال نهضة مصر الذي وضع نموذجه في

١- محمد حسين هيكل ، ثورة الادب ، ص ١٣٠. وسنشير اليه فيما بعد باسم : هيكل، ثورة .

٢- يعني بهم افراد حزب الامة واعضاء الجريدة وربما كان يشير بشكل خاص الى لطفي السيد .

باريس سنة ١٩٢٠. واتخذت كل كلية من كليات الجامعة شعاراً لها يمثل وثناً من معبودات الفراعنة ، ونقلت رفات سعد زغلول بعد وفاته بثلاث سنوات الى ضريح بني على طراز فرعوني ، ووقف حافظ ابراهيم في الحفل الذي اقيم تكريماً لعدلي يكن بعد عودته من اوروبا قاطعاً مفاوضات الانجليز (١٩٢١) فألقى قصيدة تسيطر عليها هذه النزعة الفرعونية من اولها الى آخرها."[١]

ب - الكشوف الأثرية :

بدأ الكشف عن آثار مصر في القرن التاسع عشر ، بعدما عثر احد ضباط حملة نابوليون على حجر من الغرانيت الاسود يحمل ثلاثة انواع من الكتابة : صورية وهروغليفية واغريقية . وبواسطته استطاع شامبليون في العام ١٨٢٢ فك الرموز الهيروغليفية، فكان ذاك بداية علم الآثار المصري المسمى بالاجبتولوجي. ثم تأسس المتحف المصري عام ١٨٦٣ بإدارة "اوغست ماريت" ، ثم خلفه ماسبرو العلامة الفرنسي الذي قال "ان القومية المصرية صمدت منذ اقدم العهود بفضل محافظة المصريين على نقاوة قوميتهم." [٢] وتوسعت هذه الاعمال في القرن العشرين وتوجت باكتشاف مقبرة تون عنخ آمون في العام ١٩٢٢. وكان لذلك الاكتشاف اثر كبير في نشر الافكار التي تدعو الى بعث الحضارة القديمة والى إعادة ربط الحاضر بالماضي العريق .[٣] يقول هيكل:"كلنا صفق طرباً لاكتشاف آثار توت عنخ آمون . كلنا ملأ ماضيه

١- محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ١٤٦. وسنشير اليه باسم : حسين .

٢- صايغ ، ص ١٣٢ .

٣- انظر فؤاد مرسي خاطر ، حول الفكرة العربية في مصر ، ص ٦٦. وسنشير اليه فيما بعد باسم : خاطر .

فخراً بمدينة هذه الاسرة الفرعونية على ما بيننا وبينها من آلاف السنين . وكلنا حدثته نفسه : ان كان اجدادي قد تسنموا هذه الذروة السامية ، ذرى المدنية ، فلما لا نتسنمها نحن كما تسنموها." [١] فهو يرى الفرصة مؤاتية ، بعدما فتح شامبوليون الباب وكشف سر الهيروغليفية ، لترجمة الآثار الادبية والكتب الفرعونية .[٢] كما ان بعض المصريين اخذوا يكتشفون مناطق نائية في بلادهم وواحات مجهولة ويكتبون عنها . منهم ، على سبيل المثال احمد محمد حسنين ، وعبد اللطيف واكد .[٣]

ج - الجامعة المصرية :

إن انشاء الجامعة الاهلية عام ١٩٠٨ على ايدي مجموعة من المصريين المؤمنين بالقومية المصرية - احمد لطفي السيد وقاسم امين ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول - كانت بسبب ايمان هؤلاء بضرورة تعليم ابناء مصر وتثقيفهم كي يباشروا بالاصلاح في شتى مجالاته.

وعندما تحولت الجامعة الى جامعة حكومية عام ١٩٢٥، فإن احمد لطفي السيد شغل منصب مدير الجامعة لمدة طويلة وان طه حسين ، وهو من المؤمنين بالقومية المصرية ، شغل منصب عميد كلية الآداب لعدة سنوات ايضاً .

ثم ان الجامعة كانت ترسل بعثات تعليمية الى اوروبا وكانت اول بعثة (١٩٠٨) تضم محمود عزمي ومنصور فهمي اللذين عملا مدة

١- السياسة الأسبوعية ، عدد ٣٨ ، ٢٧ نوفمبر ١٩٢٦ . وسنشير الى هذه الصحيفة فيما بعد بـ س.أ.

٢- نفسه .

٣- صايغ، ص ٢٠٩ .

طويلة في سبيل القومية المصرية ،[١] ومن باب المقارنة بين الجامعات الثلاث يرى صايغ ان الجامعة المصرية اسدت من الخدمات للقومية المصرية بقدر ما اسدته الجامعة الأميركية من خدمات للقومية العربية وبمقدار ما اسداه الازهر للفكرة الاسلامية." [٢]

وبرغم هذا ، رأى محمد حسين هيكل الجامعة المصرية مقصرة من ناحية اهتمامها بالادب المصري وبالتاريخ المصري ، فحمل عليها حملة شعواء لم يسلم منها اساتذة الجامعة انفسهم ، وذلك في مقالة طويلة (ثمانية اعمدة) نشرها في صحيفة السياسة الأسبوعية .[٣] ويتضح لنا استنكاره من العنوان : "تاريخ مصر وأدابها لا يدرسان حتى اليوم في الجامعة المصرية". ليس هذا وحسب بل ان مدرسة الآثار بالجامعة المصرية الموجودة حالياً "والتي كانت نتيجة دعوتنا" ، كما يقول، غير كافية ولا وافية بالمطلوب ، فعملها يقتصر فقط على فك الرموز الهيروغليفية وغير الهيروغليفية .[٤]

د- دور الأقباط :

قام الاقباط بدور بارز في نشوء الفكر القومي وتطويره. فالاقباط أقلية في مصر ، وكي تحافظ على وجودها تمسكت بحبال الماضي وبانتمائها للفراعنة منذ القدم ، لكن الخط الذي سار فيه الاقباط في هذا المجال كان مبالغاً فيه ومتطرفاً . ويعتقد ان الانجليز شجعوا على قيام هذه الدعوة الفرعونية لأنهم كانوا يؤيدون الاقليمية المعادية لأية وحدة أو جامعة ، ولما كان الأقباط أقلية تخشى على نفسها

١- صايغ ، ص ١٢٥.

٢- نفسه .

٣- س.أ. ع ١٤٦ ، ٢٢ ديسمبر ١٩٢٨؛ سنتحدث بالتفصيل عن هذه المقالة لاحقاً .

٤- نفسه .

فقد وجدت الانجليز "حماة لمصالحها وبالتالي كانت اليد اليمنى التي تنفذ مآربهم وأهدافهم." [١] ويتبادر الى ذهننا ما ذكره "كون" عن نشوء القومية حين يقول ان المبالغة في الرجوع الى الجذور التاريخية عند القوميات الناشئة قد يكون بسبب شعورها بالنقص إزاء القوميات المرتكزة على دعائم ثابتة في حياتها السياسية والإجتماعية ، فتطرح هذه القوميات الناشئة اسئلة حول معنى قوميتها ، والبحث عن روحها القومية ومدى علاقتها بالغرب وقضايا مماثلة ."[٢]

وكلامنا السابق عن الاقباط يقودنا الى توضيح مسألة هامة في الدعوة الى القومية المصرية . فإن هذه الدعوة تكاد تقسم الى تيارين او شقين : التيار الاول يدعو الى قومية مصرية بمعناها الاقليمي في احيان كثيرة ، رافضاً كل ما هو غير مصري ، بما في ذلك العرب وحضارتهم وادبهم . لكن رفضهم هذا انما يجيء كمحاولة لإثبات الذات المصرية وتأكيد وجودها لا كرهاً للعرب او رغبة في إذلالهم والحط من شأنهم . أما التيار الثاني فيقف موقفاً متطرفاً من هذه القضية ، وقد تبناه الاقباط بالدرجة الاولى إذ اعتبروا انفسهم سكان مصر الحقيقيين . فكوّنوا حزباً في عام ١٩٠٨ ، اسموه بحزب الوطنيين المصريين . وقد أسسه "أخنوخ فانوس" الذي كان يعتبر ان كلمة "قبطي" توازي كلمة "مصري." [٣] وبدأ هؤلاء الاقباط يسمون اولادهم

١- صايغ، ص ٩٨. لمزيد من التفاصيل عن النشاط القبطي انظر صايغ، ص ٩٩؛ وعن الخصومة بين الاقباط والمسلمين أنظر: نصر الدين عبد الحميد نصر ، مصر وحركة الجامعة الإسلامية ، ص ص ٨٥-٨٧. وسنشير اليه فيما بعد باسم : نصر .

٢- Kohn, P.30

٣- خاطر، ص ٦٨؛ وأنظر : نصر ، ص ص ٨٣ - ٨٤.

بأسماء فرعونية مثل "رمسيس" و"مينا" ، ويصدرون مجلات تحمل اسماء فرعونية ايضاً مثل "رعمسيس" و"فرعون" . [١] وكان هؤلاء المتطرفون يفصلون فصلاً شديداً بين المصريين والعرب ، ويميزون المصريين على انهم ارقى من غيرهم . وقد وقف سلامة موسى ، مثلاً ، في هذا الاتجاه عندما رأى ان الانتماء للغرب اهون عليه من الانتماء للعرب ، بحجة ان "مصر أمة متوسطية تشترك مع الأمم الاوروبية بالدم الواحد والأصل الواحد والثقافة الواحدة". [٢]

وينوه بعض الكتاب بمحاضرة لمرقص باشا سميكة عن المتحف القبطي ، ألقاها في الجامعة الأميركية عام ١٩٢٦ في القاهرة ، فيعتبرونها "مثالاً للنزعة الفرعونية التي لا تخفى كراهيتها للعرب. [٣] وعلى أغلب الظن ان الاقباط تمسكوا بهذه النزعة بتطرف، الى جانب ما اشرنا اليه سابقاً من شعورهم بالخوف او النقص لكونهم اقلية ، من منطلق طائفي، لأن القومية المصرية كانت في ذاك الوقت تعارض الجامعة الاسلامية بل تنفي وجودها .

والواقع ان الاتجاهين في هذه الدعوة كانا يختلطان في أغلب الاحيان فنرى مواقف متناقضة او متباينة للأشخاص أنفسهم . وإن تساءلنا عن المرتبة التي كان يحتلها محمد حسين هيكل في هذه الدعوة لوجدناها متطرفة احياناً ومعتدلة في اكثر الاحيان خاصة في المرحلة المتأخرة من دعوته . غير أننا نستطيع دوماً تمييز موقفه عن موقف

١- خاطر ، ص ٦٨ .

٢- اياد ملحم ، السياسة الاسبوعية والحركة الادبية المعاصرة في مصر ، ص ٨٤. وسنشير اليه فيما بعد باسم :ملحم. ويذكر فؤاد خاطر ان طه حسين من المنتمين لهذا الاتجاه المتوسطي ايضاً، أنظر :خاطر، ص ٦٩.

٣- حسين، ج ١، ص ١٤٨.

المغالين من ذوي النزعة الفرعونية . فعندما اراد احد المستشرقين وهو "هاملتون جب"، تحديد موقف هيكل، حدّده بحذر اذ قال :"وقد بلغ من قوة هذا الشعور في نفسه ان أدّى الى شيء من الغيرة من العرب والى تنكر غريب للأدب العربي القديم الذي اعترف انه كفّ عن الاكتراث له منذ سنة ١٩١٠... على ان هذا الشعور المصري في نفسه يختلف اختلافاً كلياً عن ذاك الرغاء الذي شاع على اقلام بعض الكتاب المصريين منذ سنة ١٩١١." [١] لكننا عثرنا على مقالة لهيكل خطّها على المذكرات في عام ١٩١١ ولم ينشرها حتى عام ١٩٢٧؛ تبيّن اعتزازه وتمسكه بقوميته تسمكاً خطيراً اذ يقول :

"طال بي وبصديقي الحديث ليلة امس[٢] ... تكلمنا عن المصريين واحساسهم بقوميتهم وتكلمنا بهذه اللهجة المحزونة التي لا تغادر الانسان حين يذكر بلاده واهلها وحالهم وافكارهم ، وحين يذكر احتقارهم لجنسيتهم وتبرؤهم منها وبحثهم عن غيرها وانتسابهم مرة للعرب واخرى للأتراك وثالثة لأوروبا المسيحية ، وكأن انتسابهم لمصر التي اكلوا عيشها عار يفرّ الرجل منه . ولعمري لو ان لي من قوة لأمرت بنفي رجل ولد في مصر وينتسب لغير مصر . اي عار ان نكون مصريين ؟ وهل انتسابنا للعرب او للترك او لأوروبا اشرف لنا ؟ كلا انه انتساب الخادم الدنيء لسيد لا عظمة له إلاّ في عين هذا العبد لأنه سيده ، نحن مصريون ، مصريون فقط. وإذا كان قد وفد علينا من الترك او العرب او اوروبا اقوام اقاموا في بلادنا واختلطوا بنا فقد اصبحوا مصريين هم الآخرون ... أنا لا اعرف لي اباً غير مصري

١- هاملتون جب ، دراسات في حضارة الإسلام ، ص ص ٣٥٧ - ٣٥٨. وسنشير اليه فيما بعد باسم : جب .

٢- كان ذلك اثناء اقامته بباريس .

لأني لم ابحث عن اب غير مصري ، ابي وجدي وأمي وجدتي كلهم مصريون فليس في دمي ولا في جسمي نقطة ولا ذرة غير مصرية". [١]

غير ان الدعوة الى القومية المصرية لم تستمر طويلاً ، فقد تحوّل الكثير من دعاتها فيما بعد الى القومية العربية ، ونستشهد بأقوال لثلاثة من رواد القومية المصرية تدل على تغيير اتجاههم او ، على الاقل، اعراضهم عن دعوتهم المتطرفة واولهم محمد حسين هيكل ، الذي ايقن ان الردة الى الفرعونية لا تفي لقيام تيار حضاري وادبي جديد في مصر عكف على الدراسات الإسلامية . ويليه محمود عزت موسى الذي قال:"ان الدعوة الى خلق ادب قومي دعوة اصطناعية غير طبيعية ويصف ذاك العمل بالسذاجة مبرراً ان دعوتهم كانت بدافع "تخفيف تيار الادب الاجنبي من ناحية وتوجيهه الى ناحية محدودة أخرى" .[٢]وثالثهم محمد زكي عبد القادر الذي كتب مقالة بلهجة معتدلة يقول فيها ان الدعوة للأدب القومي بمعناه الفرعوني هي امنية صعبة التحقيق .[٣]

صحيح ان هذه الدعوة "لمعت كالبرق الذي يأخذ الابصار ثم اختفت"، على حد قول احدهم [٤]، لكن اثرها ظهر في نتاج الجيل التالي من الكتاب والادباء الذين طرقوا موضوعات من صميم الواقع المصري.

١- س.أ. عدد ٢،٥٦ ابريل ١٩٢٧. والمقالة بعنوان "في التورين"؛ ويذكر هيكل انه اخرج من ادراج مكتبه هذه المذكرات "وإن كانت حديث شاب ، وما يشوب مثل هذا الحديث من نقص". فهل يعني ذلك اعتذاراً عن موقفه ؟

٢- ملحم، ص ص ٨٩-٩٠ .

٣- نفسه ، ص ٧٠ .

٤- من مقالة كتبها مصطفى عبد اللطيف السحرتي المحامي في السياسة الاسبوعية ، أنظر : ملحم ، ص ٩١ .

فظهر الادب المحلي عند كل من محمود تيمور وطه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويحى حقي وغيرهم . وتجددت بذلك اللغة ، اذ اصبحت تحوي مفردات عامية وتركيبات بسيطة ومباشرة .[١] وظهر اثرها كذلك في المعارك الصحفية التي نشبت بين صحف الحركة القومية والصحف القبطية من جهة ، التي كانت تتغنى بمصر الفرعونية والاكتشافات الاثرية ، والصحف الاسلامية من جهة اخرى كاللواء التي هاجمت القوميين المصريين بقولها انهم حوّلوا الجامعة المصرية الى معهد قومي مصري ، وطالبت اللواء بجعل اسم الجامعة "الجامعة العربية" [٢] وقام من يكتب الردود على دعوات هؤلاء القوميين ، وعلى محمد حسين هيكل بالذات وزميله عبدالله عنان .[٣] وقد تسرب ايضاً اثر هذه الدعوة الى بعض الدول العربية . ففي لبنان مثلاً ، بعث توفيق عواد كلمة يناصر فيها الدعوة الى الادب القومي في مصر ويتمنى ان تطبق هذه الفكرة في لبنان ، لأن الادب في لبنان ، حسب قوله ، يكتب بلغة غريبة عن لغة اهله ، ويرى انه من "العبث ان ندعو الى ادب قومي وما زلنا متمسكين ببقايا العرب." [٤]

١- ملحم ، ص ٩٢ .

٢- صايغ ، ص ٢١١ .

٣- ملحم ، ص ص ٨٧ و٩١ .

٤- نفسه ، ص ٦٩ .

جيل رفاعة الطهطاوي ومفهوم الوطنية

يتفق المؤرخون والدراسون على ان رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) كان أول شخصية مصرية عُنيت بتحديد مفهوم الوطن والوطنية وحاولت شرح فكرة الامة المصرية وتحليلها .[١] وهو اول من استخدم كلمة "الوطن" ومشتقاتها بمفهوم الدولة ذات الحدود المعينة التي يقطنها جماعة تنتهي الى عرق اجتماعي واحد .[٢] ولأنه كان رائداً في استخدام مصطلحات الفكر الوطني والحديث عن الشخصية المصرية، يلقبه محمد عمارة " بأبي الفكر الوطني" [٣]؛ ويشاطره أنيس صايغ هذا الرأي في حديثه عن الطهطاوي في كتابه الفكرة العربية . فهو يقول عن الطهطاوي انه احد ثلاثة مفكرين مصريين - الآخران هما علي مبارك وحسين المرصفي - اهتموا بتحديد الوطنية وتعريفها .[٤]

فإذا عدنا الى الفترة السابقة لعصر الطهطاوي ، اي قبل عصر محمد علي ، فإن الناس لم يكونوا يعرفون الوطنية او القومية بل الذي كان يشدّهم بعضهم الى بعض هو رابطة الدين او الملّة - كما كانت تُسمى في اغلب الاحيان . وقد استغل العثمانيون رابطة الدين هذه اشد استغلال ليحكموا قبضتهم على العالم العربي . ففي ايام المماليك انعدم الشعور بالانتماء الوطني لأن الارياف

١- ألبرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة ، ص ٩١. سنشير اليه فيما بعد باسم : حوراني .

٢- محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي ، ج ١، ص ١٣١. وسنشير اليه فيما بعد باسم عمارة : الاعمال الكاملة للطهطاوي .

٣- نفسه .

٤- صايغ ، ص ٦٦ .

كانـت مـقـسمـة الى سناجق ، كل سنجق مـسـتـقل عن غـيـره بادارته وسياسته ؛ ولأن المدن كان يسود فـيـها نظام طوائف الحرف التي كانت تنتمي اليها مجموعات الناس مثل طائفة الاجناد ، وطائفة العلماء ، وطائفة المتصوفة ، والاعراب البـدو الخ ...[١]

غير ان هذه الحال تبدلت في عصر محمد علي . فإن سياسة التمصير التي اتبعها كان لها اثر كبير في بداية نمو الإحساس بالوطنية عند طائفة من المثقفين المصريين وفي طليعتهم الطهطاوي . والى جانب سياسة التمصير هذه ، كان هناك عدة عوامل ساعدت على تبلور هذا الإحساس . يأتي في مقدمتها سفر دفعات من الشبان المصريين ، في البعثات التي ارسلها محمد علي الى اوروبا وخاصة فرنسا واطلاع هؤلاء الشبان على العلوم الغربية . فالطهطاوي ، كما نعرف ، قرأ وهو في فرنسا ،[٢] مؤلفات فولتير وروسو ومنتسكيو .[٣] وقد ترجم ، كما يذكر خلدون الحصري ، نشيد المرسيلياز Marseillaise أثناء وجوده هناك، الامر الذي دعا الحصري الى الإعتقاد بأن الطهطاوي

١- عمارة ، الاعمال الكاملة للطهطاوي ، ص ١٢١ وص ١٢٢.

٢- سافر الطهطاوي مع افراد البعثة التي ارسلها محمد علي عام ١٩٢٦ بصفته إماماً وواعظاً لأفراد البعثة ، لكنه تعلّم الفرنسية وطلب ان ينضم الى افراد البعثة في الدرس والتحصيل .

٣- حوراني ، ص ٩١٢ . للتفاصيل عن قراءات الطهطاوي وعلومه أنظر Jamal Ahmed :*The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism,* P. 12 اذ يذكر الكاتب ان علوم الطهطاوي اثارت اهتمام المستشرقين الفرنسيين امثال جوبير وجومار وسلفستر دي ساسي ودي برسفال الذين ساعدوه على قراءة الفلسفة اليونانية. وسنشير الى هذا الكتاب فيما بعد باسم : Ahmed.

كان متأثراً بالمفهوم الغربي للوطنية .[١] ويبدو انه كان لبعض الاساتذة الفرنسيين ممن التقاهم الطهطاوي اثر ايضاً في إذكاء روح الوطنية عنده وعند زملائه ، من هؤلاء مثلاً ، استاذه الفرنسي "جومار" (Edme François Jomar)[٢] الذي كان باستمرار يحدّث اعضاء البعثة المصرية عن ماضيهم العريق ويحثهم على بعث ذلك المجد الثقافي والحضاري .[٣]

من ناحية اخرى ، هناك الدور الذي لعبه الفرنسيون إثر حملتهم على مصر ، في تغذية الروح المصرية لاستغلالها ضد المماليك ؛ حتى إن نابليون كانت له خطب مؤثرة في هذا الشأن . فمن اقواله التي يستشهد بها في الكتب :"إن جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل والفضل تضارب. فماذا يميّزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يتملكوا مصر وحدهم ؟... من الآن فصاعداً لا ييأس احد من اهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية" .[٤]

١- Khaldoun Al-Husry :*Three Reformers*, P.12 .

سنشير الى هذا الكتاب فيما بعد باسم: Al - Husry .

٢- هو الذي اشرف على نشر كتاب "وصف مصر" (Description de L'Egypte) .

٣- عمارة ، الاعمال الكاملة للطهطاوي، ص ٤٢ . من اقوال جومار التي ذكرها الكاتب ، على سبيل المثال :"أمامكم مناهل العرفان فاغترفوا منها بكلتا يديكم ... اقتبسوا من فرنسا نور العقل الذي رفع اوروبا على اجزاء الدنيا وبذلك تردّون الى وطنكم منافع الشرائع والفنون التي ازدان بها عدة قرون في الازمان الماضية ، فمصر التي تنوبون عنها ستسترد بكم خواصها الاصلية . وفرنسا التي تعلمكم وتهذبكم تفي ما عليها من دين للشرق على الغرب كله !".

٤- عمارة ، الاعمال الكاملة للطهطاوي ، ص ١٤ .

وقد ساعدت ايضاً الكشوف الاثرية التي تمت إبان البعثة الفرنسية ، وأهمها اكتشاف حجر رشيد[١] على يد احد الضباط الفرنسيين ومن ثم قيام العالم الفرنسي شامبليون بفك رموزه (١٨٢٢)؛ ونشر كتاب وصف مصر (Description d'Egypte) باشراف المهندس الجغرافي الفرنسي "جومار" – ساعدت على ربط مصر بماضيها القديم . فبدأت منذ ذاك الوقت دراسة التاريخ المصري وعلم الآثار المصري . هذه العوامل والأجواء خلقت عند الطهطاوي وزملاء له احساساً بالروح المصرية التي ظهرت فيما بعد في كتاباتهم ومؤلفاتهم .

خلّف الطهطاوي كتباً عدّة [٢] سنكتفي بذكر أربعة منها لأنها تتضمن آراءه حول الوطن والوطنية. هذه الكتب هي "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" (١٨٣٤)، و"مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية" (١٨٦٩)، و"المرشد الأمين في تربية البنات والبنين" (١٨٧٢)، "وأنوار توفيق الجليل في اخبار مصر وتوثيق بني اسماعيل" (١٨٦٨). ويعلّق بعض الدارسين اهمية كبرى على كتاب "مناهج الألباب" باعتباره ذا اثر بالغ في توجيه الفكر المصري في القرن التاسع عشر، لأن فيه وصفاً لمصر من الجوانب التاريخية والاجتماعية والاقتصادية وفيه

١- هو لوحة من الغرانيت تحمل كتابات ثلاثاً : صورية وهيروغليفية واغريقية ، تم العثور عليه بالقرب من بلدة رشيد ونقله الانجليز الى بلادهم بعد ان طردوا الفرنسيين عام ١٨٠١ من الاسكندرية. اطلق عليه الغربيون اسم "Rosetta Stone" .

٢- عمارة، الاعمال الكاملة للطهطاوي ، ص ص ٧٨ – ٨٣ حيث يعدد الكاتب مؤلفات الطهطاوي ويتحدث عنها بالتفصيل .

فصول عن الحقوق والواجبات الوطنية .[١] بينما يُشيد باحثون آخرون بكتاب "الانوار" لأنه يتحدث عن تاريخ مصر القديم بمنهج علمي عقلاني بعدما كانت اخبار مصر القديمة اساطير وألغازاً وخرافات؛ ولأن الطهطاوي؛ في كتابه هذا، خطا خطوة رائدة في اعادة إحياء تراث مصر القديم .[٢] وبصدد حديثه عن اهمية مؤلفات الطهطاوي-وكتاب مناهج الألباب بشكل خاص-يقول الكاتب السوداني جمال محمد احمد ان كتب الطهطاوي احيت في مصر ثلاثة اتجاهات ستشكل فيما بعد أسساً للحركة الفكرية الجديدة، وهذه الاتجاهات، حسب رأيه هي : تحديث اللغة العربية وإبراز فكرة القومية ومفهوم رومنطيقي جديد لمصر [٣] .

وللطهطاوي ايضاً قصائد ومنظومات، بدأ بنشرها منذ سنة ١٨٥٥، يتغنى فيها بمجد مصر والمصريين وبانتصارات الجيش المصري في عهد محمد علي وابنائه .[٤] وسنرى لاحقاً ، بعد اكثر من سبعين سنة،

١- فهو يستهل كتابه بمقدمة تحمل هذا العنوان :"في ذكر هذا الوطن وما قاله في شأنه اصحاب الفطن". وانظر على سبيل المثال فصولاً في :"الأخوة الوطنية"، (ص ٣١٩) "المصريون والعمل" (ص ٣٣٦) و "حضارة مصر القديمة" (ص ٣٨٣)، "وحقوق الرعية" (ص ٥٢٤). انظر:عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي، ص ٤١٦، وفيه ترجمة لرفاعة الطهطاوي ص ص ٣٨٢ – ٤١٦. وسنشير اليه لاحقاً باسم: الرافعي عصر محمد علي.

٢- صابغ ، ص ٦٣؛ عمارة ، رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث ، ص ١١٦ . وسنشير الى هذا الكتاب فيما بعد باسم :عمارة ، الطهطاوي رائد .

٣- Ahmed, P.14

٤- Al - Husry, P.30

وعمارة، الاعمال الكاملة للطهطاوي ، ص ٨١. ويذكر عمارة قصيدتين وخمس منظومات ويورد مطلع كل منها .

ان صحيفة السياسة الاسبوعية التي كان يرأس تحريرها محمد حسين هيكل تعود الى هذه القصائد لتشيد بها اثناء دعوتها للقومية المصرية . ففي مقالة وردت في الصحيفة بعنوان "هل لنا ادب قومي" يذكر كاتبها، نقولا يوسف ، ان الطهطاوي كان ينشر قصائده هذه لتكون "وسيلة اعتزاز بالقومية المصرية" .[١]

والى جانب اسهامه في التأليف ثمة عملان جليلان قام بهما الطهطاوي وهما: إنشاء مدرسة الألسن ، ورئاسة تحرير الوقائع المصرية .

أنشئت مدرسة الألسن سنة ١٨٣٦ بالازبكية [٢] لتدريس اللغات (او الألسن كما كانت تسمى آنذاك)، فكانت تدرس فيها اللغات التركية والفارسية والايطالية والفرنسية والانجليزية . وقد عنيت بترجمة العديد من الكتب الاجنبية الى اللغة العربية لنقل العلوم والحضارة الغربية ، بهدف نشر الثقافة الحديثة في مصر. وذلك ، كما يعتقد البعض، بعد ان ضاقت دائرة الدراسات والعلوم التي كان يقدمها الأزهر. ويقول محمد حسين هيكل بهذا الشأن :"لقد ادرك اهل ذلك العصر إدراكاً تاماً ان المدنية الغربية قوية التيار جارفته . وان الحضارة الاسلامية التي يمثلها الازهر اصبحت غير قادرة على الوقوف في وجه هذا التيّار كما انها كانت قد جمدت على تعاليم لا تقبل ان تطعم بالتعاليم الحديثة" .[٣]

وقد تولى رفاعة الطهطاوي نظارة مدرسة الألسن[٤] وتخرج

١- س.أ. ٢٦ يناير ١٩٢٩ .

٢- أنظر بشان مدرسة الألسن : الرافعي، عصر محمد علي ، ص ٣٦٢ .

٣- هيكل ، تراجم ، ص٩٧.

٤- الرافعي: عصر محمد علي ، ص ٣٦٢ .

على يديه نخبة من العلماء والأدباء عرّبوا نحو ألفي كتاب او رسالة في مختلف الفنون .[١]

وقد اقفلت مدرسة الألسن في عهد عباس ثم اعيد فتحها في عهد اسماعيل عام ١٨٦٨ باسم مدرسة الإدارة ، ثم تطورت منذ سنة ١٨٨٦ الى مدرسة الحقوق . غير ان الترجمة لم تلق عناية في هاتين المدرستين ؛ ويعتبر البعض ان مستوى الترجمة تدنى في مصر منذ اقفال مدرسة الألسن في عهد عباس ؛[٢] لكن الرافعي يجزم بأن الذين نبغوا في الترجمة والتعريب على عهد محمد علي واسماعيل كانوا من تلامذة رفاعة .[٣]

أما الوقائع المصرية فقد اصدرها محمد علي في ديسمبر ١٨٢٨ باللغتين التركية والعربية . وفي عام ١٨٤٢ تولى رفاعة رئاسة تحريرها وخاض معركة - اسماها لويس عوض معركة "التمصير" - ليجعل النص الاصلي للصحيفة باللغة العربية ولتكون الصيغة التركية مترجمة عن العربية وليس العكس .[٤] وكان للطهطاوي ما اراد فأخذ يحول الافتتاحيات الى مقالات في التربية الوطنية والسياسية والإجتماعية بعد ان كانت مجرد مدائح وتمجيد للوالي، فسجّل بذلك

١- نفسه ، ص ٤١٤؛ ويذكر الرافعي هذا العدد نقلاً عن كتاب قدري باشا "معلومات جغرافية" الذي نشر عام ١٨٦٩، ويذكر كل من هيكل وهملتون جب العدد نفسه في كتابيهما تراجم (ص ٩٨) ودراسات في حضارة الإسلام (ص ٣٢١). بشأن خريجي مدرسة الألسن أنظر عصر محمد علي ، ص ص ٤١٢ - ٤١٤.

٢- نفسه ، ص ٤١٤ .

٣- نفسه .

٤- لويس عوض ، تاريخ الفكر المصري الحديث من عصر اسماعيل الى ثورة ١٩١٩، ج ٢، ص ٢٢٠، وسنشير اليه فيما بعد باسم : عوض .

بداية "صحافة الرأي" في مصر"[١] . وكان كما يقول عنه تلميذه، صالح مجدي ، "أول منشىء لصحيفة اخبارفي الديار المصرية." [٢] ولما جاء عبّاس نفى رفاعة الى السودان ومنع عامة الناس ممن هم اقل رتبة من امير آلاي من تداول الصحيفة .

كنا قد ذكرنا انه قد تخرج على يدي الطهطاوي نخبة من الادباء والعلماء ، وسنتعرف فيما يلي على نفر منهم ابدعوا في مجالات الكتابة والصحافة واسهموا من بعده في وضع دعائم النهضة الفكرية .

منهم :

عبدالله ابو السعود :صاحب جريدة وادي النيل (١٨٦٦) التي اصدرها بتشجيع من الخديو إسماعيل لترد على الجوائب، [٣] صحيفة احمد فارس الشدياق، التي كانت تهاجم اسماعيل .

محمد عثمان جلال : هو صحفي ومعرّب . اشترك مع ابراهيم المويلحي في انشاء "نزهــة الافكار" (١٨٦٩)[٤] . وكان يجيد التعريب مع تمصير ما يعربه احياناً . مصّر من اللغة الفرنسية كوميديات موليير وكتبها باللهجة العامية المصرية كذلك ترجم بعض تراجيديات راسين الى اللغة العامية المصرية (في كتاب "الروايات المفيدة في علم التراجيدة") "ولم يكن عصره يسمح بمثل هذا العمل الجريء". [٥] وله ايضاً كتاب "العيون

١- عوض، ج٢ ، ٢٢. ؛ وعمارة ، الاعمال الكاملة للطهطاوي ، ص ٣٥.

٢- عوض ، ج ٢، ص ٢٢٠ .

٣- نفسه ، ٢٢١ .

٤- نفسه .

٥- جب، ص ٢٢١. وانظر بشأن ترجمات جلال المسرحية كتاب المسرحية في الادب العربي الحديث لمحمد يوسف نجم ص ص ٢١٨-٢٢١، ٢٧٣- ٢٩٠.

اليواقظ" وهو تعريب شعري لخرافات لافونتين .[1]

محمد قدري : الذي اشتغل بالترجمة ووضع كتباً في القانون. أشهر كتبه ثلاثة وضعها في القانون والتشريع وهي : "مرشد الحيران الى معرفة أحوال الإنسان"، و"الاحكام الشرعية في الأحوال الشخصية"، و"قانون العدل والإنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف".[2]

ميخائيل عبد السيّد : الذي أصدر جريدة الوطن (١٨٧٧-١٩١٩) وكتب على صفحاتها ، حسبما يقول فاروق ابو زيد ، مئات المقالات التي تهاجم الحكم الاستبدادي وتطالب بالدستور وتدعو الى فكرة الوطنية المصرية، وكان اول من استخدم شعار "مصر للمصريين".[3]

علي فهمي رفاعة : وهو نجل رفاعة الطهطاوي تولى تحرير مجلة روضة المدارس (١٨٧٠) .[4] ثم تولى رئاسة تحريرها بعد وفاة رفاعة .[5]

علي مبارك : من تلامذة رفاعة الطهطاوي وسنتناول حياته بشيء من التفصيل لأنه كان احد قادة الفكر بعد الطهطاوي .

١- عبد الرحمن الرافعي ، عصر اسماعيل ، ج ١، ص ٢٦١. وسنشير اليه فيما بعد باسم الرافعي : عصر اسماعيل .

٢- الرافعي: عصر محمد علي ، ص ٤١٣، وايضاً هيكل ، تراجم ، ص ٩٦ حيث يفرد هيكل ترجمة مفصلة له .

٣- فاروق ابو زيد ، عصر التنوير العربي ، ص ٢٤ وسنشير اليه فيما بعد باسم:ابو زيد .

٤- الرافعي : عصر اسماعيل ، ج١ ، ص ٢٤٨ .

٥- عمارة ، الأعمال الكاملة للطهطاوي ، ج ١ ، ص ٦٨ .

ولد علي مبارك[١] في برنبال الجديدة عام ١٨٢٤ وأصّر على تلقي علومه برغم المصاعب الكثيرة التي اعترضته. سافر الى فرنسا في البعثة الخامسة التي ارسلها محمد علي ومكث هناك ستة اعوام[٢] تعلّم فيها الفنون الحربية وأتقن اللغة الفرنسية . وبعد عودته الى مصر جعل وزيراً للمعارف في عهد اسماعيل فوجّه اهتمامه وجهده الى ترقية التعليم . ونستطيع ان نعتبره مؤسس اربعة مراكز حيوية في مجال الاصلاح التعليمي والثقافي في مصر ، وهي :

١ – الكتبخانة الخديوية (دار الكتب) : انشأها علي مبارك عام ١٨٧٠ بتشجيع من الخديوي اسماعيل . وعن الهدف من انشائها يقول "{أردت} ان اجعل كتبخانة خديوية داخل الديار المصرية ، أضاهي بها كتبخانة باريس ... فجمعت فيها ما تشتت من الكتب التي كانت بجهات الاوقاف، زيادة على ما صار مشتراه من الكتب العربية والفرنجية وغيرها ... وعملت لها قانوناً لضبطها وعدم ضياع كتبها." [٣] ويذكر الرافعي ان "اسماعيل باشا ابتاع مجموعة الكتب القيمة التي تركها اخوه الأمير مصطفى فاضل بعد وفاته وأهداها الى دار الكتب." [٤]

٢ – مجلة روضة المدارس : أنشأها علي مبارك عام ١٨٧٠ ايضاً وأسند

١- راجع ترجمته في عصر اسماعيل ، ج١، ص ٢١٢ وما يليها ؛ وأحمد أمين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، ص ١٨٤. سنشير الى هذا الكتاب فيما بعد باسم : أمين .

٢- هي اكبر البعثات إذ ضمت اربعة وخمسين فرداً. وسميت بعثة الانجال لأنها تضمنت بعض انجال محمد علي وأحفاده. للتفاصيل عن هذه البعثة انظر :عصر محمد علي ، ص ص ٢٧٦ –٢٧٨.

٣- الرافعي : عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

٤- نفسه، وعن دار الكتب انظر ايضاً شوقي ضيف، الأدب العربي في مصر، ص٣٢.

رئاستها الى رفاعة الطهطاوي وتولى تحريرها ابن الطهطاوي، علي بك فهمي رفاعة، وظلت تصدر مرتين في الشهر لمدة ثماني سنوات ، وكان يحرر فيها نخبة من اهل العلم والأدب مثل عبدالله فكري والشيخ حسين المرصفي ورفاعة الطهطاوي وعلي مبارك واسماعيل بك مصطفى الفلكي ومحمد قدري وصالح مجدي وعبدالله ابو السعود . وكانت المجلة توزع مجاناً على التلامذة وتشجعهم على الكتابة . فقد نشر ، مثلاً الشاعر اسماعيل صبري بعض قصائده فيها وهو لا يزال تلميذاً .[١]

٣ – دار العلوم : أسست عام ١٨٧٢ وكان الهدف من تأسيسها تخريج معلمين من طلبة الازهر للمدارس الابتدائية ثم للمدارس الاخرى . فقد اشتمل برنامج التعليم على علوم لا تدرس في الأزهر مثل الحساب والهندسة والجغرافية والتاريخ وغيرها . وكان التعليم فيها مجاناً مع دفع مرتب شهري للتلاميذ .[٢]

٤ – قاعة المحاضرات او مدرج المحاضرات : أنشئت عام ١٨٧١ بسراي درب الجماميز. وكانت تلقى في هذه القاعة دروس ومحاضرات من قبل علماء كبار أمثال حسين المرصفي (في اللغة العربية) واسماعيل بك الفلكي (علوم الفلك) وكان لهذه المحاضرات اثر بالغ في تثقيف الطلاب . وكان مبارك احد المحاضرين فيها .[٣]

وكان لعلي مبارك صالون يجتمع فيه اعيان البلاد ، وربما كان بذلك الشخصية المصرية الأولى التي اوحت للمثقفين فيما بعد بفتح مثل هذه "الصالونات" للتداول في شؤون الأدب والثقافة واحداث الساعة ؛ فأصبح هناك ، مثلاً صالون الأميرة نازلي فاضل وصالون

١- أنظر الرافعي : عصر اسماعيل ، ص ص ٢٤٨-٢٤٩ .

٢- نفسه ، ص ٢٣٦ .

٣- نفسه ، ص ٢٣٧ .

العقاد وصالون مي زيادة. ومما يذكر ان مصطفى كامل ، الشاب أنذاك ، كان يتردد على صالون علي مبارك وكان يتلقى فيه "تدريباته الاولى على الحياة السياسية وعلى فن التهييج السياسي ."[١]

من مؤلفات علي مبارك نشير بوجه خاص الى كتابين : الأول هو "الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة" [٢] الذي ظهر بين سنتي ١٨٨٧ - ١٨٨٩ ، وهو كتاب ضخم يقع في عشرين جزءاً . والكتاب الثاني هو كتاب "علم الدين" (١٨٨٢) .[٣]

يهمنا من الكتاب الاول انه يتضمن قسماً كبيراً في البحث عن آثار مصر الفرعونية ، ويتحدث باسهاب عن علوم الفراعنة ودياناتهم وعاداتهم وذلك باسلوب جريء ولهجة لا تخلو من الاعتزاز والمفاخرة .[٤] وكنا قد اشرنا الى أن الطهطاوي سبق مبارك في الدعوة الى تاريخ مصر القديم في كتابه "أنوار توفيق الجليل"، لكن يبدو ان مبارك فاقه في اسهابه واسلوبه الجريء . وسيغدو الحديث عن الحضارة الفرعونية فيما بعد المنطلق الذي يبدأ به كل كاتب او مفكر يدعو الى القومية المصرية .

أما كتاب "علم الدين" فهو قصة شاب أزهري يصادف سائحاً انجليزياً في مصر فيساعده في تحرير قاموس عربي ثم يصحبه الى أوروبا . ويروي علم الدين ، وهو اسم الشاب المصري ، انطباعاته ومشاهداته حول الحياة في اوروبا ، في فصول تسمى "مسامرات" ، ومن

١- عوض ، ج٢، ص ١٦١ .

٢- يُعرف بـ "الخطط التوفيقية" أو "بالخطط" .

٣- ظهر في طبعته الأولى في أربعة مجلدات .

٤- صايغ ، ص ٦٣؛ الرافعي ، عصر اسماعيل، ج١، ص ٢٤٢ .

ثم يقارن بينها وبين الحياة في الشرق . أما الهدف الذي يحمله علي مبارك من هذه الرواية فهو الحث على التغيير وعلى الانفتاح لكسب المعارف والحضارة الغربية ؛[١] وذلك دون التخلي عن الاعتزاز بمصر وبتاريخها والإشادة بعاداتها وحضارتها . ولذلك يجد البعض ان القصة تنطوي على بحث وافٍ في الوطنية ، وعلى وصف الوطن "وصفاً يكاد يكون الأول من نوعه" لأنه يفرق بين المصريين والعرب ، فهو يتحدث عن العرب" وكأنهم شعب منفصل عن مصر تمام الانفصال ." [٢]

الى جانب الطهطاوي ومبارك هناك علم آخر جدير بأن ينوّه بما قام به في دفع عجلة النشاط الفكري والاسهام في البحث عن معنى "المصرية" . هذا العلم هو حسين المرصفي .[٣]

وُلد حسين المرصفي (؟- ١٨٨٩) في قرية مرصفى من مديرية التليوبية ؛[٤] كفّ بصره وهو يافع فحفظ القرآن ودخل الازهر وأخذ العلم عن الشيخين حمزة فتح الله ومحمد عبده. وفي عام ١٨٧١ بدأ يُلقي محاضرات في الادب العربي وتاريخه في قاعة المحاضرات التي

١- أنظر في . *Intellectual life in the Arab East ,1890- 1939* مقالة لوداد القاضي بعنوان "East and West in "Ali Mubarak's Alamuddin" .

٢- صايغ ، ص ٦٥ .

٣- عن المرصفي أنظر : أحمد زكريا الشلق ، حسين المرصفي وكتابه رسالة الكلم الثمان ؛ وسنعود اليه باسم : الشلق ، المرصفي. وأنظر : يوسف اسعد داغر ، مصادر الدراسة الأدبية ، ج٢ ، ص١١٨٨؛ ومحمد عبد الجواد ، حسين المرصفي .

٤- يذكر ان قريته هذه اخرجت أجيالاً من العلماء والأدباء وانتسب اليها العشرات من اعلام الفقه والحديث والتصوّف .

أنشأها علي مبارك .[١] ونهج نهجاً جديداً في تعريف علوم اللغة والاشتقاق والكتابة والتاريخ ثم جمع كل ذلك في كتاب ضخم يعرف "بالوسيلة الادبية" .[٢] أخذ عنه كبار الادباء امثال حفني ناصف واحمد مفتاح واحمد الاسكندري وعبدالله فكري واحمد شوقي ، وصاحبوه ولازموه . وكان قد تعلّم القراءة في مدرسة العميان التي أنشأها الخديوي اسماعيل (١٨٧٠) كما تعلّم الفرنسية وأتقنها . كتب في مجلة روضة المدارس ، ودرّس اللغة العربية في مدرسة العميان والخرس وفي دار العلوم. وألّف ، فضلاً عن الوسيلة الأدبية ، كتاب "الكلم الثمان" ، و"زهرة الرسائل" و"المسترشد في الإنشاء". غير أننا سنقف عند كتابه "الكلم الثمان" الذي قيل عنه انه "اول الكتب العربية في التربية الوطنية والسياسية." [٣]

هذا الكتاب هو عبارة عن رسالة صدرت عام ١٨٨١ ، وهي تحتوي ، كما يقول المؤلف ، "على شرح لكلمات جارية على السنة الناس لهجوا بذكرها في هذه الأوقات."[٤] والواضح ان نشر الرسالة كان متزامناً مع احداث الثورة العرابية . اما الألفاظ الثمانية التي يشرحها في رسالته فهي :الأمة – الوطن – الحكومة – العدل – الظلم – السياسة – الحرية – التربية .

يبدو المرصفي ، من خلال تعريفه بلفظتي "الأمة" و "الوطن"

١- يذكر داغر ان ذلك كان في دار العلوم . لكن نميل الى الاعتقاد انه كان في قاعة المحاضرات ، لأن دار العلوم أنشئت سنة ١٨٧٢؛ اي بعد التاريخ المذكور بسنة .

٢- يقع في جزئين ، وتزيد صفحاته على التسعمائة صفحة .

٣- داغر ، ج٣ ، ص ١١٨٨ .

٤- الشلق ، المرصفي ، ص ٦١ .

مؤمناً بوجود أمة مصــرية متميزة .[١] فهو يعرف "الأمـة" بأنها "جملة من الناس يجمعهم جامعة اللسان او المكان او الدين" .[٢] وعندما يتحدث عن الأمـة التي يجتمع افرادها بمكان واحد فإنه يتحدث عن امة مصرية معتبراً اياها أمّة متميزة تختلف عن الأمم الباقية (يذكر الأمة الحجازية على سبيل المثال) لأنها تقوم على مساحة محددة من الأرض ولها اسم يميزها عن غيرها من الأمم .[٣] ونحن لا نجد اي ذكر او إشارة في كلام المرصفي الى وجود أمة عربية مثلاً ، كما انه تحاشى ان يخوض في الحديث عن الامة التي تجتمع برابطة الدين . ولعلّه ، كما قدّر البعض ، تجاهل ذلك كي يتجنب الخوض في مكانة الدين بالنسبة للدولة .[٤] فإن صح هذا الاستنتاج يكون المرصفي من الأوائل الذين بدأوا بتمييز الأمة الاسلامية عن الأمة المصرية . بينما لم يجد الطهطاوي اي تناقض بين الولاء للأمة الاسلامية والولاء للأمة المصرية . غير اننا نسارع الى القول بأن فكرة القومية المصرية لم تستقل عن فكرة الأمة الاسلامية بشكل كامل حتى بداية القرن العشرين وبالتحديد مع جماعة حزب الأمة وجريدة الجريدة وتلاميذها كما سنرى لاحقاً .

و"الأمـة" ، حسب ما يقول المرصفي ، تتواجد في "الوطن". فبعد ان يقسم المرصفي الوطن الى نوعين : خاص وعام – الخاص هو المسكن كالروح والدار والمدينة ، يقول بان الوطن العام هو "تلك البقعة من الأرض التي تعمرها الأمة."[٥] كما يبين ايضاً في هذه الرسالة حقوق

١- أنظر : صايغ ، ص ٦٦ .

٢- الشلق ، المرصفي ، ص ٦٤ .

٣- نفسه .

٤- نفسه ص ٣١؛ وأنظر حوراني ، ص ٢٣٥؛ وAhmed, P. 15 .

٥- الشلق ، المرصفي ، ص ٨٥ .

الوطن على المواطنين .

بيّنا فيما تقدم ان القومية عند الجيل الاول – جيل الطهطاوي والمرصفي ومبارك – لم تتعد دائرة الاحساس او الشعور بحب الوطن الذي يقول عنه الطهطاوي انه "شعور التضامن بين ابناء المجتمع الواحد." [1] فلمّا ارادوا التعبير عن احاسيسهم هذه جاءت كتاباتهم بشكل تعريفات وتفسيرات للمصطلحات الأساسية الأولية : ما هو الوطن ؟ ما هو حب الوطن ؟ ما هي حقوق المواطنين ؟ الخ .. لكن الى جانب طغيان هذه الشروح نجد إشارات وإيماءات الى افكار أخرى جديدة وهامة. يلفت نظرنا من بينها فكرتان :

١ – فكرة القومية الاقليمية التي بدأت تطل برأسها من حين الى أخر ، كما رأينا عند المرصفي الذي حدّد الأمة المصرية برابطة المكان ؛ وعند الطهطاوي الذي قصد ، بحديثه عن الوطن ، الوطن المصري وليس الوطن العربي او أوطان المشرق .[2]

٢ – بداية الالتفات الى الوراء – الى مصر الفرعونية والاعتزاز بالانتماء اليها . ليس هذا وحسب ، بل القول باستمرارية التاريخ المصري . فمصر الحديثة هي استمرار لمصر الفراعنة لأن "بنية الاجسام والقرائح واحدة" ، حسب تعبير الطهطاوي .[3]

١- حوراني ، ص ١٠٣ .

٢- نفسه .

٣- نفسه ، ص ١٠٤ ؛ وأيضاً Al - Husry, P. 30 .

مفهوم الوطنية عند العرابيين

العرابيون الذين سنتحدث عنهم في هذا الفصل هم جماعة من المثقفين والمفكرين والصحفيين والكتاب الذين ألهبت خطبهم وكتاباتهم الشعور الوطني عند المصريين قبيل الثورة العرابية (١٨٨١)، وخدموا هذه الثورة بلسانهم وبأقلامهم اثناء قيامها . هؤلاء العرابيون أطلقوا صيحة "مصر للمصريين" التي اصبحت شعاراً ورمزاً شائعاً في العمل السياسي وفي الصحف والكتب ، يستخدمه كثير من الكتّاب والمثقفين كمعيار من معايير الوطنية . وتتضارب اقوالهم في ذكر الشخصية التي تبنت هذه الفكرة وأطلقتها شعاراً . البعض يقول انه عرابي ،[١] والبعض يقول إنه جمال الدين الأفغاني ،[٢] والبعض يقول إنه ميخائيل عبد السيد ،[٣] صاحب جريدة "الوطن" . وقد قامت منظمتان تحملان هذا الشعار هما "مصر الفتاة" و"الحزب الوطني الأول" وسيأتي الحديث عنهما لاحقاً . ونجد سليم النقاش يطلق على كتابه الذي تناول فيه احداث الثورة العرابية بالتفصيل اسم "مصر للمصريين".[٤]

أردنا فقط بالحديث عن هذا الشعار الدلالة على ان التمسك بالمصرية والاعتزاز بما هو مصري باتا قويين واضحين في تفكير جيل العرابيين . فقد بدأ منذ هذا الحين التمييز بين ما هو أجنبي من اتراك

١- صايغ، ص ٣٧١ .

٢- محمد عمارة ، جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام ، ص ١٦٢.

وسنشير اليه فيما بعد باسم : عمارة ، جمال الدين.

٣- ابو زيد ، ١٢٤ .

٤- يقول عوض عن هذا الكتاب ان فيه كثيراً من وثائق الثورة العرابية ، لكنه مشوّه وفيه اكاذيب ، انظر: عوض ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

وشراكسة كان يطلق عليهم اسم اولاد الذوات وبين المصريين . وبينما كان المنحى العام لتفكير الجيل السابق ، جيل الطهطاوي ، الافتخار بالولاء لمحمد علي واسرته باعتبارهم الورثة الشرعيين للفراعنة في محاولتهم إحياء مصر ،[١] نجد العرابيين ينفرون من حكم الاتراك والشراكسة ومن استئثارهم بخيرات البلاد ؛ ويتململون كذلك من التدخل الاجنبي ، خاصة في السياسة المالية في عهد اسماعيل، الذي تحوّل الى تدخل مباشر بإدخال وزيرين أوروبيين في وزارة نوبار باشا، عام ١٨٧٩ ، كمراقبين للسياسة المالية .[٢]

ولا ريب انه كان لجمال الدين الافغاني الاثر الأكبر في ادخال الافكار التقدمية والاصلاحية والثورية الى اذهان عدد كبير من معاصريه. هذه الشخصية التي يصفها الدارسون بأنها نادرة وساحرة وشديدة الغموض ، يزيد في غموضها كثرة انتقاله بين فارس والهند ومكة ومصر وتركيا ولندن وباريس حيث اشعل ثورات وأطاح بحكومات .

جاء الأفغاني الى مصر في زيارته الثانية لها [٣] ونفي منهاسنة ١٨٧٩ اي قبيل اندلاع شرارة الثورة العرابية . وتعتبر هذه الفترة من اخصب سنوات حياة الافغاني إذ وجد في مصر تربة صالحة لبذر افكاره وتعاليمه ، هيّأتها الظروف الاجتماعية والسياسية

١- حوراني ، ص ١٠٦ .

٢- عن بداية التدخل الاوروبي الذي يسميه الكاتب" الغزو السلمي التدريجي" أنظر : صلاح عيسى ، الثورة العرابية ، ص ص ٧٥ - ٨٣ . وسنشير الى هذا الكتاب فيما بعد باسم : عيسى .

٣- كان قد اقام في مصر إقامة قصيرة عام ١٨٦٩ .

والفكرية .[١] ولا نحسب قول عمارة عن الأفغاني انه اصبح "يعد اباً لجميع ما في مصر اليوم من نهضة وطنية ويقظة جنسية (قومية)"[٢] قولاً مبالغاً به اذا عرفنا ان محمد عبده عندما اراد ان يصف حال مصر قسّمها الى فترتين: فترة ما قبل مجيء الأفغاني وفترة ما بعد مجيء الافغاني .[٣] وقد ربط ألبرت حوراني الحركة الفكرية في ذاك الحين بمجملها بشخص الافغاني فقط فهو يقول :"وقد يكون من الأصح هنا التحدث عن شخص لا التحدث عن حركة ... لأن ذاك الخليط من الشعور الديني والوطني والراديكالية الاوروبية إنما تجسدت كلها في شخصية رجل مدهش" .[٤]

تتلمذ على الافغاني العديد من المثقفين المصريين:بعضهم كانوا شيوخاً ومن مجاوري الازهر ، وبعضهم كانوا من العلمانيين . من تلامذته الازهريين نذكر الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ ابراهيم اللقاني والشيخ سعد زغلول والشيخ ابراهيم الهلباوي. وكان هؤلاء يتلقون دروساً علمية منظمة في بيته في خان

١- أنظر : حوراني ، ص ١٣٨؛ أمين ، ص ٦٢ ؛ و

Nadav Safran, *Egypt In Search of Political Community*, P. 45.

وسنشير اليه فيما بعد باسم : Safran ؛ وأيضاً عمارة ، جمال الدين ، ص ١٤.

٢- عمارة ، جمال الدين ، ص ١٤ . ويضيف عمارة في الهامش انه عندما قيل لسعد زغلول "إنك خالق هذه النهضة" ردّ عليهم قائلاً :"لست خالق هذه النهضة ... لا اقول ذلك ولا أدعيّه ، بل لا أتصوره ، وإنما نهضتكم قديمة ... وللسيد جمال الدين الأفغاني واتباعه وتلاميذه أثر كبير فيها وهذا حق يجب الاّ نكتمه".

٣- أمين ، ص ص ٦٨-٦٩.

٤- حوراني ، ص ص ١٣٦ - ٣٧

الخليلي .[١] وكان اكثر الكتب التي يقرأها لهم كتب منطق وفلسفة وتصـــوف وهيئة.[٢]

أما طريقة تعليمه فيبدو انها كانت مميزة وفريدة اذ كان يجعل تلامذته يمتلكون ناصية الكتاب ويتوصلون الى معرفة الحقيقة بأنفسهم ولو كانت مغايرة لألفاظ الكتاب وجمله .[٣] وكان قسم من الشبان يلتف حوله في مقهى "البوستة" ، وفي محافل واجتماعات متفرقة يدعى اليها، ليسمع آراءه في الأدب والتاريخ والوطنية. منهم محمود سامي البارودي وعبد السلام المويلحي وأخوه ابراهيم وعلي مظهر وسليم نقاش وأديب سحق وسليم العنحوري ويعقوب صنّوع .[٤]

وكان الافغاني مولعاً بكتـــاب "جيزو" (Guizot) "تاريخ المدنيةالأوروبية (Histoire de la Civilisation en Europe) الذي كان يعتمده لالقاء الدروس على تلامذته حول الفضائل والواجبات والحقوق والوسائل التي تقود الى عظمة الأمم [٥] منبهاً الى خطر

١- امين ، ص ٦٤؛ الكسندر شولس، مصر للمصريين - ازمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨ - ١٨٨٢ ، ص ١٣٦، وسنشير الى هذا الكتاب فيما بعد باسم :شولس. تلاميذه هؤلاء كانوا يوصمون بالإلحاد وكانت ترمى عليهم الحجارة من النوافذ ، .

٢- نفسه ، وفيه أسماء هذه الكتب وشرح عنها .

٣- نفسه ، ص ٦٦ .

٤- نفسه ، ص ٦٧ .

٥- Safran, P. 45 . وقد ترجم كتاب جيزو الى العربية حنين نعمت الله خوري ، وهو من تلاميذ الأفغاني ، بعنوان : التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوروبية"وكانت ترجمته عن الترجمة الانجليزية وهي بعنوان: *History of Civilization* . London, 1846. وقد طبع في مطبعة جريدة الاهرام بالاسكندرية عام ١٨٧٧ . والمرجح ان هذه الترجمة هي التي كان يعتمدها الافغاني في دروسه .

الاستعمار الاوروبي ، وكان جل هم الافغاني حث الدول المسلمة على الاتحاد وإصلاح شؤونها وافكارها لتصبح مستعدة لمواجهة هذا الخطر .[١] وعرف عن الافغاني شدة ميله الى الحرية فكان يرى ان الاصلاح ينبغي ان يهدف الى تقييد سلطة الحاكم .[٢] فلا عجب إذاً ان نرى المصريين ، بعد مجيء الافغاني بقليل ، يبدأون بحملة مناوئة لحكومة رياض باشا ، وان تفيق القاهرة في احد الايام وشوارعها ملأى بمنشورات مجهولة المصدر تهاجم الخديوي ومؤيديه من الأجانب .[٣]

وكان الافغاني يرى ان قيام جامعة إسلامية بين دول المشرق يصلح لمحاربة الاستبداد . وقد رأى البعض ان "عمل الافغاني في سبيل مصر لم يكن من اجل القومية المصرية بقدر ما كان لصالح الجامعة الاسلامية" .[٤] غير اننا نميل الى رأي آخر يذهب الى ان الجامعة الاسلامية التي دعا اليها لم تكن سوى وسيلة لمناهضة الاستعمار وتحرير الشرقيين من عبوديتهم .[٥] هذا ما كان يهمه بالدرجة الاولى ، ولم يغفل عن دعوة المصريين الى التمثل بخطى اجدادهم الفراعنة لاعادة بعث حضارتهم من جديد . وقد نقل احد تلامذة الأفغاني وهو سليم

١- .Safran, P.44

٢- عبد الخالق لاشين ، سعد زغلول ودوره في السياسة المصرية حتى ١٩١٤، ج١، ص ٦٢. وسنشير فيما بعد اليه باسم : لا شين.

٣- . Ahmed, P. 16

٤- صايغ ، ص ص ١١٩ - ١٢١ .

٥- انظر : عمارة ، جمال الدين ، ص ١٦٢ وما بعدها عن موضوع التزاوج بين الاسلام والتفكير القومي عند جمال الدين الافغاني .

العنحوري ،[١] مقطعاً من خطبة للأفغاني يحدث بها المصريين جاء فيه :
"تناوبتكم ايدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والمماليك . وكلهم يشق جلدكم بمبضع نهمه وانتم كالصخرة الملقاة لا حسّ لكم ولا صوت . انظروا اهرام مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط . فهي شاهدة بمنعة أبائكم وعزة اجدادكم . هبّوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ! عيشوا كباقي الامم احراراً سعداء." [٢] ويعلّق العنحوري في نهاية هذا المقطع بقوله : "ومن ثم طارت شرارة الثورة العُرابية" .

ونشط تلاميذ الافغاني للعمل في مجالات متعددة ابرزها الصحف والتنظيمات السياسية. وفي ما يلي سنتحدث بايجاز عن بعض الصحف ودور اصحابها (وقد صدرت هذه الصحف اما باشراف جمال الدين او بإيعاز منه) ودور بعض الجمعيات السريّة[٣] وبالتحديد ثلاث منها : "المحفل الماسوني" و "مصر الفتاة" و"الحزب الوطني" .

اما في مجال الصحف فنذكر من ابرز الصحفيين :
أديب اسحق وسليم نقاش : وقد تزامل الاثنان في العمل المسرحي والصحفي وتبنيا فكرة القومية المصرية .[٤] لقد شجع الافغاني اديب

١- هو صديق لأديب اسحق ، جاء من دمشق وقابل اسماعيل اثناء زيارته لمصر (١٨٧٨) فشجعه على الاقامة وتأسيس جريدة "مرآة الشرق" لكنه ما لبث ان عاد الى سورية .

٢- أمين ، ص ص ٧١ و ٧٣ .

٣- يعلّق شولس على هذه الحركات بقوله إنها كانت في الواقع بعيدة عن السريّة ، أنظر : شولس ، ص ١٤٧ .

٤- صايغ ، ص ١٠٩ .

اسحق [١] على إنشاء جريدة باسم "مصر" (١٨٧٧) وكان يرسم له خطة العمل فيها . ثم ، وبتشجيع من الافغاني ايضاً، أصدر الاثنان صحيفة التجارة (١٨٧٨) .[٢] وساهمت جريدتا مصر والتجارة في الحركة الثقافية والسياسية وعبّرتا عن الخط الذي انتهجه الافغاني ، وهو الذي كان يكتب فيهما باسم مستعار هو "المظهر بن وضّاح" . يقال انهما "أيدتا الشورى ضد الاستبداد ونقلتا افكار الثورة الفرنسية." [٣] وممن أسهم في تحرير هاتين الصحيفتين عبدالله النديم وأحمد عرابي[٤] فاعتبرتا اذ ذاك "لسان المعارضة التي تبلورت فيهما الوطنية المصرية ." [٥]

وعندما اغلقت "مصر" و"التجارة" . سافر أديب اسحق الى باريس وتابع هناك نشاطه الصحفي فأصدر صحيفة "مصر القاهرة" (١٨٧٩) ، بينما قام سليم نقاش في القاهرة باصدار صحيفتي "المحروسة" (١٨٨٠) و"العصر الجديد" (١٨٨٠) لتقوما مقام الجريدتين المغلقتين .[٦]

١- عن اديب اسحق انظر : ناجي علوش ، اديب اسحق . وسنشير اليه فيما بعد باسم : علّوش ؛ وصايغ ، ص ١٠٨ يعتبره صايغ "أحد السوريين الاحرار الذي اندمج اندماجاً حقيقياً في مصر وعمل مع الحركة الوطنية" . وهناك ترجمة له في ابو زيد ، عصر التنوير ، ص ٧٤. وفيها ينوّه الكاتب بكتاب لأديب اسحق لا يزال مجهولاً يتحدث عن المجتمع الامثل الذي تسوده الحرية والمساواة، الامر الذي يوضح تأثر اسحق بالفكر الغربي الليبرالي .

٢- أنظر عوض ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ ؛ وأبو زيد ، ص ٧٥ ؛ وشولس ، ص ١٤٢ .

٣- علّوش ، ص ١٢ .

٤- عوض ، ج ٢، ص ٢٢٨ .

٥- صايغ ، ص ١٠٨ .

٦- شولس ، ص ١٤٥ ؛ علوش ، ص ١٢ .

عبد الله النديم: قيل عنه انه خدم الثورة العرابية بلسانه وقلمه وفكره وقلبه ، وكانت مجلته "الطائف" الصحيفة الرسمية للثورة العرابية .[١] وقد حرّر النديم عدة مقالات في "مصر" و"التجارة" ، وقد اشار الى ذلك في مذكراته بقوله :"والتزمت تحرير اغلبهما لكون مشربي قريب من مشربهما" [٢] (يقصد هنا اديب اسحق وسليم نقاش) . ويقول فيما يختص باسهامه في تحرير الصحف التي تولاها سليم نقاش : "اجتمع بي سليم نقاش وعاهدني العهد الاكيد على ان احرر "المحروسة" و"العصر الجديد" ثم استرخص عنهما فاذن اليه وانعطفت بكليتي عليه ، والتزمت تحريرهما بقلمي وشحنهما بكلمي . ولم اذكر اسمي بهما مداجاة لرياض حتى لا يسوق لي مرضاً من هذه الامراض ."[٣]

وكان النديم قد اصدر "التنكيت والتبكيت" عام ١٨٨١ قبل الطائف، ولما عاد الى مصر عام ١٨٩٢ ، بعد نفيه ، اصدر مجلة "الأستاذ"، وكانت تتمة "للتنكيت والتبكيت" . ويقول بعض النقاد عن النديم انه كان حلقة الوصل بين الافغاني ومصطفى كامل ، لأنه عندما عاد الى مصر عام ١٨٩٢ ، وكان مصطفى كامل قد بدأ يمارس نشاطه من خلال الصحافة، اتصل به النديم وأطلعه على الأحداث والتجارب التي مر بها خلال الثورة العرابية وبعدها ، فاقتبس مصطفى كامل بعض خصائص النديم ، ويقال انه اخذ منه فكرة مهادنة الخديوي منعاً لتكرار المأساة

١- أنظر : صايغ، ص ٦٨ ؛ وجب ، ص ٣٢٨ .

٢- محمد احمد خلف الله ، عبد الله النديم ومذكراته ، ص ٥٤. وسنشير اليه فيما بعد باسم : خلف الله .

٣- نفسه . ورياض هو رياض باشا رئيس الوزراء آنذاك الذي كان وراء نفي كثيرين من الصحفيين والوطنيين .

التي وقع فيها العرابيون .[١] وفي تقييمه لعبدالله النديم يذكر أنيس صايغ ان النديم كان اقرب الى الوطنية المصرية منه الى الفكرة الاسلامية .[٢]

يعقوب صنوع :[٣] (١٨٣٨ - ١٩١٢) . ولد في القاهرة وتلقى علومه في ايطاليا ، وبعد عودته الى مصر ، نشط في حقلي التمثيل والصحافة فضلاً عن تعليمه اللغات والموسيقى لبعض اولاد الاحرار والاعيان ، فقد انشأ ، بمساعدة الخديوي اسماعيل، اول مسرح عربي في القاهرة والف له اثنتي وثلاثين مسرحية غرامية هزلية كما يزعم .[٤] وهو أول من اوجد الصحافة الكاريكاتورية الهزلية في البلاد العربية واستعمل فيها اللغة العامية . فإنه ، وبتشجيع من الافغاني اصدر صحيفته الهزلية "أبو نظّارة زرقاء" (١٨٨٧) ينتقد فيها سياسة الخديوي اسماعيل.[٥] وفي مذكرات النديم نجد حديثاً عن هذه الصحيفة : كيف انشئت وكيف اغلقت وكيف ساعد المصريون

١- Charles C. Adams, *Islam and Modernism in Egypt, p.p.* 221 - 22.

وسنشير اليه فيما بعد باسم : Adams

٢- صايغ ، ص ٦٨ .

٣- عن صنّوع وأفكاره وصحفه أنظر :

Irene Gendzier :the Practical Visions of Ya'qub Sannu'

وسنشير اليه فيما بعد باسم Gandizier ؛ وكتاب محمد يوسف نجم "المسرحية في الادب العربي الحديث" ورسالة طريف بزّي للدكتوراه بعنوان : المسالة الوطنية المصرية والتعبير الادبي عنها من خلال صحف يعقوب صنوع" .

٤- داغر ، ج ٢ ، ص ٥٤٩ .

٥- أمين ، ص ٦٩؛ وأنظر Jacob Landau, *Parliaments and Parties in Egypt P. 86.* وسنشير اليه فيما بعد باسم : Landau

يعقــوب صنــوع وهـــو في باريس لمتابعة نشاطــه الصــحفــي . فقد جاء فيها :"وممن اجتمع بالشيخ جمال الدين فساعده الاخوان واعانوه السنيور "جيمس سانوه" . فنشر جريدته اليومية بعبارة عامية، وهي وإن كانت باسمه وأوردها برسمه ، ولكنها كانت تُحرر بأقلام أفاضل الرجال من تلامذة الشيخ جمال . وسافر جيمس الى باريس وساعده المصريون بالانفس والنفيس." [١]

وبعد إغلاق صحيفته في مصر ، سافر صنوع الى باريس وظل يصدر صحيفته هناك ، باسماء مختلفة [٢] من سنة ١٨٧٨ حتى سنة ١٩١٠. وقد توفي في باريس سنة ١٩١٢ .

حسن الشمسي : وهو ايضاً من تلامذة الافغاني . وبعض الدارسين يعتبره أحد اهم اثنين من كتاب الحركة العرابية ومفكريها – الثاني هو عبدالله النديم .[٣] رأس حسن الشمسي تحرير اكبر ثلاث صحف ناصرت العرابيين وهي المفيد (١٨٨١) ، والنجاح (١٨٨١)، والسفير (١٨٨٢) . وقد أغلقت صحفه هذه نهائياً بعد دخول الانجليز ، وأودع في السجن لمدة سنتين. [٤] كما كان من المتحمسين للقومية المصرية ، فروّج في صحفه لمبدأ مفاده "ان المصريين هم فقط اولئك الذين ولدوا على الارض المصرية اباً عن جد وهم اصحاب الارض المصرية

١- خلف الله ، ص ٥٤ .

٢- مثل : "ابو صفّارة" و "النظارات المصرية" والحاوي" و"أبو زمّارة" .

٣- أبو زيد ، ص ١٥٢ .

٤- نفسه ، وانظر عوض ، ج٢، ص ٢٦١ حيث يقول ان النقاش يذكره في كتابه "مصر للمصريين" وإنه كان "يستخدم "سفيره" اثناء الحركة العرابية في تهييج الخواطر وإثارة الافكار وحمل النفوس على الاندلاع الى ساحات القتال كزميله عبد الله النديم".

الحقيقيون ولا بد ان تعود اليهم منافعها."[1] ومع شدة تمسكه بالوطنية المصرية ، فقد رآها جزءاً من وطنية اشمل واوسع وهي الوطنية العربية . وبذلك يكون اول مفكر ، حسب رأي فاروق ابي زيد ، يتنبه الى انتماء مصر العربي ويحاول ان يزيل اللبس بين مفهوم الوطنية المصرية والوطنية العربية .[2] ونجد هذا الرأي مخالفاً لرأي ناقد آخر يقول بأنه ليس ثمة واحد من بين روّاد الفكر والأدب في مصر في مطلع القرن الماضي ومطلع هذا القرن كرّس قلمه او لسانه للفكرة العربية .[3] وكما حاول ان يسمو بالوطنية المصرية الى ما هو أعلى من مفهومها الضيق كذلك حاول ان يكسر قيداً آخر كان يقيد الوطنية المصرية ـ ذلك هو الدين . فقد استبعد الدين من مقومات الوطن رافضاً بذلك فكرة الجامعة الاسلامية التي كانت سائدة حينذاك والتي كان استاذه الافغاني يدعو اليها .[4]

أما الجمعيات السياسية التي قامت بتأثير الاساليب التي كان يتبعها جمال الدين الافغاني فقد كانت "مدارس للصحافة والخطابة وقام اصحابها بأدوار خطيرة في الحركة العرابية" .[5] نذكر منها :

١ – **المحفل الماسوني :**

أنشأه الافغاني عام ١٨٧٧؛ ولم يكن ذاك جديداً على مصر. فقد

١- ابو زيد ، ص ١٥٨ .

٢- نفسه ، ص ١٥٩ . وهنا يحاول الكاتب ان يربط بين دعوة الشمسي وبين وجود اتجاهات عربية داخل الحركة العرابية نادت بإنشاء دولة عربية مع مصر وسوريا (ص ص ١٦٠ – ٦٢)؛ كذلك انظر عيسى ، ص ص ٢٢٧ – ٢٨؛ وخاطر ، ص ص ٥١–٥٣؛ وقارن مع صايغ الذي ينفي وجود هذا الاتجاه العربي ص ص ٩٣ و ٦٢ .

٣- صايغ ، ص ٦٢ .

٤- ابو زيد ، ص ١٥٤ .

٥- جب ، ص ٣٢٨ .

عرفت مثل هذه المحافل منذ العام ١٧٩٨[١] . ضم هذا المحفل شخصيات بارزة ، يقدر عددها بثلاثمائة عضو من بينهم رجال صحافة وفكر مثل محمد عبده ويعقوب صنوع وسعد زغلول واديب اسحق وسليم نقاش ، ومن بينهم اعضاء في مجلس النواب [٢] وضباط في الجيش، وتذكر اسماء اخرى هامة مثل توفيق باشا (الخديوي فيما بعد) والأمير حليم بن محمد علي ، والأمير عبد القادر الجزائري .[٣]

وكان لهذا المحفل شعب يتعلق كل منها بتنفيذ قضايا معينة ومحدودة . فمنها ، مثلاً ، مهمته دراسة الوزارات ومصالحها ، ومنها مهمته إنشاء الصحف ومدّهابالمقالات ؛ ويقال ان هذا الفريق هو الذي ارسل عبدالله النديم الى الاسكندرية لمعاونة سليم نقاش وأديب اسحق في إصدار جريدتي مصر والتجارة[٤] كما انه كان هناك شعبة تلاحق الاعمال الحكومية لتتأكد من حفظ حقوق المواطنين ومساواتهم بغيرهم من الاجانب ، فكان لهذا المحفل بسبب ذلك نفوذ واسع .[٥]

ويرّجح ان يكون اهتمام الافغاني بالحركات الماسونية نابعاً من تأثير الحركات الثورية الداعية الى التحرر والإصلاح والبعث

١- Gendzier, P. 46.

٢- مجلس النواب هذا انشاه اسماعيل عام ١٨٦٦ ومعظمه من الاعيان والطبقة الارستقراطية المصرية. وكان له مواقف إزاء التدخلات الاجنبية في سياسة مصر المالية. للمزيد من التفاصيل راجع Landau, PP 7-15 ؛ وآرثر ادوارد جولد شميت، الحزب الوطني المصري ، ص ٣٩. وسنشير الى هذا الكتاب فيما بعد باسم : جولد شميت .

٣- للمزيد من التفاصيل عن هذا المحفل واعضائه انظر: عمارة ، جمال الدين ، ص ١٥؛ وعوض ، ج٢، ص ٢٨٨ ؛ وصايغ ، ص ١١٩؛ وعيسى، ص ٢٦٢.

٤- عوض، ج٢، ص ٢٨٨.

٥- عيسى، ص ٢٦٢ .

القومي التي انبثقت من الماسونية الاوروبية ؛ لذلك يربط عوض بين نشاط الماسونيين في مصر ، الذي كان وراء ظهور الحركة العرابية وبين نشاط الماسونيين في إيطاليا والمانيا .[١] لكن هناك رأي آخر يقول ان الذي شدّ الافغاني الى الماسونية هو مناهضة هذه الحركة في اوروبا لسلطة الكنيسة وعملها على فصل الكنيسة عن الدولة وتحرير العلم والعلماء من سلطة الكهنوت .[٢] ويردّ محمد عمارة على أولئك الذين يشككون في وطنية الافغاني وعبده لانضمامه الى الماسونية بقوله انه في ذاك الحين لم يكن للماسونية اية علاقة بالصهيونية ولم يكن يبدو منها سوى "وجهها التقدمي الذي يرفع شعارات الحرية والإخاء والمساواة."[٣] وتساند هذا الرأي المؤلفة "ايرين غاندزيه" في كتابها عن يعقوب صنوع اذ تقول :"في ذاك الحين ان تكون ماسونياً فهذايعني انك مفكر حرّ."[٤]

وبسبب تلك العلاقة الوثيقة بين صنوع والافغاني نرى انه يجب التنويه بمحافل اخرى اسسها صنّوع قبل المحفل الذي رأسه الافغاني (١٨٧٧) وهي : محفل التقدّم (١٨٧٢)، وجمعية محبي العلم التي يكتنف الغموض تاريخ نشأتها .[٥] وعنها يقول صنوع :"إنها كانت تجذب العناصر المتقدمة من الطلاب والضباط" . ويضيف انهم كانوا باستمرار ينشرون آراء ونظريات المفكرين الغربيين من اصحاب الرأي الحر

١- عوض ، ج٢ ، ص ٢٨٨ .

٢- محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، ج١ ، ص٣٥. وسنشير اليه فيما بعد باسم :عمارة ، محمد عبده .

٣- نفسه ، ص ٣٦.

٤- Gendzier, P. 44

٥- نفسه، P. 42 .

المطالبين بالدستور والمساواة .[١]

٢ – مصر الفتاة :

المعلومات حول هذه الحركة غير كافية . تقول بعض المصادر إنها تكونت عام ١٨٧٦ وتحدد اخرى تاريخ نشوءها بالعام ١٨٧٩.[٢] ورئيسها ايضاً غير معروف لكن نائب الرئيس كان محمد امين ، باشكاتب محكمة اسيوط، وأمين سرّها محمود واصف احد المحررين في صحيفة العدل . [٣]أما العناصر المدنية المعروفة التي انضمت اليها فمنها صنوع واسحق والنقاش ونقولا توما . ومن العناصر العسكرية أحمد عرابي وعلي الروبي. كما يذكر ان أديب اسحق في العام ١٨٧٩ دعا الامير عبد القادر الجزائري الى الانضمام الى الحركة وتضيف مصادر اخرى الافغاني الى اعضائها[٤] . ومع وجود هذه الاسماء من المصريين في حركة مصر الفتاة فإننا نستغرب قول محمد عبده ، كما ذكر في احد المصادر ، "ان هذه الجمعية لم يكن فيها مصري حقيقي ، بل كان اكثر اعضائها من الشبان اليهود المنتمين الى الأجانب." [٥]

أصدرت هذه الجمعية صحيفة باسمها، "مصر الفتاة"، باللغتين العربية والفرنسية.[٦] فقد صدرت اولاً باللغة العربية ثم

١- Gendzier P. 43

٢- Landau, P. 101

٣- نفسه ، P.89 .

٤- انظر : عيسى ، ص ١٢٦؛ وعلوش ، ٢٥ ؛ وصايغ، ص٤٨.

٥- عيسى ، ص٢٦٤. ويذكر Landau ان طائفة من اليهود المثقفين لعبت دوراً هاماً في هذه الجمعية ، انظر: Landau , P. 101 .

٦- صايغ، ص٤٨.

بالفرنسية وكانت تحمل بشدة على التدخل الاجنبي في مصر .[١] اما تاريخ صدورها وتاريخ تعطيلها فالاقوال فيهما متضاربة ولكن يبدو انها عاشت لفترة قصيرة واعدادها فقدت جميعها .[٢] ومن يقرأ مذكرات عبدالله النديم لهذه الفترة ، اي حول الثورة العرابية والجمعيات والصحف التي رافقتها لا يجد اية اشارة الى جمعية "مصر الفتاة" او الى الصحيفة الناطقة بلسانها، برغم ما قيل عن انضمامه الى هذه الحركة : باستثناء ورود لفظتي "مصر الفتاة" في عنوان لمقالة من مقالاته. هذا العنوان هو :"المحاسن التوفيقية ، او تاريخ مصر الفتاة، او زفاف الحرية في مصر".[٣] تستهل المقالة بالمقطع التالي :"مصر. أي عزيزتي ، اي نزهتي اي ارض نشأتي، اي جنتي. هنيئاً لك بما فعل الاسود من ابنائك ، ولكن بك عليك اقسم وبجيشك عليك اعزم الا ما اخبرتني بما كنت عليه في زمنك الماضي وما صرت اليه الآن ؛ فإني أراك تفتخرين في ثياب الحرية." [٤]

غير أنه يرد في كتابات النديم ذكر جمعية أخرى تدعى "الجمعية الخيرية المصرية"، يقول النديم إنه أسسها ، وتذكر بعض المصادر ان هذه الجمعية هي نفسها جمعية مصر الفتاة . فقد تحولت مصر الفتاة الى جمعية علنية وجمعت لها التبرعات من اعيان الاسكندرية ، وتمكنت من إنشاء مدرسة كان هدفها بثّ روح الوطنية في التلاميذ وتعليمهم الخطابة . وكان النديم ، وهو مديرها ، يعلم التلاميذ

١- Landau, P. 101

٢- عيسى ص ٢٦٥؛ Landau, P. 101

٣- خلف الله، ص ١٠٨. والمقالة هذه كتبت إثر انتصار الجيش في الثورة واستقالة رياض باشا وتأليف شريف باشا الوزارة .

٤- نفسه .

كتابة الخطب وإلقاءها.[1] ويجدر بنا التوقف عند اسم هذه الجمعية ، فاسمها في الأصل ، حسبما يذكر النديم ، هو "الجمعية الخيرية الإسلامية" لكن الحكومة اشترطت ان تكون "مصرية" في العام ١٨٧٨.[2] وهذا دليلٌ واضح على ان النزعة المصرية بدأت تقوى وتشتد في ذاك الحين. والواقع ان ما توخيناه من حديثنا عن حركة مصر الفتاة، برغم اختلاف الآراء والمعلومات القليلة المتوافرة عنها ، هو لفت الانتباه الى ان اعضاءها كانوا من المخلصين للوطنية المصرية ، وكان همهم مقاومة الاستبداد المتمثل بسياسة الخديوي إسماعيل ،[3] وان وجودها كان دليلاً على ان التيار الوطني بدأ بولوج ميادين عملية له ولم يبق محصوراً في مجال النظريات والخطب .

٣ - الحزب الوطني :

في عام ١٨٧٦ كوّن علي الروبي واحمد عرابي جمعية سريّة من ضباط الجيش لمحاربة التدخل الاجنبي في مصر . ثم اعلن عن هذه الجمعية عام ١٨٧٩ وانضم اليها عدد كبير من المدنيين : رجال دين واعضاء في مجلس النواب واعيان وتجار .[4]

ويبدو ان هذا الحزب كان الحزب المنظم الاول في مصر .

١- أمين، ص ص ٢١٢ - ١٣.

٢- Landau P. 85

٣- أنظر : عيسى ص ٢٦٥ حيث يسوق قولاً لجرجي زيدان حول هذا الامر .

٤- جولد شميت ، ص.٤؛ Landau, P.87 غير ان الكاتب هنا لا يذكر اسمي علي الروبي واحمد عرابي بل يقول ان اسماء ضباط الجيش ظلّت طي الكتمان. ويحصي عوض عدد المشاركين في الحزب: ستين من المجلس ، وستين من علماء الدين ، واثنين واربعين من الأعيان والتجار ، واثنين وسبعين من كبار الموظفين ، وثلاثة وثمانين من الضباط . أنظر : عوض ، ج١، ص ١٤٧.

ويقال إن برنامجه وضعه محمد عبده ولويس صابونجي[١]، وهو من تلامذة الافغاني ايضاً ، ونشره بلنت في جريدة التيمس (يناير ١٨٨٢). وكان عرابي قد وافق على البرنامج وتبناه فلُقب إذ ذاك "بزعيم الحزب الوطني" .[٢] ويذكر ان الافغاني كان وراء قيام هذا الحزب ولو ان اسمه لم يرتبط بصورة مباشرة به ، كما ان معظم اعضاء المحفل الماسوني كانوا ايضاً اعضاء في الحزب الوطني.[٣] وقد ضمّن اعضاء الحزب مطالبهم في لائحة اسموها "اللائحة الوطنية" ورفعوها الى الخديوي للموافقة عليها . وكان اهم ما جاء فيها رفض إشهار إفلاس مصر ، والمطالبة بتغييرات في دستور مجلس شورى النواب بشكل يماثل دساتير الانظمة البرلمانية في اوروبا .[٤]

أما الأمر المميز في هذا الحزب ، والذي له صلة وثيقة ببحثنا فهو اعتباره الروح القومية المصرية فوق جميع الاعتبارات الاخرى حتى الدينية منها، إذ شدّد الأعضاء على هويتهم المصرية في بيان الحزب فقالوا:"الحزب الوطني حزب سياسي لا دين له فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب، وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث ارض مصر ويتكلم بلغتها منضم اليه، لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات، ويعلم ان الجميع إخوان وان حقوقهم في السياسة والشرائع

١- أحد السوريين الذين هاجروا الى مصر . اسس مجلة "النحلة الحرة" عام ١٨٧١، بدأ حياته قسيساً و كان يشهد له بعدم تعصبه وبمناصرته لعرابي وبوطنيته الصحيحة .

٢- صايغ ، ص ٤٨.

٣- نفسه : Ahmed, P. 16 .

٤- Landau, P. 28.

متساوية."[١] وقد شارك في هذا الحزب شيخ الإسلام وبطريرك الاقباط وحاخام اليهود بالنيابة عن طوائفهم.[٢] اذاً اتخذ مفهوم الوطنية منعطفاً جديداً مع جمال الدين الافغاني واتباعه فبرزت القومية المصرية شديدة الوضوح و"الهبت الصحف والتجمعات الناس بشعارات "مصر للمصريين" و "الدستور" و "الحكم النيابي" و"حقوق الإنسان" و"الحرية والإخاء والمساواة"."[٣] وانبرى صوت محمد عبده يؤكد ان الحوادث "ابت الا ان تثبت لنا وجوداً وطنياً".[٤] واصبحت فكرة القومية المصرية هاجساً عند بعض الذين يؤيدون ارتباط مصر بدولة الخلافة ، فاعتبروها "مصيبة يجب إنقاذ مصر منها". هذا التخوف نجده واضحاً في رسالة بعث بها الخديوي توفيق الى ثابت باشا[٥] في ١٨ يوليه ١٨٨٢:

"إنني اقول اني اول من يتحاشى التفرقة بين المسلمين واول من يفي بدوام ارتباط مصر بالخلافة العظمى . ومن اجل ذلك لم ادخر وسعاً في سبيل إنقاذ مصر من مصيبة القومية التي منيت بها منذ سنتين ... ولا زلت حتى يومنا افعل ذلك واكرر ان ازالة الفكرة القومية من مصر فرض علي ، وذلك ان انتشار هذه الفكرة واتساعها بين الناس سيفضي الى انفصال مصر عن الخلافة العظمى".[٦]

وقبل ان ننهي حديثنا عن تيار العرابيين نرى انه علينا ان نعود قليلاً الى الوراء لنذكر شخصية هامة يبدو انها قامت بدور رائد

١- صايغ ، ص ٤٨ .

٢- نفسه .

٣- عوض ، ج٢ ، ص ٢٥٧ .

٤- عمارة ، محمد عبده ، ج١ ، ص ٦٢ .

٥- هو مندوب الخديوي توفيق في استنبول .

٦- عوض ، ج٢ ، ص ٢٣٩ .

في خلق روح الوطنية عند المصريين . هذه الشخصية هي الوالي سعيد باشا (١٨٥٤ - ١٨٦٣) الذي أصدر لائحته المشهورة "باللائحة السعيدية" في ١٥ أغسطس١٨٥٨ ، والتي بموجبها سمح للفلاح المصري ملكية الارض وحيازة محصولها ؛ وكان قبل ذلك محروماً منها .كما الغت نظام الاحتكارات الزراعية فصار للفلاح حرية التصرف في حاصلاته واختيار ما يريد من انواع الزراعة . وخفف الخديوي ، بموجب هذه اللائحة الضرائب عن الفلاحين ورغب الى الأهلين سداد الضريبة نقداً لا عينا . وقد ساعد ذلك على فك ارتباط الفلاح بالحكومة فصار له وجود اقتصادي مستقل مما ساعد على نهضة الفلاح المصري من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية .[١] وهناك اثنان من الوطنيين المصريين ، احمد عرابي وعبدالله النديم ، يرجعان الفضل لسعيد في خلق الروح الوطنية. فعرابي يقول ان احاسيسه القومية استيقظت بسبب خطاب القاه سعيد اتى فيه على ذكر المظالم التي يعاني منها الشعب المصري . ثم يعلق على هذا الخطاب بقوله :"اما انا فاعتبرت هذه الخطبة اول حجر في اساس نظام "مصر للمصريين" ... وعلى هذا الاساس يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع اساس هذه النهضة الوطنية الشريفة في قلوب الامة المصرية".[٢] أما النديم فيشيد بسعيد ايضاً مادحاً مواقفه الوطنية ويعزو اليه الفضل في تأسيس الحزب الوطني الاول .[٣]

١- الرافعي : عصر اسماعيل ، ص ص ٣٠-٣١. انظر : حسين فوزي النجار، الجريدة تاريخ وفن، ص ٤٠. وستسهم اللائحة السعيدية فيما بعد في ظهور طبقة الاعيان المصرية التي ستلعب دوراً هاماً في الحياة السياسية . سنشير الى هذا المرجع فيما بعد باسم: النجار، الجريدة .

٢- صايغ، ص ٣٧.

٣- خلف الله ، ص ١٠٨ .

إذاً ، حد القومية المصرية الذي تناولناه في هذا الفصل لم يكن الا ، كما يقول احدهم، "روح الثورة العرابية المتمثلة بثورة الجيش المصري ... والمتمثلة بدعوة كتّاب الثورة العرابية وخطبائها ."[١]

١- عوض ، ج٢ ، ص٢٣٩ .

محمد عبده وتلاميذه

تأثر عدد كبير من المصريين بأفكار الشيخ محمدعبده وآرائه وشكلوا تياراً فكرياً إصلاحياً حتى اصبح اتباعه يسمون "بحزب الإمام" بالرغم من انهم لم يكوّنوا حزباً سياسياً .[1] وكان تيار محمد عبده في بدايته امتداداً للتيار السابق الذي اسسه جمال الدين الافغاني، لكن نستطيع القول بأنه استقل بآرائه وتعاليمه الخاصة ، بعد عودة محمد عبده من المنفى عام ١٨٨٢.

ولن نتوسع هنا في شرح فكر عبده[2] فهو فكر واسع غزير، لكن لاستكمال البحث سنذكر خطوطاً عريضة للاتجاه الذي سار فيه وقد تبين لنا ان هذا الاتجاه ينقسم الى مرحلتين :

المرحلة الاولى هي فترة علاقته بالافغاني . فمنذ اول لقاء تم بينهما ترك الافغاني ابلغ الاثر في نفس عبده، وذلك خلال حديث دار بينهما حول التصوف وتفسير القرآن . وقد لازم عبده الافغاني ملازمة الظل اثناء مكوث هذا الاخير في مصر بين عامي ١٨٧١ و ١٨٧٩ . ونرى ان هذه العلاقة عادت بالمنفعة على الاثنين معاً . فالافغاني بقوة شخصيته ونفاذ آرائه انتشل عبده من حياة التصوف والعزلة التي كان

١- Adams, P. 206.

٢- انظر: حوراني ، الفصل السادس ص ص ١٦٢ - ١٩٧؛ عمارة ، محمد عبده ، المقدمة ؛ وAdams الذي يفرد حوالي مئة صفحة لترجمة محمد عبده ويتبعها بمئة صفحة اخرى للحديث عن عقيدته واتباعه . وقد اعتمد في معظمها على جريدة المنار لرشيد رضا ، تلميذ الإمام ؛ وكتاب "محمد عبده: رسالة التوحيد" لمصطفى عبد الرزاق تلميذ الإمام ايضاً .

غارقاً فيها واعاده الى حياته الطبيعية .[١]

كما دأب محمد عبده على نشر تعاليم استاذه بعد نفي الاخير من مصر فلم تنقطع بذاك الحركة التي بدأها الافغاني . لذلك شبه الاثنان بأفلاطون وسقراط ، لأن الافغاني، كما كان شأن سقراط، توفي دون ان يترك اية كتب او آثار اخرى تذكر فأتى عبده وعرّف العالم به ، كما فعل افلاطون بالنسبة لاستاذه .[٢]

وقف عبده ، اثناء مواكبته للأفغاني ، مواقفه وحرر في الصحف التي انشأها ودخل معه في المحافل الماسونية وخرج معه منها.[٣] كما اشترك في "الحزب الوطني" وقام بدور هام في الثورة العرابية . فالملتفون حول عرابي كانوا يعتبرون محمد عبده موجهاً لهم، ويقال ان عرابي كان يستشيره في كل ما يقوم به .[٤] لكن يجب الاقرار بان عبده كان رافضاً للأعمال العسكرية التي تقوم على الثورة والعنف لتحقيق غايتها معتقداً ان مثل هذه الاعمال الثورية ستطيح بكل الجهود المبذولة في الحركة العرابية وستفسح المجال امام التدخل الاجنبي .[٥]

من نشاطات عبده في تلك الفترة ، اي عندما كان الافغاني موجوداً في مصر ، قيامه بتحرير مقالات سياسية واجتماعية عدة في

١- Adams, P.32 . كان احد اقربائه، وهو الشيخ درويش، قد اجتذبه الى التصوف في عام ١٨٧١ فانقطع عبده الى التصوف لدرجة ان الشيخ درويش نفسه رأى واجباً عليه انتشاله من عزلته واعادته الى ممارسة حياته الطبيعية .

٢- نفسه . P. 217

٣- عمارة ، محمد عبده ، ص ٣٥؛ Adams, PP. 32 - 38 .

٤- Adams, PP. 53 - 54 .

٥- انظر : Adams, PP. 53 - 54 ؛ وعمارة ، محمد عبده ، ص ٣٦ .

الاهرام كانت تلاقي رواجاً كبيراً.[١] كما كان يعطي دروساً في الازهر وفي دار العلوم ويحاضر في داره ، ومن الكتب التي كان يشرحها كتاب تهذيب الاخلاق لمسكويه وكتاب "غيزو" عن تاريخ المدنية الاوروبية .[٢] كما برز تأثير الافغاني في عبده اثناء فترة المنفى وذلك في تحريرهما معاً صحيفة "العروة الوثقى" التي صدر العدد الاول منها في باريس في ١٣ مارس ١٨٨٤[٣] ، وكانت تدعو في المقام الاول الى جامعة إسلامية تناهض الحكم الاجنبي . فكتب عبده فيها عدداً من المقالات التي تعالج قضايا المسلمين وتحثهم على جمع قوتهم من جديد .[٤] غير أن تلك المقالات لم تخل من التعبير عن إيمانه بالوطنية المصرية التي بدت "مرادفة للوحدة الاسلامية العثمانية"،[٥] ولم تأخذ منحى مستقلاً .

المرحلة الثانية ، وهي بعد عودةعبده من المنفى من بيروت الى مصر عام ١٨٨٨.[٦] فهو منذ افتراقه عن الافغاني كان قد عدّل كثيراً من آرائه ، فصبّ جهوده على قضية الاصلاح عامة ، والديني بوجه خاص،

١- حوراني ، ص ١٦٤؛ وانظر : Mary Arnette, *Qasim Amin* وسنشير الى هذا الكتاب فيما بعد باسم : Arnette .

٢- Arnette, P. 21 وتحدثنا عن كتاب "غيزو" في موضع سابق .

٣- صدر من هذه الصحيفة ثمانية عشر عدداً فقط وكان يمنع دخولها الى مصر . عن هدف الصحيفة انظر : صايغ، ص ٦٧؛ عوض ، ج٢، ص ص ١٥٩-١٦٠.

٤- انظر : نصر، ص ٤٨ .

٥- صايغ، ٦٧ .

٦- كان قد نفي إثر فشل الثورة العرابية عام ١٨٨٢ وعاد الى مصر بعد ان توسط له تلميذه سعد زغلول والاميرة نازلي فاضل، ابنة عم الخديوي توفيق ، لدى اللورد كرومر أنظر : عوض ، ج٢، ص١٦٠.

الامر الذي أثار عليه سخط عدد من علماء الدين السلفيين.[١] أما سبب تغيير اتجاهه فيمكن تفسيره بما يلي :

أولاً : أنه عندما عاد من المنفى كانت شعلة الحركة العرابية قد خمدت منذ سنوات ، ولم يكن في ذلك الحين، اية حركة وطنية ثورية تشده اليها.

ثانياً : يقال ان كرومر اشترط عليه عندما سمح له بالعودة الى مصر الا يشتغل بالسياسة وان يوجه اهتمامه للإصلاح الديني.[٢]

ثالثاً : وهو السبب الاهم – لم يكن عبده بطبعه ثورياً او ممن يؤيدون اعمال العنف وهذا ما دفعه الى معارضة الثورة العرابية بعد ان تحولت الى عمل عسكري . بل كان يؤمن بالإصلاح الهادىء المتدرج الذي يتم عن طريق التوعية والتعليم والإرشاد .

لهذه الاسباب مجتمعة ، وجّه عبده عنايته الى تحسين نظم التعليم والتربية . فانتقد طرق التدريس المتبعة [٣] ووضع نظرياته في التعليم موضع التنفيذ عندما اشتغل بالتدريس في الازهر ودار العلوم .[٤] ولا شك ان الذي ساعده على ذلك كثرة قراءاته في الفكر العربي الاصلاحي والاجتماعي . ولذا كان اعظم ما اهتم به هو قضايا الاجتماع والتاريخ والفلسفة والتربية . والمعروف عنه انه كان معجباً بآراء "سبنسر" ، الفيلسوف الانجليزي، وقد زاره في انجلترا وترجم كتابه "في التربية" الى العربية حتى يستفيد ، حسب رأي البعض ، من

١- عوض ، ج٢ ، ص ١٦٠ .

٢- عمارة ، محمد عبده ، ص ٤٧ .

٣- Adams, P. 48 .

٤- Arnette, P.21 .

آرائه في رسم الخطط الاصلاحية في المدارس المصرية .[١]

أما أولئك الذين التفوا حول عبده واخذوا منه افكاره ومبادئه فقد سلكوا اتجاهين مختلفين: منهم من سلك اتجاهاً إسلامياً مستنيراً ومنهم من اتجه اتجاهاً ليبرالياً اوروبياً .

نذكر من الطائفة الاولى الشيخ احمد ابو خطوة والشيخ سيّد وفا والشيخ عبد الكريم سلمان وهذان الأخيران ساعداه في تحرير الوقائع المصرية، والشيخ محمد مصطفى المراغي الذي تولى مشيخة الازهر من ١٩٢٨ -١٩٣٠ ومن ١٩٣٥ -١٩٤٥، والشيخ السيّد عبد الرحيم الدمرداش ، احد اعضاء حزب الامة الذي تكوّن لاحقاً . وهناك بين هذه الطائفة ، فريق تلقى علومه في الازهر لكن اهتماماته كانت خارج نطاق الازهر، من هذا الفريق: ابراهيم اللقاني (وحسب رأي رشيد رضا هو ثاني تلامذة الافغاني في الاهمية بعد عبده) [٢] وابراهيم الهلباوي المحامي الذي ساعد عبده بالاشتراك مع سعد زغلول في تحرير صحيفة الوقائع ، والأمير شكيب ارسلان اللبناني الذي كان يكتب مقالات حول موضوعات عامة في الاسلام والكاتب مصطفى لطفي المنفلوطي، والشاعر محمد حافظ ابراهيم .[٣]

١- Adams, P. 95 كان عبده قد اطلع على الفكر الغربي من خلال الترجمات ، ثم تعلم الفرنسية ، وكان سنّه قد ناهز الاربعين ، وتابع قراءاته بعد ذاك في اللغة الفرنسية . ويذكر الدكتور محمد نجم انه رأى مسوّدة ترجمته لكتاب سبنسر بخطه عند احد اصدقائه في مصر ، ولا يدري ان ضاعت تلك المسودة بعد وفاة ذلك الصديق.

٢- Adams, P. 210 .

٣- نفسه PP. 207-17. يقول المؤلف "وقد تجلت افكار حافظ ابراهيم الاصلاحية في كتاب "ليالي سطيح" "فقد كان حافظ ابراهيم يعتبر الافغاني القوة التي انتشلت تلاميذه من ظلام العصور الوسطى" (Adams, P. 217) .

أما اصحاب الاتجاه الليبرالي فقد تبنوا مفاهيم الفكر العربي. ونادوا بتطبيقها على المجتمع المصري بجرأة لم تكن مألوفة قبلاً. وسنتوقف لاحقاً عند اربعة من ابرز هؤلاء التلاميذ لنبين مدى تأثرهم بالفكر الغربي الاصلاحي وهم : قاسم أمين[١] وسعد زغلول وأحمد فتحي زغلول وأحمد لطفي السيّد .

ولكن لا بد لنا ونحن نتحدث عن تلاميذ الإمام من ان نذكر شيئاً عن (صالون) هام كان يتردد عليه الإمام ونفر من تلامذته ، وقام بدور كبير في تكوين افكارهم وحتى في تعديل وتغيير البعض منها . هذا الصالون هو صالون الأميرة نازلي فاضل ، ابنة الأمير فاضل ابن ابراهيم . وهي المرأة الوحيدة من سلالة محمد علي التي خلعت الحجاب وفتحت بيتها لكبار رجال الفكر والسياسة - الإنجليز والمصريين على حد سواء . فكان لهؤلاء الشباب المصريين المترددين على صالونها ، بطبيعة الحال ، اتجاه إصلاحي ليبرالي متحرر ومهادن للانجليز وصاحب دعوة ترتكز على الأسس الفكرية الغربية .[٢]

بلغ إعجاب الأميرة نازلي بالانجليز حداً كبيراً ، كما يقول رونالد ستورز ، ويضيف انها كانت تعتبر المصريين "طرفاً

١- لقاسم امين خطاب ألقاه في ذكرى مرور اربعين يوماً على وفاة الإمام وهو منشور بعنوان "الإمام محمد عبده - أخلاقه وفضائله وإمامته".

٢- أنظر : Ronald Storrs , *Orientation* P.P. 102 - 107 وسنشير اليه فيما بعد باسم :Storrs . وهو يعطي صورة واضحة عن شخصية الأميرة نازلي وقصرها وزوارها وجلساتهم . وأنظر : عوض ،ج٢، ص ١١٦.

آخــر" .[١] ولا بأس ان نسوق هنا موقفاً لها مع احد الانجليز المتعاطفين مع المصــريين وهو روبرتســون (J.M. Robertson) احد اعضاء حزب الاحرار البريطاني. فعندما دعته الأميرة لزيارتها ولم يحضر اتهمته بأن اصدقاءه المصريين يحرضونه عن عدم زيارتها . ويذكر انها قالت له: "ارى اليــوم ان عــواطفك مع المصــريين لهي اقــوى من عــواطفي نحــو الانجليز . وأرجو ان تكون ، قبل رحليك ، قد درست كلا الفريقين جيداً ، وان تعترف على الأقل لبلادك بفضل منحها العدالة والتقدم الكبير لمصر."[٢]

ونذكر من الشخصيات الأجنبية البارزة التي كانت تتردد على هذا الصالون :الجنرال كتشنر (Lord Kitchener) واللورد كرومر(Lord Cromer) والسير رونالد ستورز(Ronald Storrs) وممن كان يزورها من المصريين :محمد عبده وقاسم امين وسعد زغلول[٣] واخوه احمد فتحي زغلول والشيخ علي يوسف (صاحب المؤيد) ورشدي باشا (مدير الاوقاف آنذاك ورئيس الوزراء فيما بعد).[٤]

ذكرنا فيما سبق ان الاجتماعات التي كانت تدور في صالون الأميرة ، كانت من الأهمية بحيث جعل البعض يعدل بعضاً من أفكاره او يتخلى عن بعض منها ، نستشهد مثلاً بتخلي محمد عبده بعد عودته الى

١- قد يكون سبب هذا الإعجاب بالانجليز ، كما يعتقد البعض ، عائداً لكرهها للخديوي أسماعيل وابنائه لأن اباها كان ينافس الخديوي اسماعيل على العرش .إضافة الى أنها تربّت في كنف السير هنري لايارد (Henry Layard) ، سفير إنجلترا في الاستانة انذاك .(انظر : Storrs, P. 103) .

٢- نفسه ، P. 104 .

٣- عوض ، ج٢، ص ١٦١ .

٤- Storrs, P. 104 .

مصر ، إثر وساطة الاميرة نازلي وسعد زغلول لدى اللورد كرومر ، عن نشاطه السياسي وانصرافه الى الإصلاح الاجتماعي والتعليمي ، كما يُذكر ان سعد زغلول تعلّم اللغة الفرنسية نزولاً عند رغبة الأميرة.[١] والأهم من هذا، تلك الضجة الكبرى التي اثيرت حول كتابي قاسم امين:"المصريون" (١٨٩٤) و"تحرير المرأة" (١٩٨٩) . فعندما كتب قاسم امين كتابه الاول رداً على الدوق داركور الذي حمل فيه على المصريين وعاداتهم ، دافع قاسم عن عادات المصريين ومن بينها الحجاب ويقال ان الأميرة نازلي غضبت لظهور هذا الكتاب اذ اعتبرت نقده للنساء المصريات اللواتي يقلدن الأوروبيات موجهاً لها. وأمرت بأن يصلح خطأه بنشر كتاب آخر يكون بمثابة اعتذار لها فكان كتابه "تحرير المرأة" الذي أثار جدلاً حول ما اذا كان محمد عبده قد شارك في كتابته ، او ان الكتاب من تأليف قاسم امين.[٢] غير ان الذي يهمنا مما تقدم ذكره هو تبيان مدى نفوذ الأميرة نازلي لدى المحيطين بها والمترددين على صالونها. والى جانب اشتراك المجتمعين في صالون الأميرة نازلي في المناقشات السياسية والفكرية ، حيث كانت تحل عظائم الأمور وتعقد ، فإنهم كانوا ايضاً يلعبون بالشطرنج او بالطاولة، وكانت "الست توسيلة" تدندن على العود تصاحبها فطّومة التونسية بالرقص، واحيانا ينجح الحاضرون في اقناع الشيخ يوسف المنيلاوي بالغناء على

١- لاشين ، ج١، ص ٧٦ .

٢- أنظر : محمد عمارة ، قاسم امين الاعمال الكاملة ، ص ص ١١٩ – ٣٢. وفيه يعرض المؤلف وجهات النظر المختلفة بهذا الشأن . وسنشير الى هذا الكتاب فيما بعد باسم : عمارة ، قاسم امين .

العود .[١]

في مثل هذا الجوّ، كان طبيعياً ان يتسم محمد عبده ونفر من تلاميذة بسمة الاعتدال نحو الانجليز ، وان يتبنوا افكارهم وأراءهم . وفي هذا المجال كثرت الأقوال واختلفت . حتى قيل عن عبده انه اصبح صديقاً شخصياً لكرومر ، ولم يعد يرى بأساً من دخول بعض الانجليز في البرلمان المصري .[٢] وبالفعل نجد في كتاب كرومر "مصر الحديثة" حديثاً عن الشيخ محمد عبده الذي يصفه الكاتب بـ"صديقي عبده" . ويصفه بسعة العلم والتنوّر ، وبأنه كان واعياً لضرورة المساعدة الاوروبية في مجال الاصلاح في مصر . غير انه يميزه عن تلك الفئة من المصريين "المتأوربة" والتي يعتبرها كرومر نسخة سيئة عن الاصل الاوروبي، ويذكر انه ربما كان من صالح الوطنية المصرية لو كان هناك اناس مثل محمد عبده .[٣] وقد رُمي اتباع محمد عبده بالالحاد ، والابتعاد عن اصول الدين من قبل العلماء المحافظين ؛ وقيل عن سعد ، تلميذه ، انه تخلى عن تفكيره الاسلامي وفكرة الجامعة الاسلامية .[٤] أما قول لويس عوض بأن صالون نازلي فاضل كان ملتقى لدعاة القومية المصرية"[٥] فيؤكد لنا ان الانجليز كانوا يشجعون نشوء هذه القومية لكي تناهض الدعوة الى الجامعة الاسلامية . وسنتحدث فيما يلي عن نفر من أشهر تلاميذ محمد عبده .

١- Storrs, p. 106 .

٢- لا شين ، ج١ ، ص٧٨.

٣- Cromer, *Modern Egypt*, IV P.P.179-80 ، وسنشير اليه فيما بعد باسم: Cromer .

٤- لاشين ، ج١، ص ٧٨ .

٥- عوض ، ج٢ ، ص ١٦١ .

١ - قاسم أمين : ١٨٦٣ - ١٩٠٨ .

ولد قاسم أمين في مصر عام ١٨٦٣ .[١] فقد كان والده والياً تركياً، ثم منح إقطاعات في مصر وتزوج من إحدى بنات [٢] اسرة مصرية من صعيد مصر .

دخل مدرسة رأس التين الابتدائية في الاسكندرية وكان يؤمها يومذاك ابناء الطبقة الأرستقراطية .[٣] ثم انتقلت الأسرة الى القاهرة وسكنت في حيّ الحلمية ، وكان آنذاك حي الأرستقراطية القاهرية اذ كان قريباً من قصر عابدين . واتم قاسم امين في القاهرة المرحلة الثانوية من تعليمه باللغة الفرنسية ، ومن ثم التحق بمدرسة الحقوق ، وبعد حصوله على الليسانس عام ١٨٨١ سافر في بعثة دراسية الى فرنسا حيث مكث اربع سنوات وحصل على اجازة في الحقوق من جامعة "مونبليه" عام ١٨٨٥ .

وفي مصر ، كان قد تعرّف اثناء دراسته ، على جمال الدين الافغاني وتقرب من حلقاته وتلاميذه . ثم تجددت هذه العلاقة في فرنسا بعدما ذهب الافغاني ومحمد عبده الى باريس إثر اخفاق الثورة العرابية، حيث اصدرا صحيفة العروة الوثقى (١٨٨٣) . وكان قاسم

١- هناك خلاف حول مكان ولادته : هل هو في "طره" القريبة من القاهرة او الاسكندرية ، وبعض الكتب تجعل ميلاده سنة ١٨٦٥ . بشأن حياة قاسم امين انظر: مقدمة كتاب Mary Arnette: *Qasim Amin* ؛ وعمارة ، قاسم امين ، ص ص ٢٢ - ٢٧ ، وهيكل ، تراجم ؛ و Adams P. 231 .

٢- هي ابنة احمد خطاب شقيق ابراهيم خطاب باشا .

٣- لذلك تقول الكاتبة ماري ارنيت انه اعتبر "ولداً محظوظاً" . ففي ذلك الحين لم يكن في مصر كلها سوى خمسمائة طالب يذهبون الى هذا النوع من المدارس ، بينما كان الآخرون يذهبون الى الكتاتيب (Armette, P.8) .

امين في تلك الفترة المترجم الخاص للإمام محمد عبده .[١]

أتيح لقاسم امين ، وهو في فرنسا ، ان يطلع على العديد من القضايا الفكرية والثقافية التي كانت تثار آنذاك ، وقد تأثر بآراء المدرسة الوضعية (Positivism) التي تقول بأن المعرفة الصحيحة هي المعرفة المبنية على الواقع والتجربة وان اليقين لا يتحقق الا بالملاحظة والاستدلال ؛ وقد بشر بهذا المذهب اوغست كونت ثم اخذ به مل وسبنسر وتين ورينان وإنْ غيّروا فيه بعض التغيير.[٢] ويذكر ان قاسم امين قرأ لتين كما اطلع على آراء غيزو ورينان .[٣] وتضيف مصادر اخرى انه قرأ لنيتشه ودارون وماركس[٤] .

ولا شك ان ثقافته هذه وتعرفه على الحضارة الاوروبية دفعاه للاهتمام بقضايا الإصلاح الاجتماعي في مصر بشكل عام وقضية تخلف المرأة بشكل خاص ، وفي هذا الصدد يقول محمد حسين هيكل :" مع علمه بما يثير هذا الرأي عليه من حملات شعواء ، فقد شعر قاسم بما شعر به كثيرون من الشبّان الذين درسوا في اوروبا من ألم لما يرونه حين مقارنة الوسط الذي كانوا يعيشون فيه بالوسط الذي عادوا إليه."[٥] لذلك بعد عودته الى مصر ، وعمله في القضاء ، كتب خمس عشرة مقالة في صحيفة المؤيد لصاحبها الشيخ علي يوسف دون توقيع ، وكان ذلك بين سنتي ١٨٩٥ و١٨٩٨.[٦] وقد عالج في هذه المقالات قضايا اصلاحية

١- عمارة ، قاسم امين ، ص ٢٢ .

٢- جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج٢، ص ٥٧٨ ؛ International Encyclopedia of Social Sciences V. 11&12, P. 389.

٣- حوراني ، ص ٢٠١؛ Arnette, P. 33.

٤- عمارة ، قاسم امين ، ص ٢٢ .

٥- هيكل، تراجم ، ص ١٤٨ .

٦- عمارة ، قاسم امين ، ص ١١٥ .

في التربية والاجتماع والاقتصاد ، ثم جمعها في كتاب اسماه "أسباب ونتائج" . وفي عام ١٨٩٤ اصدر قاسم امين كتابه "المصريون" "Les Egyptiens"[١] باللغة الفرنسية يرد فيه على كتاب "دوق داركور" الذي يحمل العنوان نفسه والذي تحامل فيه على الاسلام والمصريين . هذا الامر جعل قاسم امين يمرض لمدة عشرة ايام، كما يقول ، ثم يستعيد هدوءه ويفند مزاعم دوق داركور "في حياد تام ودون انفعال او تميّز" .[٢] ففي هذا الكتاب دافع قاسم امين عن كفاية المصريين القتالية (ص ٢٣٢) وعن الرّق في الإسلام (ص ٢٣٧) ، وانواع الحكم التي توالت على مصر مادحاً حكم محمد علي والخديوي اسماعيل ؛ ثم تحدث عن النساء المصريات وحريتهن وحقوقهن ودوافع الطلاق وتعدد الزوجات (صفحات ٢٤٦ و ٢٥١ و ٢٥٦) ودافع ايضاً عن الدين الاسلامي الذي شوه صورته "دوق داركور" ، مبيناً صلة الدين بالاخلاق (ص ٢٧٣) وحث الدين على التعليم (ص ٢٨١)، كما يبيّن الكتاب مدى تعلق قاسم امين بوطنه واحساسه بالنزعة المصرية . فانه يستهل كتابه بفصل بعنوان "المصري"؛ ويبدو في خاتمة الكتاب إيمانه الشديد بتقدم مصر وسيرها على خطى ناهضة . فهو يقول :"ومنذ ثورة عرابي والشعب المصري يعي لقدره ولكرامته، وقد تفتح فكره وأخذ يهتم بالمسائل العامة للدولة ، يقيمها ويصدر عليها حكمه ، وكانت الصحافة وحرية الدفاع ونشر جلسات المحاكم هي أحسن مدرسة تعلم فيها الشعب وعرف عن طريقها حقوقه . ونستطيع ان نوجز قائلين : لقد تيقظت مصر ."[٣]

وإذا كان كتاب "المصريون" يبرز نزعة قاسم امين المصرية ، فإن كتابي "تحرير المرأة" (١٨٩٩) ، "والمرأة الجديدة" (١٩٠٠) ، يبرزان

١- ترجمه الى العربية محمد البخارى .

٢- عمارة ، قاسم امين ، ص ٢٠٢ .

٣- نفسه .

الوجه الإصلاحي في فكر قاسم امين . ولقد كان لمحمد عبده اثر كبير في توجيه فكر قاسم امين الاصلاحي حتى قيل ان عبده شاركه في كتابه "تحرير المرأة" كما ذكرنا آنفاً، واصحاب هذا الرأي يقولون ان اسلوب محمد عبده يبدو واضحاً في كتابة المسائل المحتاجة الى رأي الشرع مثل قضية الحجاب ، والطلاق وتعدد الزوجات .[١]

أما الغرض من وضع كتاب "تحرير المرأة" كما يذكر مؤلفه فهو لفت النظر الى هذه القضية الهامة حتى يتم إصلاح شأنها . فذلك مسؤولية تلقى على عاتق المتعلمين والمثقفين . يقول قاسم امين : "غاية ما أريد هو ان استلفت الذهن الى موضوع قلّ عدد المفكرين [٢] فيه ... وليس من العار علينا اننا وجدنا في مثل هذه الحالة ... وإنما العار ان نظن في انفسنا الكمال وننكر نقائصنا ... لا أظن انه يوجد واحد من المصريين المتعلمين يشك في ان امته في احتياج شديد الى اصلاح شأنها. فهؤلاء المتعلمون الذين اخاطبهم اليوم أقول : إن عليهم تبعة ما نألم له في عصرنا هذا". ثم يقول عن نفسه "وقد طرقت باباً من ابواب الاصلاح

١- عمارة ، قاسم أمين ، ص ص ١٢٤ - ١٣٢، حيث يوجد بحث مستفيض حول هذه القضية ، وانظر Adams, P. 232:.

٢- من المفكرين الذين اشاروا الى قضية المرأة في فصول متفرقة من نتاجهم : رفاعة الطهطاوي في كتابيه :"تخليص الإبريز" و"المرشد الأمين" (انظر: طه عمران وادي، الدكتور محمد حسين هيكل ، ص ١٥ ؛ وايضاً محمد كمال يحي : الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية ص ٩ وص ٧٠). كما دعا عبدالله النديم الى تعليم المرأة في صحيفته "الأستاذ" ودعا محمد عبده وصحيفة المنار لصاحبها رشيد رضا الى ضرورة تربية البنات تربية صحيحة وتعليمهن (وادي ، ص ١٥) . ومن غير المصريين ، هناك بطرس البستاني الذي بحث موضوع تعليم المرأة في إحدى خطبه (Arnette P. 16)، وأيضاً احمد فارس الشدياق في كتابه "الساق على الساق؛ (وادي ، ص ١٥) .

في امتنا والتمست وجهاً من وجوهه في قسم من افراد الأمة له الأثر العظيم في مجموعها." [١]

أما الموضوعات التي عالجها في كتابه "تحرير المرأة" كموضوعات تربية المرأة وتعليمها [٢] وحجاب النساء ، والعائلة والزواج والمرأة والأمة ، فإنها لجرأتها وجدتها اثارت على قاسم امي حملات شعواء خاصة من رجال الدين ؛ كما اثارت سخط الخديوي عبّاس الذي اعتبر الكتاب حدثاً خطيراً . وعندما اراد الشيخ علي يوسف ، صاحب جريدة المؤيد ، ان ينشر الكتاب مسلسلاً جُوبه بمعارضة شديدة فاضطر ان يفسح المجال في جريدته للطاعنين في الكتاب وصاحبه .[٣] ويقال ان احد الصحفيين احصى ما يزيد عن ثلاثين كتاباً ومنشوراً كتبت للرد على قاسم امين ودحض آرائه .[٤] لذلك رأى قاسم امين ان يدعم أراءه ويرد على خصومه بالحجة المقنعة فأصدر كتاب "المرأة الجديدة" في العام التالي .

ومما لا شك فيه انه كان لكتاب قاسم امين نواح ايجابية . يقول محمد حسين هيكل بصدد ذلك : ان الكتاب اثر في الرجال والنساء تأثيراً بالغاً . وذهبوا الى ان الكاتب على حق وان الآراء المطروحة هي

١- عمارة ، قاسم امين ، مقدمة "تحرير المرأة" .

٢- اول مدرسة لتعليم البنات افتتحت في القاهرة عام ١٨٧٣، أي عندما كان قاسم في سن التاسعة ، وكان اسمها مدرسة السيوفية . افتتحتها جشم آفت هانم ، زوجة الخديوي اسماعيل الثالثة (Arnette P. 9-10) وانظر: عصر اسماعيل ، ص٢٠٣.

٣- محمد حسين هيكل ، مذكرات في السياسة المصرية ، ج١، ص ٢٥. وسنشير اليه لاحقاً باسم :هيكل ، مذكرات . ومن المعروف ان هيكل كان من المعجبين والمتأثرين بفكر قاسم امين .

٤- Adams, P. 231 .

الوسيلة الوحيدة لخلق شعب حرّ يدرك الحياة إدراكاً صحيحاً .[١] ويذكر البرت حوراني "ان فكرة مناصرة المرأة كانت قد اصبحت منذ قاسم امين ، هاجس التفكير الوطني في مصر." [٢]

هناك قضية اخرى شغلت بال قاسم امين وعمل جاهداً على تحقيقها ، وهي إنشاء جامعة مصرية . فقد انضم الى مجموعة من تلامذة محمد عبده يذكر منهم سعد زغلول واحمد لطفي السيّد وحفني ناصف وشكلوا لجنة بدأت تحضّر منذ عام ١٩٠٦ لهذا المشروع.[٣] وعن تاريخ إنشاء الجامعة يذكر عبد العظيم رمضان في مقدمة "مذكرات سعد" ان فكرة إنشاء الجامعة قديمة تعود الى مصطفى كامل الذي نادى بها على صفحات اللواء عام ١٩٠٤ ثم كرر دعوته عام ١٩٠٥ بمناسبة مرور مئة عام على ارتقاء محمد علي عرش مصر واقترح ان تسمى "كلية محمد علي" ، لكن مشروعه توقف بعد ان جمع له بعض التبرعات . ثم قام محمد عبده يعمل لتنفيذ الفكرة وبعد ان سار في المشروع قدماً واختيرت الارض لبناء الجامعة ، توفي وعلّق المشروع حوالي السنة حتى اثير من جديد على ايدي تلامذة محمد عبده. فقد رأوا ان خير ما يعمل لاحياء ذكرى استاذهم ، هو تنفيذ المشروع بعد مماته ، وإنشاء كليّة تنسب اليه . وفاتحوا اللورد كرومر بذلك فكان رأيــه ان يبدأوا بإنشاء

١- هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص ٢٥ .

٢- حوراني ، ص ٢٦١. وقد بدأت بعض النساء امثال ملك حفني ناصف (والدها احد تلاميذ عبده) تتحدث عن قضية المرأة وحقوقها ؛ فكتبت "ملك ناصف" بين عامي ١٩٠٧ – ١٩٠٩ موضوعات عديدة بهذا الشأن .

٣- هيكل ، تراجم ، ص ١٤٩ ؛ Adams, P. 225 . وانظر: عبد العزيز رمضان ، مذكرات سعد ، ج١. ص ٨٣، وسنشير اليه باسم : مذكرات سعد .

كليـة صـغـيـرة ثم تطوّر وتكون على غـرار كليـة عليكره (Aligrah) فـي الهنـد.[١] وأحضر نظامات الكلية وسلمها لأحمد فتحي زغلول.[٢] ففي ١٢ اكتوبر من تلك السنة عقد اجتماع في منزل سعد زغول واصدر المجتمعون (٢٧ عضوا) بياناً موجهاً للأمة يدعوها للاسهام في انشاء الجامعة الأهلية المصرية . وكان قاسم امين متولياً سكرتارية ذلك الاجتماع ، ثم عين رئيساً للجنـة .[٣] وبعد ان جمع التبرعات للجامعة وهيأ متطلباتها وافته المنية قبل افتتاحها، عام ١٩٠٨، بأشهر معدودة . وقبل وفاته باسبوع واحد كان قاسم امين يلقي خطاباً "بالمنوفيّة" في منزل حسن باشا زايد حول انشاء الجامعة استهله بقوله :"إن الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيراً ، ولا تعلن عن نفسها . عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الأمم وفتحوا البلاد ولم نسمع انهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم ، فحسن بنا ان نقتدي بهم فنهجر القول ونعتمد على العمل." [٤]

٢ – سعد زغلول : ١٨٥٧ – ١٩٢٧.[٥]

هو ابن عمدة قرية أبيانة بمديرية الغربية . لم يكن في قريته

١- مذكرات سعد ، ص ٨٤؛ Adams, P. 225 .

٢- نفسه ، الكرّاسة السابعة ، ص ٣٣٣ .

٣- عمارة ، قاسم امين ، ص ٢٥ .

٤- نفسه ، ص ٣٠٩ .

٥- بعض المراجع تجعل سنة ولادته ١٨٦٠. بشان حياة سعد انظر: مذكرات سعد؛ ولاشين، سعد زغلول ودوره في السياسة المصرية ، وحوراني ص ص ٢٥٣ – ٢٦٧؛ وداغر مصادر الدراسة الأدبية ، ج٢، ص ٤١٦ حيث يضيف مصادر اخرى منها : المستر بلنت، التاريخ السري للاحتلال البريطاني؛ وعباس حافظ ، تاريخ سعد باشا وكلماته .

مدارس حديثة فتلقى علومه الأولية في مدرسة دينية وانتقل بعدها الى القاهرة حيث التحق بالازهر عام ١٨٧٣[١] وبقي فيه حتى ١٨٨٠. في تلك الفترة كان الافغاني في مصر فتتلمذ عليه سعد ولازمه كما لازم محمد عبده[٢]. غير ان سعداً لم يشر في مذكراته الى علاقته بالافغاني الا في مقالة واحدة كتبها لينفي انخراطه في المحفل الوطني الذي أنشأه الافغاني.[٣] فضلا عن ان احد دارسي سعد عثر على مقالتين له يتضح فيهما ، كما يذكر، اثر الأفغاني فيه.[٤] وهذا يفسر ان سعداً في بداية حياته ، لم ينخرط في الاتجاه الثوري الذي كان الافغاني وراءه، كما فعل النديم وصنوّع ، بل اكتفى بتلقي الدروس والمحاضرات عن الأفغاني وأثر خط محمد عبده المعتدل . حتى بالنسبة للثورة العرابية ، فقد وقف منها موقف عطف لا موقف مشاركة .[٥]

عمل سعد محرراً في الوقائع المصرية تحت رئاسة محمد عبده من سنة ١٨٨٠ حتى ١٨٨٢. وكتب عدداً من المقالات السياسية والأدبية والاجتماعية التي تسير في خط عبده الإصلاحي.[٦] وكان قد تنقل بين عدة وظائف حكومية خلال حوادث الثورة . ويفسر احدهم سبب هذه التنقلات بأن الجهة المناوئة للثورة ارادت إبعاده عن المشاركة في احداثها.[٧]

بعد احداث الثورة عمل سعد في المحاماة واكتسب شهرة

١- حوراني ، ص ٢٥٤ .

٢- لاشين ، ج١، ص ٦٢ .

٣- نفسه .

٤- نفسه ، ص ٦٣ .

٥- حوراني ، ص ٢٥٤ ؛ لاشين ، ج١، ص ٦٣ .

٦- لاشين، ج١، ص ٢٩.

٧- نفسه ، ص ٦٩.

واسعة وتوطدت علاقته ببعض الشخصيات الانجليزية التي كانت موجودة في مصر . ولا شك ان تردده على صالون الأميرة نازلي فاضل، الذي اشرنا الى دوره سابقاً، كان احد الأسباب الدافعة لذلك . وفي عام ١٨٩٢ عين قاضياً، وأخذ على عاتقه مع محمد عبده ولطفي السيد وقاسم امين مهمة، "اعتبروها اهم عمل في زمنهم وهي اعادة صياغة القوانين وإصلاح المؤسسات في مصر تلبية لحاجات العصر الحديث."[١] ففي مجال الإصلاح الديني قام سعد بانجاز هام وهو انشاء مدرسة القضاء الشرعي كي يتلقى فيها قضاة الشرع العلوم العصرية الى جانب العلوم الدينية.[٢] وفكرة انشاء مدرسة القضاء الشرعي قديمة بحثها محمد عبده مع كرومر. لكن ظهورها تأخر بسبب معارضة الخديوي عباس حتى عام ١٩٠٦ حين نفذت الفكرة على يد تلميذ محمد عبده ، سعد زغلول .[٣]

ويبدو ان قضية المرأة كانت تحتل جانباً كبيراً من اهتمامه ، بدليل ان قاسم امين اهداه كتاب "المرأة الجديدة" الذي اصدره عام ١٩٠٠. [٤] واثناء تردده على صالون الأميرة نازلي ، تعلّم الفرنسية بناء على رغبتها ومشورتها ، كما اصبح محامياً لها؛ وأخذ يؤهل نفسه منذ ذاك الوقت ليصبح وزيراً [٥] حتى تم له ذلك وعيّن عام ١٩٠٦ وزيراً للمعارف، وبقي في هذا المنصب مدة اربع سنوات .ولا شك ان علاقته باللورد كرومر وزواجه من ابنة مصطفى فهمي ، رئيس الوزراء آنذاك،

١- حوراني ، ص ٢٥٤ .

٢- نفسه ، ص ٢٥٩ .

٣- انظر مذكرات سعد، ج١، ص ٢٥٢؛ ولاشين، ج١، ص ص ٥٨ و ١٣٧.

٤- وكانت تربطه بقاسم امين صداقة متينة . انظر : لاشين ، ج١ ، ص ص ٢٥٢ – ٥٥.

٥- Storrs, P. 103 .

ساعداه على الدخول في خضم الحياة السياسية . ومن انجازاته الهامة انه زاد عدد المدارس واستبدل اللغة الانجليزية في بعض المواد باللغة العربية .[١] وفي عام ١٩١٠ تولى وزارة العدل ، ولكنه اختلف مع "ايلدون غورست" ، وكان في ذاك الحين قد حلّ مكان كرومر ، فاستقال سعد عام ١٩١٣. [٢] وفي عام ١٩١٤ ، برز سعد كزعيم للمعارضة ضد الحكومة وضد البريطانيين من ورائها ، وكان نائباً للجمعية التشريعية.[٣] ولما انتهت الحرب بدأ يعمل لاستقلال مصر فرأس الوفد المصري للذهاب الى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح . وقد تعرض بسبب ذلك للسجن والنفي ، لكنه منذ ذاك الحين "اقترن تاريخ حياته بتاريخ مصر".[٤]

اما حياته السياسية بعد عام ١٩١٩ فلا مجال لذكرها لأننا نتحدث عن سعد باعتباره احد ممثلي الاتجاه الفكري الذي اوجده محمد عبده في مصر ، هذا الاتجاه الذي لم يكن يرى بأساً من التعاون مع الانجليز من اجل مصلحة مصر. فان سعداً يذكر ان اللورد كرومر كان يجلس معه ساعات يحدثه في مسائل شتى كي "أتنّور فيها

١- اللافت للنظر ان هيكلاً يذكر في مذكراته ان سعد زغلول دافع عن التعليم باللغة الانجليزية بحجة ان الكتب العلمية والمكتشفات الحديثة كلها من عمل الاجانب ، ويضيف ان الكثيرين انتقدوه على ذلك . انظر: هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص ٣٥.

٢- حوراني ، ص ٢٥ .

٣- نفسه .

٤- نفسه، ويفصل ايضاً هيكل في مذكراته – الجزء الاول ، كيفية تاليف الوفد واعماله ومواقفه حتى نهاية الثورة ، وهو مصدر هام بسبب معاصرة هيكل لتلك الاحداث وتبنيه موقفاً خاصاً منها .

في حياتي السياسية".[١] كما ان كرومر يصف سعداً بأنه مصري مستنير من تلك الطائفة الخاصة من المجتمع المعنية بإصلاح مصر .[٢]

هذه الطائفة الخاصة يقصد بها كرومر، "حزب الإمام" كما سمّاها. وقد دعاها ايضاً "جيروند"[٣] (Gironde) الحركة الوطنية لأنه كان يرى فيها أمله الوحيد في قيام الوطنية المصرية .[٤]

لكننا يجب ألاّ نخلط بين هذه الطائفة وبين تلك التي كانت موالية للانجليز وتعمل على استمرار احتلالهم لمصر، والتي كانت متمثلة على الاخص بجماعة المقطّم وعدد كبير من المتمصرين. فان اتباع محمد عبده كانوا يرون الافادة من التعاون مع الانجليز ويعارضون بقاء الاحتلال او التدخل في السلطة . لذلك صنّفهم المؤرخون فريقاً ثالثاً مستقلاً بآرائه وتفكيره عن الجهتين المتصارعتين على السلطة : الخديوي عباس واللورد كرومر .[٥]

٣ - أحمد فتحي زغلول : ١٨٦٣ - ١٩١٤ .

هو شقيق سعد زغلول واسمه الاصلي فتح الله صبري ولتغيير اسمه حكاية تدل على نشاطه الثوري المبكر، فقد كان صديقاً لعبدالله النديم يحضر خطبه ويشارك فيها ويحث على الثورة ففصل من المدرسة بسبب ذلك . فنصحه ناظر المعارف آنذاك ، احمد خيري ، وكان يحبه لنباهته ، ان يغير اسمه كي يلتحق بالمدرسة باسم ثان .

١- لاشين، ج١، ص ٤٢ نقلاً عن مذكرات سعد .

٢- نفسه ، ص ٤٦ نقلاً عن كتاب كرومر "مصر الحديثة" .

٣- تطلق هذه التسمية على اعضاء الحزب الجمهوري المعتدل الذي انشىء في فرنسا عام ١٧٩١، لأن معظمهم كانوا اعضاء في (Department of Gironde) .

٤ لاشين، ج١، ص ٤٦.

٥- Ahmed, P. 44

فغير اسمه من فتح الله صبري الى احمد فتحي.[١]

ولد في قرية ابيانة بمديرية الغربية . تلقى علومه الابتدائية والثانوية في القاهرة ثم ارسل عام ١٨٨٤ الى فرنسا في بعثة علمية فنال شهادة الحقوق واتجه الى المدارس الحديثة والثقافات الاوروبية. ثم عاد سنة ١٨٨٧ الى مصر حيث بدأ عمله في القضاء ، حتى تولى نظارة الحقانية عام ١٩٠٧.

وكان احمد فتحي زغلول ، كشقيقه سعد ، من المقربين الى الامام محمد عبده ، حتى انهما كانا لا يتوانيان عن الاحتكام اليه كلما اختلفا في امر من الامور . ويذكر انه كان عضواً مؤسساً في الجمعية الخيرية الاسلامية التي أسسها عبده مع سعد وحسن عاصم عام ١٨٩٢.[٢] لكنه فكرياً ، كان احد اقطاب الاتجاه اللبرالي المتحرر في مدرسة عبده ، ولم يكن يتوانى عن مهادنة الانجليز مدفوعاً في اغلب الاحيان ، كما يبدو بالحرص على تحقيق منافعه الخاصة .

وفي مذكرات سعد زغلول نجد احاديث كثيرة عن فتحي واعماله واتصالاته بالخديوي وبجماعة الإمام محمد عبده ودوره في تأسيس جريدة الجريدة وحزب الامة . لكن لكثرة الخلافات التي كانت تنشأ بين سعد وفتحي ، والتي يسميها سعد "دسائس فتحي"، لا يمكننا الاعتماد على اقوال سعد بشكل قاطع ، غير ان الامر الاكيد هو ان فتحي سعى مع بعض تلامذة عبده، الذين الفوا "لجنة" وقابلوا اللورد كرومر،

١- أحمد زكريا الشلق، أحمد فتحي زغلول وقضية التغريب، ص ١٢. وسنشير اليه فيما بعد باسم :الشلق ، أحمد فتحي زغلول. وعن حياته انظر: داغر ، ج٢ ، ص ٤١٢؛ حيث يضيف مصادر اخرى مثل : سركيس ، معجم المطبوعات ؛ وشيخو، الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين . وانظر : Adams P. 213 .

٢- الشلق ، احمد فتحي زغلول ، ص ١٤.

من اجل انشاء ما يخلد ذكرى شيخهم .[١] وقد اقترحوا عليه انشاء مدرسة او مكتبة باسمه. وقد استحسن كرومر انشاء كلية على غرار عليكره في الهند، كما ذكرنا سابقاً، وقد سلّم نظامات الكلية لفتحي.[٢] ذلك انه ، كما يذكر كان يجد شبهاً بين مدرسة محمد عبده الفكرية وبين مدرسة "السيّد احمد" الفكرية مؤسس كلية عليكره .[٣] ويخبرنا سعد "ان اللجنة رأت ان تجمع تاريخ المرحوم وآثاره في مؤلف ذي اقسام ثلاثة وتطبعه، وقررت مقداراً من المال لهذه الغاية توزّع علينا حصصاً. وكل منّا قام بحصته ، وتكلف الشيخ رشيد رضا بالتأليف، وألّف فعلاً ، وانطبع ما ألّفه".[٤] لكن المؤكد هو ان فتحي كان احد الساعين لانشاء جريدة الجريدة التي التف حولها نفر من تلامذة محمد عبده، والتي سيأتي الحديث عنها لاحقاً، وذلك بدليل قوله للخديوي عندما عاتبه على ذلك :"نعم يا مولاي، إني انا الذي أنشأت الجريدة، ولولا دخولي فيها ما تم امر انشائها".[٥] غير ان الاثر العام الذي خلفه احمد فتحي ، والذي يعنينا هنا كجانب من جوانب التيار الإصلاحي لمدرسة محمد عبده، هو قيامه بتعريب وترجمة امهات الكتب الغربية التي رأى انها تفيد أمته وتضعها على طريق الاصلاح الاجتماعي والحضاري. وبعمله هذا لفت

١- مذكرات سعد ، الكراسة السابعة ، ص ٣٢٣؛ والشلق، احمد فتحي زغلول، ص١٨.

٢- مذكرات سعد، الكراسة السابعة ، ص ٣٣٢.

٣- Cromer, P. 180.

٤- مذكرات سعد، الكراسة السابعة ، ص٢٣٦ . وعنوان الكتاب "تاريخ الإمام الشيخ محمد عبده" في ثلاثة اجزاء.

٥- نفسه .

انتباه الدراسين والمؤرخين فأكدوا اهتمامه بقضية تحديث مصر.[١] وعُدّ المترجم الاكثر تأثيراً بين الناس فقد ذكر "تشارلز آدمس" ان رشيد رضا صاحب "المنار" قال ان صحيفته كانت تلاقي حفاوة كبيرة ، خاصة بين اعضاء السلك القضائي ، بسبب ترجمات احمد فتحي التي كانت تنشرها على صفحاتها .[٢] وسنذكر فيما يلي اسماء الكتب التي ترجمها والتي تنتمي الى المجال السياسي والفكري الذي اعتنقه وآمن به . هذه الكتب هي:

- الاسلام : خواطر وسوانح : تأليف هنري دي كستري .
- أصول الشرائع : تأليف بنثام وهو في جزئين .[٣]
- روح الاجتماع : تأليف جوستاف لوبون .
- سرّ تطور الأمم : تأليف جوستاف لوبون .
- جوامع الكلم : تأليف جوستاف لوبون .
- من امير الى سلطان : وهو كتاب ارسله مصطفى فاضل باشا الى السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٩ بشأن إصلاح الدولة .
- تقدم الانجليز السكسونيين تأليف ادمون ديمولان . ويعد هذا

الكتاب من اهم الكتب التي ترجمها ، ففيه يقرر ديمولان ان السبب في استيلاء الشعوب الانجلو سكسونية على العالم يرجع بالدرجة الاولى الى روح المبادرة الفردية . وقد وضع فتحي مقدمة للترجمة "حلّل فيها ضعف المجتمع المصري من حيث الافتقار الى العلم والى الشعور الوطني والى الصداقة الثابتة والى الاحسان الفعّال والى الاتكال على

١- أنظر: Adams, P.213 ؛ و Ahmed, P. 45 .

٢- Adams, P. 213 ؛ و Ahmed, P. 44

٣- وهو كتاب مهم لأنه نقل لآراء مدرسة المنفعة التي كانت في انجلترا صنو المدرسة الوضعية في فرنسا .

النفس."[١]

وقد ترجم كتباً اخرى لكنها لم تنشر ، ذكرها يوسف اسعد داغر في كتابه (مصادر الدراسة الادبية ج٢) وذكرها الشلق ايضاً في كتابه مستشهداً بقول احمد لطفي السيّد بانه اطلع على هذه الكتب لأحمد فتحي وهي :

- العقد الاجتماعي لجان جاك روسو .
- في الاقتصاد السياسي" لبورجار .
- جمهورية أفلاطون .
- "الفرد ضد الدولة"[٢] لسبنسر .

فضلاً عن ما ترجم من كتب هامة ألّف فتحي زغلول بضعة كتب هي :

كتاب "الآثار الفتحية" وهو يضم خواطره ومقالاته؛ و"شرح القانون المدني" و"رسالة قانونية" و "التزوير في الاوراق" وكتاب "المحاماة في كل زمان ومكان" "لجنة إصلاح الأزهر" .

اما تلميذ محمد عبده الرابع ، أحمد لطفي السيد ، فسنرجيء الحديث عنه الى حين كلامنا عن جريدة الجريدة .

١- حوراني ، ص ٢٢٢ .

٢- في الشلق :"الفرد ضد المملكة"

نشأة الاحزاب : القومية العثمانية والقومية المصرية .

منذ أن تولّى الخديوي عباس حلمي العرش في عام ١٨٩٢، بدأ الصراع بينه وبين المعتمد البريطاني كرومر على السلطة في مصر فكان يعتمد حيناً على مساندة تركيا وحيناً آخر على التفاف المصريين حوله حتى تمخض هذا الصراع ، فضلاً عن نضج الوعي الفكري والوطني ، عن نشوء احزاب منظّمة للمرة الاولى في مصر ، وكان ذلك في العام ١٩٠٧.[١]

لقد شهد عام ١٩٠٧ قيام الاحزاب الثلاثة الرئيسية في مصر.[٢] ففي سبتمبر تأسس "حزب الأمّة" برئاسة محمود سليمان ؛ وفي اكتوبر اعلن مصطفى كامل عن قيام "الحزب الوطني"، وفي ديسمبر اعلن عن تأسيس حزب "الإصلاح على المبادىء الدستورية" بزعامة الشيخ علي يوسف. وكان لكل حزب من هذه الاحزاب صحيفة تنطق بلسانه وتدافع عن مبادئه ولطالما خاضت معارك فيما بينها. وكان وجود هذه الصحف سابقاً لوجود الاحزاب. فاللواء صحيفة الحزب الوطني كانت قد ظهرت منذ عام ١٩٠٠؛ والمؤيد صحيفة حزب الاصلاح كانت قد ظهرت

١- رزق ، ص ٢١. قبل عام ١٩٠٧ لم تعرف الاحزاب في مصر بمعناها الدقيق. كان هناك تجمعان اطلق عليهما الاجانب تسمية "الحزب" وهما :الحزب الوطني الاول الذي رافق الثورة العرابية وقد ذكرناه في فصل سابق ، والحزب الوطني الثاني الذي أسسه الخديوي عباس حلمي مع مصطفى كامل وأحمد لطفي السيّد عام ١٨٩٤ وكان اقرب الى جمعية سريّة .

٢- فضلاً عن هذه الاحزاب الثلاثة كان هناك سبعة تنظيمات صغيرة أخرى ، وهي : حزب الاحرار ، الحزب الدستوري، حزب النبلاء، الحزب القبطي، الحزب الجمهوري ، الحزب الاشتراكي، وحزب العمّال . انظر: عوض ، ج٢، ص ص ١٩٥- ٩٦ .

منذ عام ١٨٨٩ ؛ والجريدة صحيفة حزب الامة كانت قد انشئت قبل ستة أشهر من الاعلان عن قيام الحزب . ثم انه في العام التالي ، اي ١٩٠٨ ظهر حزب صغير تجمع اعضاؤه حول صحيفة المقطم (١٨٨٩) الموالية للإنجليز ، وسمى نفسه "الحزب الوطني الحر" .

من هذه الاحزاب سنقف عند "الحزب الوطني" و"حزب الأمة" بشكل خاص لأنهما مرتبطان بموضوع الدراسة . أما حزب الإصلاح[١] فيكفي ان نذكر انه كان مؤيداً لسياسة الخديوي عباس الذي اوعز بتأسيسه عندما فترت العلاقة بينه وبين مصطفى كامل . فقد كانت المادة الأولى من برنامجه تنص على تقوية ودعم سلطة الخديوي "التي كفلتها الفرمانات السلطانية".[٢] غير ان صحيفته المؤيّد كان لها اهمية بالغة في ذاك الحين ؛ فان صاحبها الشيخ علي يوسف الذي كان من المترددين على (صالون) رياض باشا[٣] حيث كان يجتمع علماء الدين والمحافظون من اعداء الانجليز ، أنشأها بتشجيع من رياض باشا نفسه كي ترد على صحيفتي المقطم (١٨٨٩) والأهرام (١٨٧٦) . ذلك ان المقطم كانت لسان حال الانجليز في مصر ، وكانت الاهرام تدافع عن المصالح الفرنسية ، وكان اصحاب الصحيفتين من الشوام المتمصرين.[٤] لذلك

١- للتفاصيل عن هذا الحزب راجع رزق ، ص ٢٦ وما بعدها ؛ وأيضاً Landau PP. 140-42

٢- عوض ، ج٢، ص ١٧٦.

٣- عُيّن رئيساً للوزراء (١٨٩٣) بعد إقالة مصطفى فهمي؛ ويذكر انه كان "مسلماً معتدلاً" لذلك رضي به كرومر لتهدئة الشعور الديني الذي كان الخديوي عبّاس يعمل على إثارته عندما تسلم الحكم ؛ أنظر: عوض ، ج٢، ص ١٥١ .

٤- كان اصحاب المقطم: يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس؛ وصاحبا الاهرام سليم وبشارة تقلا .

كان من الطبيعي ان يلجأ الوطنيون المصريون ، في ذاك الوقت امثال محمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل الى المؤيّد للتعبير عن افكارهم .[١]

أما "الحزب الوطني الحر" فقد أيّد الاحتلال بصورة علنية ، وقد تزعمه محمّد وحيد الأيوبي ، وكان اعضاؤه ، وهم قلّة من أعيان البلاد والمتمصرين ، يعبّرون عن اتجاههم في صحيفة "المقطم" كما ذكرنا سابقاً . على ان هذا الحزب لم يعمر طويلاً ، فبعد عام ١٩١٠ لم يعد أحد يسمع به .[٢]

الحزب الوطني :

بدأ مصطفى كامل علاقته بالخديوي عبّاس بصورة سريّة. ويبدو ان تاريخ تلك الصلة ليس واضحاً لكن يستنتج انها بدأت بين عامي ١٨٨٤ و ١٨٨٥.[٣] وكان استياء الخديوي من كرومر ، المعتمد البريطاني ، وكرهه له قد بلغا الذروة إثر حادثة عرفت "بحادثة الحدود" التي وقعت في يناير ١٨٩٤.[٤] لذلك اهتم الخديوي بكسب الدعم الفرنسي لمواجهة الاحتلال البريطاني ، فأرسل مصطفى كامل الى

١- ويُذكر انه عندما توقفت المؤيد عن الصدور بسبب خلاف بين علي يوسف وشريكه ، جمع سعد زغلول المبلغ اللازم لعلي يوسف كي يشتري حصة شريكه .

٢- أنظـر: نصر ، ص ص٦٨ و ٦٩وللتفاصيل عن هذا الحزب أنظر: Landau, PP. 142, 43 ؛ ورزق ، ص ص ٣١ – ٣٢؛ حسين ، ج١، ص ص ٩١ – ٩٤ .

٣- عوض ، ج١ ، ص ١٦٢ .

٤- مفادها ان الخديوي عبّاس وجّه انتقاداً للضباط الانجليز اثناء قيامه بجولة تفتيش عسكرية . فاعتبرها كتشنر ، قائد عام الجيش المصري آنذاك، إهانة بحقه. واستغل كرومر هذا الموقف فأرغم عباساً على الإشادة بالضباط الانجليز في الجريدة الرسمية وإقالة ماهر باشا وزير الحربية. أنظر: جولد شميت، ص ٧٨.

فرنسا للسعي الى تحقيق ذلك .

من ناحية ثانية ، اوعز الخدوي الى مصطفى كامل لإقناع احمد لطفي السيّد وعبد العزيز فهمي وآخرين ، وكان هؤلاء قد اسسوا جمعيّة سريّة لمناوأة الاحتلال ، بضم جمعيتهم الى حزب وطني يترأسه الخديوي .واقترح كامل على لطفي السيّد ان يذهب الى جنيف ليحصل على الجنسية السويسرية كي يتمكن الحزب من ان يصدر صحيفة تحظى بحماية اجنبية . فسافر احمد لطفي السيّد الى سويسرا وهناك تعرّف الى محمد عبده فعدل عن رأيه بالنسبة للصحيفة والحزب وآثر متابعة خط عبده المعتدل منذ ذاك الوقت . وقد حمل اعضاء هذا الحزب اسماء سرية فكان إسم الخديوي "الشيخ" واسم مصطفى كامل "ابو الفداء" واسم لطفي السيّد "ابو مسلم".[١]

وعندما سافر مصطفى كامل الى فرنسا (١٨٩٥) تعرف الى جوليت آدم (Juliette Adam) رئيسة تحرير مجلة العالمين (Revue Des Deux Mondes) المعادية لبريطانيا ، فشجعته وعرفته بالصحف الفرنسية وبدأ مصطفى كامل يؤلّب الرأي العام الفرنسي ضد الاحتلال البريطاني في مصر في كتاباته في الصحف الفرنسية ، وفي خطبه السياسية هناك .

عاد كامل الى مصر عام ١٨٩٨؛ وحدث ان وقعت تلك السنة "حادثة فاشودة" فاهتزت آماله التي كان يعلقها على مساعدة فرنسا . فقد احتلت القوات الفرنسية "فاشودة"في السودان وأمل المصريون ان هذه المواجهة الخطرة بين فرنسا وانجلترا ستقنع الانجليز بالجلاء عن مصر مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة . لكن املهم تبدد إثر تراجع

١- فتحي رضوان ، عصر ورجال ، ص ٤١٠، وسنشير اليه فيما بعد باسم رضوان.

الفرنسيين عن فاشودة ، وسيطرة الانجليز على مصر والسودان.[1] ثم تعززت المصالحة الفرنسية - الانجليزية بـ"الاتفاق الودّي" الذي ابرم في عام ١٩٠٤ بين فرنسا وانكلترا. فكان هذا الاتفاق ضربة قاضية لمصطفى كامل الذي يقول عنه: "هذا الاتفاق الانجلو فرنسي المشؤوم الذي ستكون له اوخم العواقب على وطننا المسكين وخديوينا التعس".[2] واتجهت انظاره الى مساندة تركيا منذ ذاك الوقت؛[3] فأخذ يدعو لولاء عثماني ولمبدأ الجامعة العثمانية .

لكن مصطفى كامل واصل سعيه في حث الأمّة على الجهاد ، وكان كثيراً ما يكتب الافتتاحية في صحيفة اللواء التي اصدرها منذ عام ١٩٠٠؛ والتي شارك في تحريرها كل من محمد فريد (خليفة مصطفى كامل في زعامة الحزب) وأحمد شوقي واسماعيل صبري وخليل مطران وويصا واصف ومحمد فريد وجدي .[4]

وفي عام ١٩٠٦ حدث حدثان هامان غيّرا مواقف الاحزاب وصحفها او بالأحرى التجمعات إذ لم تكن الاحزاب اعلنت رسمياً بعد ، وعمّقا الشرخ بين فئتين من المصريين : إحداهما تنادي بالولاء لتركيا والاخرى تتمسك بقوميتها المصرية. هذان الحدثان الهامان كانا "حادثة

١- راجع هذه الحادثةبالتفصيل في عبدالرحمن الرافعي ، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، ص ص ١٢١ - ٢٤ ، وسنشير اليه فيما بعد باسم: الرافعي ، كامل .

٢- آرثر ادوارد جولد شميت، الحزب الوطني المصري، ص ٨٤، وسنشير اليه فيما بعد باسم : جولد شميت .

٣- في ذاك العام ، ١٩٠٤ ، منح مصطفى كامل رتبة الباشورية من سلطان تركيا .

٤- الرافعي ، كامل ، ص ١٤٦ .

طابا"[١] "ومذبحة دنشواي".[٢]

كانت طابا قرية صغيرة تقع على خليج العقبة في سيناء. وكانت تركيا قد تخلت عن سيناء لمصر منذ عام ١٨٩٢ . لكنها عادت في العام ١٩٠٦ لتسارع في احتلال طابا وضمها للأراضي التركية نتيجة لمشروع مد سكة حديد الحجاز من معن الى ميناء العقبة . ولمّا كانت مصر تخشى على حدود مصر الشرقية نظراً للتحالف القائم بين المانيا وتركيا ، فانها تمسكت بطابا ، وارسلت قوات الى خليج العقبة . فاضطرت تركيا الى الانسحاب تحت تهديد انجلترا .

هنا وجد المصريون انفسهم في حيرة ، أيؤيدون انجلترا التي تقول ان طابا مصرية او يؤيدون تركيا ضد انجلترا خصمهم التقليدي؟[٣]

وقفت جماعة صحيفتي اللواء والمؤيد الى جانب تركيا . وأشادت الصحيفتان بقوة تركيا وقالتا ان مصر لا تمانع بأن تكون طابا لتركيا ؛ ثم لمّا تراجعت تركيا عن طابا بررتا تراجعها بأنه حكمة وقوة.[٤] وذلك ان اصحاب هذه الدعوة كانوا يرون الخطر البريطاني اشد من الخطر العثماني ، لأنه واقع فعلاً بسبب الاحتلال . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فإنهم كانوا يتوجسون خيفة من الخطر الحضاري الاوروبي الذي كانوا يعتقدون ان من شأنه طمس معالم الإسلام والتقاليد و"يغتال شخصية الأمة المصريّة المسلمة".[٥] ووقفت جماعة اخرى، وهي الفئة

١- للتفاصيل راجع عوض ، ج٢، ص ص ١٦٥ – ١٦٦؛ هيكل ، مذكرات ، ج١، ص ٢٦؛ والنجار ، ص ص ١٦ –١٨ .

٢- انظر: عوض ، ج٢ ، ص ١٦٨ .

٣- نفسه ، ص ١٦٧ .

٤- هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص٢٦.

٥- عوض ، ج١، ص ١١١ .

التقدمية المنفتحة على الحضارة الغربية ، ضد الدعوة لجامعة عثمانية، وكان جلّها من الاعيان المصريين ، وتمسكت بالقول بأن طابا مصرية ذلك لأنها استشعرت بأن الخطر من الولاء لتركيا اشد وأدهى بسبب السيادة العثمانية من الجهة القانونية أولاً ، وبسبب التخلف الحضاري الذي تحمله السيطرة العثمانية ثانياً ، فبالنسبة لهؤلاء كان شر الاستعمار البريطاني المستنير اهون من شر الاستعمار التركي المتخلف.[١]

وبعد حادثة طابا ببضعة شهور وقعت حادثة دنشواي او كما يسميها البعض "مذبحة دنشواي"[٢] التي اهتز لبشاعتها جميع المصريين على حد سواء. فقد نفذ الحكم في يونيو ١٩٠٦ بشنق عدد من الفلاحين المصريين على مرأى من اهلهم بسبب مقتل ضابط انجليزي من جراء ضربة شمس. فقد شوهد احد الفلاحين بقربه وظن انه قتله عمداً، فأنزلت العقوبة دون شفقه بعدد من اهالي دنشواي. اثارت هذه الحادثة كراهية واضحة للاحتلال حتى قيل ان "حادثة طابا توارت امام حادثة دنشـــواي"،[٣] فكان في كل بيت مصري مأتم .

وبسبب سخط الرأي العام المصري اضطر الانجليز الى سحب مندوبهم اللورد كرومر عام ١٩٠٧ فخلفه السير "ايلدون غورست" الذي رأى ان يحسن العلاقة مع الخديوي عباس حلمي . وقبل ان يغادر كرومر صرّح في خطبة الوداع التي القاها تصريحاً خطيراً مفاده ان الاحتلال باق الى اجل غير مسمى .[٤]

١- عوض ، ج١ ، ١١١ .

٢- نفسه ، ج٢، ص ص ١٦٨ – ٧٠ .

٣- نفسه ، ص ١٦٩.

٤- نفسه .

إزاء هذين الحدثين وجد كل من الفريقين نفسه امام وضع جديد . فإن كانت حادثة طابا قد جعلت احدهما يدافع عن حقوق مصر لدى تركيا ، والآخر يدافع عن حقوق تركيا لدى مصر ، فإن حادثة دنشواي أثارت عواطف المصريين جميعاً ضد الانجليز . ورأى كل فريق ان الفرصة سانحة للاعلان عن وجوده والتعبير عن مواقعه . فأعلنت طبقة الاعيان التي كانت قد لمست من نفسها القوة وأخذت تتطلع للمشاركة في الحكم عن قيام حزب الامة في سبتمبر ١٩٠٧ بعد ان مهدت له باصدار جريدة الجريدة قبل ستة اشهر . كذلك اعلن مصطفى كامل عن الحزب الوطني بعد ان كان سرياً طوال سنوات وكان ذلك في اكتوبر ١٩٠٧ .

وواصل مصطفى كامل تأييده لتركيا بعد الاعلان عن حزبه غير انه لم يبد في الافق اي دليل على استعداد تركيا لتحرير مصر من الاحتلال البريطاني ؛[1] لكن تركيا، بالنسبة للحزب الوطني ، تبقى "الدولة الاسلامية القوية التي يمكن ان تتجه لها الشعوب الاسلامية بالرجاء".[2] فمن اقوال مصطفى كامل : "ان كان المصري لا يعرف الاّ وطناً واحداً وهو مصر فمن الأمور الطبيعية المحضة ان يساعد المصريون دولة الخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لأنها لم ترد ان تكون آلة في يد الإنجليز".[3] لذلك لم يقف تعاطفه مع تركيا سداً أمام بروز مشاعره القومية المصرية. فهو أوّل من هتف "لتحيا مصر"؛[4] وقد عبّر باسلوب وجداني عن تعلقه بوطنه كما يبدو من رسالة كتبها ل"جولييت آدم"

١- جولد شميت ، ص ٨٨ .

٢- هيكل ، تراجم ، ص ١٣٥ .

٣- صايغ ، ص ٥١ .

٤- نفسه .

يقول فيها : "أنا لا أزال صغيراً، ولكنّ عندي أطماعاً عالية . أنا اريد ان اوقظ في مصر القديمة امصر الفتاة ، يقولون ان وطني لا وجود له ، إن وطني موجود يا سيدتي ، وأنا احس به يحيا بي بحبٍ يفوق كل حب وبرغبة في ان اهب شبابي وقواي وحياتي لوطني."[1] وعندما توفي مصطفى كامل عام ١٩٠٨ خلفه على رئاسة الحزب محمد فريد وجدي ومن بعده عبد العزيز جاويش اللذين سارا على خط مصطفى كامل . ولا بد ان نذكر ان عبد العزيز جاويش سجن بسبب مقالته العنيفة التي كتبها في ذكرى مرور سنتين على مذبحة دنشواي[2] .

حزب الأمّة :

يعنينا حزب الأمّة أكثر من سائر الأحزاب في دراستنا هذه لعدة أسباب منها :

أولاً : تركيزه على فكرة القومية المصرية وعدم ولائه لأي طرف من الأطراف المتنازعة على السلطة : الخديوي او تركيا او انجلترا.

ثانياً : مشاركته في إعداد رأي عام وطني مستنير كان من الركائز التي مهدت لثورة ١٩١٩ فيما بعد .

ثالثاً : تأثيره فكرياً وسياسياً على حزب سينشأ فيما بعد ، هو حزب الأحرار الدستوريين الذي سيكون رئيس تحرير صحيفته ثم احد رؤسائه محمد حسين هيكل .

وقبل الحديث عن نشوء هذا الحزب وعن مبادئه لا بد من التحدث عن تكوّن الطبقة التي كانت وراء قيامه ، وهي طبقة الأعيان.

"الاعيان" هم المصريون اصحاب الاراضي الزراعية الواسعة

١- عوض ، ج٢، ص ١٦٣ .

٢- انظر بشان مقالات "جاويش" في ذكرى دنشواي كتاب انور الجندي : الصحافة العربية في مصر ، ص ١٦٨ وما بعدها .

والأطيـان في الريّف المصري؛ وقـد سـمـوا بـ"الاعـيـان" تمـيـيـزاً لهم عن "الذوات" الذين هم ايضاً من مـلاكي الاراضي الزراعيـة ولكنهم ينتمـون الى اصل تركي وحصلوا على هذه الاراضي منذ ان دخلوا في خدمـة محمد علي واسرته إذ كانوا يقتطعون الضـيـاع والأراضي الواسـعـة .[1] وتضـم طبقة الأعيان في اغلبها عمد القرى والمشايخ ورؤساء القبائل.[2] ويُرجع المؤرخـون ظهـور هذه الطبـقـة الى فـتـرة مـا بين عـامي ١٨٨٢ و ١٩١٩[3]؛ ويضـيـف كرومـر انهـم كانوا يمثلون العمـود الفقري في الثـورة العرابيـة من حيث هي حركة قـومـيـة .[4] غـيـر أنه بإمكاننا ان نرجع بداية تكوينـهـا الى قـبـل ذاك الوقت – وبالتـحـديد الى فـتـرة حكم الخـديـوي سـعـيـد . وبمقدورنا ان نرى ان هناك ثلاثة احداث هامة في ثلاثة عهود – هي عهد سـعـيـد ، وعـهـد الخديـوي اسـمـاعيل والاحـتـلال البـريـطـاني – عـمـلت على ترسيخ جذور هذه الطبقة :

١ – اللائحـة السـعـيـدية التي اصدرها الخديوي سـعـيد عام ١٨٥٨ والتي تخـول الفلاحين حق تملك الأراضي الزراعيـة التي اهملها اصحابها من الأمـراء ورجال الجيش ممن كان ينـعـم عليهم بأراض زراعيـة شـاسـعـة لم يسـتـطيـعوا زراعتها والعناية بها كما ذكرنا سابقاً .

١- النجار، ص ٤٣.

٢- أنظر عن هذه الفئات في Cromer, P P. 186 - 91 حيث يتحدث الكاتب عن المنافسة التي كانت قائمة بين مشايخ القرى والعمد وبين الباشاوات الاتراك . وايضـاً النجـار ، ص ٤٥؛ والشلق، الاحـرار الدسـتـوريون ، ص ١١٢. وسنعـود الى هذا الكتاب فيما بعد باسم الشلق، الاحرار .

٣- عوض ، ج١، ص ٢٣٦ .

٤- Cromer, P. 187

٢ - مجلس شورى النوّاب[١] الذي انشاه الخديوي اسماعيل عام ١٨٦٦. فإن قانون انتخاب اعضاء هذا المجلس حصر حق الانتخاب في العمد والمشايخ. فكانت النتيجة ان اصبح معظم اعضاء هذا المجلس في دوراته الثلاث (١٨٦٦ - ١٨٧٦) من العمد والمشايخ واعيان الريف المصري .[٢]

٣ - الاصلاحات التي تمت في مصر على عهد الاحتلال البريطاني، ومن ابرزها تصفية الدائرة السنيّة وأملاك الدومين في عام ١٩٠٥[٣] والمساواة بين المصريين والأتراك والاصلاحات العديدة في وسائل الري (خاصة سدّ أسوان) وتحسين الزراعة وطرق المواصلات مما عاد بالفائدة الكبرى على هذه الطبقة فاتسعت مساحة ما تملك من الأراضي ونما دخلها من الزراعة فزاد بذلك غناها ونفوذها .[٤]

وقد شجّع الانجليز أبناء هذه الطبقة كي تحلّ محلّ الطبقة التركية ، ابناء الذوات ، بسبب العداء والنزاع بين انجلترا وتركيا على السلطة في مصر وبسبب كره كرومر للخديوي وطبقته . وكان الأعيان المصريون قد احسّوا بقوتهم وتفوقهم منذ أيام الخديوي اسماعيل عندما كانوا يمثلون اغلبية مجلس الشورى وبدأوا يفرضون وجودهم ويدافعون عن حقوقهم ، فعارضوا مثلاً التدخل الاجنبي في سياسة مصر المالية ، وثاروا على وزارة نوبار باشا حتى استقال .[٥] وراق لهم هذا الجاه وهذه القوّة فأخذوا يتطلعون الى المشاركة في الحكم عن طريق الحد

١- قد تحدثنا عنه سابقاً .

٢- النجار ، ص ٤٥

٣- نفسه ، ص ٤٠

٤- رزق ، ص ٤؛ والنجار ، ص ٤٦ .

٥- انظر عوض ، ج٢ ، ص ٧١ .

من سلطة الخديوي المطلقة وذلك كي تنفتح لهم ابواب للمشاركة في الحكم ... لذلك قاموا يطالبون بدستور يحدد صلاحيات الخديوي وكان نتيجة ذلك ان حصلت البلاد على دستوريها (أو ما سميّ آنذاك بالدستور) في عامي ١٨٧٩ و ١٨٨٢ .[١]

ولما كان الاعيان يتطلعون الى المشاركة في الحكم فقد وجدوا في طبقة "الذوات" او الباشاوات الاتراك منافساً وخصماً لدوداً لهم . فهم كانوا يرون انفسهم أصحاب المصالح الحقيقية في مصر لأنهم من صميم المصريين ، لذلك فإن عبارة "مصر للمصريين" التي تبنّتها هذه الطبقة لم تكن تعني استقلال مصر عن دولة الخلافة بل كانت تعني ان يكون الحكم في مصر للمصريين لا للأتراك او الجراكسة او الأجانب.[٢]

فضلاً عن ذلك ، لم يكن ابناء الاعيان المصريون لينسوا انواع المظالم والسخرة والكرباج التي كانوا يعانون منها من قبل الاتراك المتمصرين. هذه المرارة نجدها واضحة في مقطع من مذكرات محمد حسين هيكل ، وهو أحد ابناء الأعيان ، عندما يقول :

"وقد بقيت في أذهاننا ، نحن ابناء الريف المصري ، صورة قاتمة من حكم الترك ، ومن حكم الخديويين أنفسهم ، حين كان لهم وللترك السلطان المطلق الذي ادّى الى ثورة عرابي . فكثيراً ما حدّثنا آباؤنا وأجدادنا وحدّثتنا أمهاتنا وجدّاتنا عن حكم أولئك النفر الذين يزدرون المصريين أشد ازدراء ويحقرونهم أشد التحقير ، ويضربونهم بالسياط لسبب ولغير سبب . وهذا ما يعبّر عنه المثل العاميّ :"آخر

١- النجار ، ص ص ٤٤ و ٤٩ .

٢- النجّار ، هامش "٣" ص ٤٤.

خدمة الغزّ علقة" . والغزّ هم الغزاة الاتراك والجراكسة وما اليهم."[١]

لهذه الأسباب التي ذكرناها نشب العداء بين انصار التيار العثماني ، أي الخديوي عباس وجماعة المؤيّد والحزب الوطني من جهة، وبين التيّار المصري الذي جلّه من طبقة الاعيان والذي شكّل فيما بعد حزب الأمّة من جهة أخرى . وفي هذا الضوء يمكن تفسير سياسة المهادنة والاعتدال الذي اتبعها حزب الأمة تجاه الاحتلال البريطاني مقارنة بسياسة الرفض القاطع التي اتبعها الحزب الوطني .[٢] فإن وحدة المصالح "حتّمت على هؤلاء غض النظر عن الاحتلال وان يكونوا على وفاق معه."[٣] ويصوّر لنا لويس عوض هذا الصراع ، الذي ما لبث ان تحوّل الى صراع بين الحزبين الأساسيين الوطني والأمة كما يلي :

"لقد كانت المشكلة هي من يملك مصر ومن يحكمها : الذوات الاتراك أم الأعيان المصريون . لقد تحوّل العمد المصريون الى أعيان البلاد بين ١٨٨٢ وثورة ١٩١٩ وتبلوروا في طبقة ارستقراطية مصرية حلّت تدريجياً محل الأرستقراطية التركية التي تكوّنت بين محمد علي ونهاية عصر إسماعيل . لقد كان الاختيار المطروح أمام "الارستقراطية المصرية " إما ان يملك مصر ويحكمها أعيانها المصريون تحت السيادة الأوروبية وإما أن يملك مصر ويحكمها المماليك أو الذوات الاتراك تحت السيادة العثمانية. وقد كان الاختيار دائماً شائكاً بسبب اختلاف الدين ،

١- هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص ٢٠ . كان "الذوات" يعيشون في المدن وكان العمد المصريون يجمعون لهم حصيلة أملاكهم . فمن يتأخر عن الدفع يكون نصيبه الضرب بالكرباج (أنظر: النجار، الجريدة ، ص ٤٣) .

٢- أنظر: صايغ ، ص ٥٦ .

٣- حسين ، ص ٩٤ .

ولكنه كان دائماً بجانب مبدأ "مصر للمصريين".[١]

إلا انه في مطلع هذا القرن حل جيل جديد من طبقة الأعيان حمل نمطاً مغايراً في التفكير عن جيل الآباء – وهم الذين أشار اليهم عوض "بالارستقراطية المصرية" في المقطع السابق . فإن أبناء الأعيان، بسبب سفرهم الى الخارج وتلقي علومهم في الغرب وانفتاحهم على الحضارة الغربية ، أخذوا يتطلعون الى تحقيق مطالب طبقتهم لكن من وجهة نظر مختلفة . فبينما لم يكن تفكير آبائهم يتجاوز مصالحهم الشخصية ، أصبح هؤلاء يطالبون بالدستور لما لمسوه من محاسن الحكم الديمقراطي الغربي ، ويقاومون النفوذ التركي من منطلق القومية المصرية متأثرين بتطور القومية الاوروبية ، وليس لاحتلال المناصب والادارات كما فعل الجيل السابق .[٢] لذلك يرى البعض ان طبقة الأعيان التي أسست جريدة الجريدة وحزب الأمة كانت تضم في الواقع فئتين : فئة كبار الملاّك او الارستقراطية المصرية وفئة الشباب المثقف من الأبناء .[٣]

كنّا قد ذكرنا حادثة طابة في هذا الفصل وأشرنا كيف ان طبقة الأعيان هذه لم ترض عن موقف جماعة صحيفتي المؤيد واللواء اللتين قالتا بأن طابا ، وهي جزء من الأراضي المصرية ، لتركيا . ورأت ان حماسة هذه الفئة لاقتطاع جزء من الأراضي المصرية لا "يتفّق مع المنطق والعقل".[٤] . لذلك رأى الاعيان في حادثة طابة حجّة ومسوغاً للإعلان عن وجودهم والمطالبة بحقوق مصر . ففكروا ، وعلى رأسهم

١- عوض ، ج١ ، ص ٣٣٥.

٢- النجار ، ص ص ٤٩ – ٥٠ .

٣- نفسه .

٤- هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص ٢٦.

أحمد لطفي السيّد بإصدار جريدة تكون حرّة مستقلة غير متصلة بسراي الخديوي ولا بالوكالة البريطانية؛[١] غير ان بعض المصادر التي تحدثت عن حزب الأمة " والجريدة" تشير الى ان فكرة إصدار الصحيفة ترجع الى اللورد كرومر الذي شجّع نفراً من تلامذة محمد عبده على اتخاذ هذه الخطوة ؛ وقد عارضت مصادر أخرى هذا الرأي ونفته .[٢] على اي حال، نجد في كتاب كرومر "مصر الحديثة" كما اشرنا سالفاً تنويهاً وإشارة بمحمد عبده وتلامذته اذ يقول انهم "جيروند" الحركة الوطنية المصرية وانهم يستحقون كل تشجيع ومؤازرة ، فهم ، حسبما يقول ، الحلفاء الطبيعيون للمصلح الاوروبي (European reformer) ؛ وعن طريقهم يمكن ان يصل الوطنيون المصريون الى الحكم الذاتي .[٣] ويتصور البعض ان هذا الموقف انبعث في الأصل من"أرضية قومية مصرية صحيحة."[٤]

اجتمع نفر من اعيان[٥] البلاد في بيت محمد باشا سليمان

١- النجار ، ص ص ١٨ - ١٩؛ عوض ، ج٢، ص ١٦٧ .

٢- أنظر: Landau, P.138 عوض ، ج٢، ص ١٧٠ - ٧١ ؛ النجار ، الفصل الرابع؛ هيكل ، مذكرات ، ج١، ص ٣١؛ جولد شميث، ص ١٢٥.

٣- Cromer, P. 180 ؛ وفي مذكرات سعد ، الكرّاسة السابعة حديث عن مدى علاقة الجريدة باللورد كرومر ، ومدى صلة كل من سعد وأخيه احمد فتحي "بالجريدة" وجماعتها . راجع ص ص ٣٣٢ - ٣٧ .

٤- أحمد زكريا الشلق ، حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية ، ص ٢١٥ . وسنعود اليه فيما بعد باسم : الشلق ، حزب الأمة.

٥- منهم حسن عبد الرزاق وحمد الباسل وفخري عبد النور وسليمان اباظة وعبد الرحيم الدمرداش ومحمد حفني الطرزي ومحمد الشريعي ومحمد سلطان وعبد الخالق ثروت وابراهيم الهلباوي واحمد فتحي زغلول واحمد لطفي السيّد .
أنظر : حسين ، ص ص ٩٤-٩٥؛ وصايغ ، ص ٥٦.

(أبو محمد محمود باشا رئيس الأحرار الدستوريين ورئيس الوزراء فيما بعد) الذي انتخب رئيساً لشركة الجريدة . كما انتخب حسن عبد الرازق الكبير وكيلاً لها ،[١] وأحمد لطفي السيّد رئيساً لتحرير الجريدة لمدة عشر سنوات وكان ذلك في مارس ١٩٠٧. وفي سبتمبرمن العام نفسه تم تحويل "شركة الجريدة" الى حزب الأمّة ، وهو أوّل حزب في مصر يضع برنامجاً مفصلاً يتناول مرافق البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية .[٢] واعتبر هذا الحزب بسبب تركيبته حزب "الصفوة". ذلك لأنه ضم صفوة الملاّك الزراعيين وصفوة المتعلمين والمثقفين ، الذين تم اختيارهم بعناية فائقة ، على حد قول أحدهم ؛[٣] بالرغم من ان الحزب ابدى استعداده لقبول اي فرد يرى رأيه .

ولما كانت جريدة "الجريدة" هي الناطقة بلسان حزب الامة فإننا سنتحدث عن مبادىء الحزب وسياسته واتجاهاته الوطنية في الفصل التالي حيث نتحدث عن احمد لطفي السيد وجريدة الجريدة .

١- هو أبو الشيخ مصطفى عبد الرزاق والشيخ علي عبد الرازق ، وكان صديقاً لمحمد عبده .

٢- س.أ. عدد ١٥١، ٢٦ يناير ١٩٢٩؛ للتفاصيل عن نشوء هذا الحزب وبرنامجه واعضائه أنظر : رزق ،ص ص ٤٥ – ٥٣؛ وأيضاً Landau, PP. 37 - 140 ، وراجع كتاب الشلق ، حزب الامة .

٣- رزق ،ص ٤٧.

أحمد لطفي السيد ومدرسة الجريدة

أحمد لطفي السيّد : ١٨٧٢ – ١٩٦٣[١]

ولد أحمد لطفي السيد في قرية برقين ، إحدى قرى الريف المصري، لأسرة تنتمي الى طبقة الاعيان . وكان ابوه سيّد باشا ابو علي عمدة قريته . درس في كتّاب القرية ثم التحق بمدرسة الحقوق وتخرج منها عام ١٨٩٤، والتحق بالقضاء واشتغل بالمحاماة حتى عام ١٩٠٧. ثم اشتغل بالسياسة وتولّى رئاسة تحرير الجريدة (١٩٠٧ – ١٩١٤) . وعيّن مديراً لدار الكتب المصرية (١٩١٥ – ١٩١٨) . وفي عام ١٩١٦ اسندت اليه الامانة العامة لمجمع اللغة العربية الأول . كما قام بدور بارز في بداية أحداث ثورة ١٩١٩ اذا انضم الى الوفد المصري وسافر الى باريس. وعندما اخفقت مساعي الوفد عاد الى مصر.

وقد عين مديراً للجامعة المصرية ١٩٢٥.[٢] وبعد ذلك تولى وزارات ثلاثاً: المعارف (١٩٢٨) والداخلية (١٩٣٧) والخارجية (١٩٤٦) ، وعيُن رئيساً لمجمع اللغة العربية الجديد عام ١٩٤٥ وعضوا بمجلس الشيوخ .

وكان احمد لطفي السيّد قد سافر في عام ١٨٩٣ الى استنبول حيث التقى جمال الدين الأفغاني وتلقى دروساً في حلقاته . ويبدو ان هذه البداية وجهّته الى طريق متطرف في العمل السياسي. فقد ذكرنا سابقاً كيف انه في عام ١٨٩٦ دخل في جمعية سريّة مع الخديوي عباس ومصطفى كامل وانه سافر الى سويسرا بطلب من مصطفى كامل بناء على رغبة الخديوي عباس لنيل

١- بشأن حياة أحمد لطفي السيد انظر: النجار ، ص ص ١٨٠ – ٨٥.

٢- بعض المصادر تذكر ١٩٢٨ .

الجنسية السويسرية ومن ثم العودة الى مصر لاصدار جريدة تقاوم الاحتلال البريطاني. غير انه اثناء اقامته بسويسرا اتيح له ان يتصل بالشيخ محمد عبده الذي كان يحضر الدراسات الفلسفية والأدبية بجامعة جنيف فتوطدت صلتهما وتزاملا في تلك الفترة . بينما يذكر البعض حادثة تعود الى وقت مبكر عندما كان احمد لطفي السيّد يقدّم امتحاناً في كلية الحقوق، لفت انتباه الشيخ محمد عبده اليه وكان الشيخ آنذاك من المشرفين على الامتحان .[١]

سار لطفي السيّد طوال حياته على نمط واحد من التفكير لم يتغير من بداية حياته حتى نهايتها ، هو التفكير الحر اللبرالي . وكادت همومه جميعها تنحصر في موضوعين عمل دوماً على إقناع الناس بهما: أولاً قيام حياة ديمقراطية دستورية في البلاد ؛ ثانياً ، الدعوة الى جامعة او رابطة مصرية تواجه الرابطة العثمانية التي كانت تجتذب عدداً كبيراً من المصريين.

وكان السيّد ينتمي الى مذهب "الحريين" (Liberalism) ، كما رغب ان يسميه.[٢] وهذا الانتماء جعله يقدّس الحرية الفكرية لأنها ، حسبما كان يعتقد ، تؤدي الى تحقيق المنفعة العامة . وهذه النزعة نحو مذهب المنفعة (Utilitarianism) كانت شديدة عند لطفي السيد . وقد استقاها من اتصاله بالفكر الغربي ودراسة الفلسفة السياسية من أرسطو حتى هوبز وديكارت وسبنسر .

وكان مذهب المنفعة قد انتشر في انجلترا من القرن السابع عشر حتى القرن العشرين . وكان من روّاده جيرمي بنثام" (Jeremy Bentham) وجون ستيوارت مل (John Stuart Mill) ؛ والمذهب،

١- النجار ، ص ١٨٥ .

٢- نفسه ، ص ٢٤٨ .

باختصار ، يدعو لتحقيق المنفعة للفرد وللجماعة لأنها تؤمن أكبر قسط من السعادة. "فالأفعال الصالحة عند النفعيين هي التي توصل الى السعادة ، والأفعال السيئة هي التي توصل الى الشقاء . فإن النفعي لديه متطلبات ، والاهتمام الرئيسي يجب ان ينصب على كيفية تأمين هذه المتطلبات ."[١]

لذلك سار احمد لطفي السيّد في تحليله الاجتماعي والسياسي على قواعد مذهب المنفعة الذي كان ايضاً مذهب عبده واحمد فتحي زغلول ، فنجد له مثلاً في الجريدة ثلاث مقالات متسلسلة تحمل عنوان "سياسة المنافع لا سياسة العواطف" . يقول في إحداها "إن أعمالنا السياسية يجب ان تكون قاعدتها المنفعة لاننا في زمان هو كذلك . ولأن التمدن الحاضر الذي نستمد منه كل قوة هو كذلك."[٢]

وقد تجلت معظم افكار لطفي السيّد في جريدة الجريدة اكان ذلك في نواحي الاصلاح المختلفة ام في دعوته الى القومية المصرية . ففي مجال الاصلاح السياسي رأى ان هذا الاصلاح لن يتحقق إلاّ من خلال حكم ديمقراطي يسوده الدستور ويشارك ابناء الامة المصرية فيه. "وأخذ يبصر الناس بالدستور والحياة الدستورية وخاض في شرح المذاهب السياسية المختلفة واشكال الحكومات مقارنا بينها وبين بعضها ليخرج من كل ذلك بأن الديمقراطية هي خير مذاهب الحكم وان الحكومة

١- حول مذهب المنفعة انظر: جميل صليبا ، المعجم الفلسفي، ج٢، ص ٥٠٠؛

International Encyclopedia of the social sciences, V. 16, P. 224

٢- الجريدة : اعداد ١٣٩٩و ١٤٠٠و ١٤٠١ في ٢١ و ٢٢ و ٢٣ أكتوبر ١٩١١. وقد كتب هذه المقالات بمناسبة الحرب الايطالية على ليبيا. فقد رأى ان المساعدة المصرية غير مجدية وان المصريين لا يجهلون انهم احق الناس بالمساعدة .

الاستبدادية هي شرّ انواع الحكومات واحطها وأسفهها."[1] كما نجد له مقالات عديدة تدور حول الوطن وتعريفه . فهو يكرر مثلاً ، في احدى المقالات، كيف ترى كل طائفة من الناس الوطن : العامة والاشتراكيون ورجال الدين وعلماء الاجتماع والحكومات والفلاسفة الروحيون.[2] ثم يقول ان الوطن هو "عبارة عن مركز المصلحة العامة لجماعة متضامنين يشعرون بحاجتهم الى التعاون في دفع الضار وجلب النافع وربما صح ان نقول بدل قولنا "مركز المصلحة" انه "آلة المصلحة" . ومتى تعطلت الوظيفة في هذا المركز او هذه الآلة فقد هذا الاسم وبطل التشبيب بذكراه."[3] والى جانب الاصلاح السياسي الذي نادى به شدد السيد على اهمية الاصلاح الاجتماعي وبشكل خاص بما يتعلق بالمرأة وحريتها وتعليمها ، وبالمجالات التربوية والتعليمية . فالنظام التربوي السائد ، حسبما كان يرى ، لا يفي بحاجات العصر الحديث من جهة ومقصر من نواح اخرى . أما مدارس الارساليات فهي برأيه غير صالحة لتعليم ابناء المسلمين .[4] لذلك فقد كتب في الجريدة مقالات عدة تعالج قضايا التعليم ومشكلاته والحلول التي قد تتوفر لها .[5] وقد خص التربية بقدر كبير

١- النجار : ص ٢٧٣؛ وفي الفصل العاشر من هذا الكتاب ، ص ص ٢٦٤ – ٨٤، مقتطفات من مقالات السيّد في الجريدة التي تدور حول تعريف الاستقلال والوطن وحقوق المواطنين وواجباتهم .

٢- انظر هاتين المقالتين في العددين الأولين من الجريدة في تاريخ ٩ و ١٠ مارس ١٩٠٧ وهما بعنوان "الوطنية في مصر" .

٣- نفسه .

٤- أنظر حوراني ، ص ٢٢٣ .

٥- أنظر على سبيل المثال مقالة عنوان "التعليم بالعربية" في الجريدة ، ع٢ ، ١٠ مارس ١٩٠٧.

من الاهتمام. فهو يذكر ان التربية المنزلية لا تقل اهمية عن التربية المدرسية ، خصوصاً تربية البنات وتعليمهن لأنهما الوسيلة الوحيدة التي تعطيهن الحرية الاجتماعية .[١]

أما دعوة لطفي السيّد الى القومية المصرية فأساسها إيمانه بأن رابطة الدين او اللغة لا تشكل امة ما . بل الذي يشكل الأمة هو رابطة الارض .[٢] فالمصري إن انتسب الى الفراعنة او العرب او الترك او المماليك فهو في النهاية مصري ينتمي الى ارض تفصلها عن بقية الاوطان حدود جغرافية طبيعية .[٣] من هذا المنطلق رأى السيّد ضرورة إعلاء شأن كل ما هو مصري ، او من نتاج مصر، حتى شملت دعوته هذه الادب واللغة . فقد دعا الى "تمصير" الادب واللغة ليعبرا عن الحياة المصرية والواقع المصري ولم ير بأساً في إدخال بعض الالفاظ العامية في اللغة او استخدام اسماء المستحدثات الاجنبية بلغة أهل العامة مثل "البسكليت" و"الأوتومبيل" و"المودة" وغيرها .[٤]

لقد كان احمد لطفي السيّد يكثر من نشر الموضوعات الفكرية والفلسفية في الجريدة لتطبيق سياسة الترشيد التي آمن بها. ويقول بهذا الصدد حسين فوزي النجار، وهو احد دارسي جريدة "الجريدة"، ان لطفي السيد "اخذ يفلسف دعوة الجريدة من وحي أرائه الخاصة وثقافته الصميمة فكان يكتب مثلاً عن الحرية والاستبداد

١- الجريدة ع ١١٢، ٣٠ يوليو ١٩٠٧، والمقالة بعنوان "المرأة والامة" .

٢- حوراني ، ص ٢١٦ .

٣- النجار ، ص ٢٦٠ .

٤- أحصت نفّوسة زكريا سعيد في كتابها "تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها في مصر" سبع مقالات للطفي السيّد نشرها في الجريدة وتدور حول تمصير اللغة ، انظر: ص ص ١٢٤ – ٣٥ .

وطبائع الامم والدستور والاستقلال مفلسفاً أراءه على طريقة فلاسفة اليونان ونظرياتهم السياسية ولا سيما أرسطو وفلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من أمثال "روسو" و"مونتسكيو" و"كانت" و"هوبز" و"جون ستيوارت مل". كما اخذ يدعو الى التفكير الواقعي متخذاً اسلوب الجدل المنطقي والثقافة الغربية الحديثة في الفكر والسياسة والدعوة الى الاصلاح الاجتماعي مما كان وقتئذ لا يستسيغه سواد القراء . كما كان لتأييده دعوة تحرير المرأة اثر لا يستهان به في استنكار الناس لهذه الخطة في الجريدة."[١]

إذاً توجهت الجريدة الى الطبقة المتعلمة المثقفة ، وهي الطبقة التي كانت تلقب بـ"الصفوة" . وهنا يتبادر الى الذهن الشعار الذي كان يتصدر صفحة الجريدة الاولى طوال مدة صدورها ؛ وهو قول لابن حزم: " من حقّق النظر وراض نفسه على السكون الى الحقائق ، وإن آلمتها في أوّل صدمة ، كان اغتباطه بذم الناس إياه اشد من اغتباطه بمدحهم إياه."[٢] ويؤكد هذه الفكرة محمد حسين هيكل ، بقوله "ان دعوة الجريدة لسلطة الأمة والمطالبة بالدستور وبالحرية الفردية كان غريباً عند الجمهور . لكنه لم يكن فيه شيء من الغرابة عند الصفوة المتعلمة تعليماً عالياً والتي تريد لمصر استقلالاً وحياة نيابية".[٣]

وقد يكون هذا الخط الفكري هو الذي باعد بين الطرفين اللذين أنشا حزب الأمة وجريدة الجريدة ، واللذين كنا قد اشرنا اليهما فيما سبق بفئة كبار الملاك وفئة المثقفين من ابنائهم . "فإن الاعيان انحصر تفكيرهم في مصالحهم وأما المثقفون من محرري الجريدة فكانوا

١- النجار ، ص ٩ .

٢- الجريدة ، ع ١ ، ٩ مارس ١٩٠٧.

٣- هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص٣١.

اصحاب مذهب سياسي واجتماعي حاولوا جهد استطاعتهم ان يوفقوا بينه وبين رغبات فريق الأعيان الذي أنشئت الصحيفة بأمواله" .[١]

وقد اتسم اتجاه جماعة الجريدة بالاعتدال والتعقل وقبول الحضارة الاوروبية . وقد كان ذلك طبيعياً وهم من تلامذة محمد عبده ، خاصة اذا ما راجعنا علاقة ثلاثة من تلامذته المخلصين بالجريدة : لطفي السيد رئيس تحريرها ، وفتحي زغلول الذي ينسب لنفسه فكرة تكوين شركة الجريدة ويقول انه ترأس اللجنة التي شكلت لوضع قانون الجريدة ،[٢] وسعد زغلول الذي قيل عنه انه "العقل المدبّر لها"،[٣] بالرغم من انه ينفي صلته بها.[٤] وقد يوضّح هذا الاعتدال في اتجاهها ما ورد في العدد الاول من الجريدة وهذا نصه : "الجريدة مصرية بحتة غرضها الدفاع عن الصوالح المصرية على اختلاف انواعها وإرشاد الامة بأسرها الى منافعها الحيوية الصحيحة ونشر ما فيه فائدة ماديّة او أدبيّة ونقد كل عمل له مساس من اي جهة كانت بتلك المنافع ... لا فرق في ذلك بين الاديان ولا تمييز بين الاجناس : هذا مع نبذ الشخصيات وعدم الخوض في المنازعات الدينية المحضة وان لا تستأجر في غرض وان لا تستخدم لأحد مع التزام الاعتدال في جميع الاحوال."[٥]

غير أن المتفق عليه هو ان احمد لطفي السيّد ، خلق من الجريدة مدرسة فكرية كان لها اثر لا يستهان به ، فالمؤلف السوداني جمال محمد احمد، عندما يصف حلقة الجريدة، يقول "إن روّادها كانـوا

١- حسين ، ص ص ٩٤ – ٩٥ .

٢- الشلق ، احمد فتحي زغلول ، ص ٩؛ مذكرات سعد ، ص ٣٣٦ ١.

٣- هكذا اتهمه الخديوي عباس ، أنظر: عوض ، ج٢، ص١٧٠ .

٤- مذكرات سعد ، ص ٣٣٤.

٥- الجريدة ، ع١ ، ٩ مارس ١٩٠٧ .

يلتقون بانتظام في منزل آل عبد الرازق ، او في المقاهي في ساحة عابدين ، او في مكاتب الصحيفة . وكانت نقاشاتهم تدور حول المسائل الحقيقية للقومية المصرية والتعليم والدين والعلمانية وغيرها من الموضوعات . وفي هذه الاجتماعات كان يسمع للمرة الاولى اصوات رجال سيشتهرون فيما بعد مثل صبري ابو علم ومحمود عزمي ومنصور فهمي وحسن صبري وحسين هيكل وفريد أبو حديد ...".[١]

أما تلميذه وقريبه ، محمد حسين هيكل ، الذي تأثر به أشد التأثر وسار على خطواته من بعده فيقول عنه :"لم يكتف بأن ينصب نفسه استاذاً ومعلماً لناشئة الجيل من امثالي الذين كانوا يترددون عليه ، بل أتاح لنا فرصة الاجتماع بكبار الاستاذة اذ كان يدعوهم ليحاضروا في دار الجريدة في موضوعات مختلفة . كان احمد بك عبد اللطيف وحسن بك صبري ومحمود بك أبو النصر وغيرهم من كبار المحامين يحضرون الى الجريدة يلقون محاضرات ما كان أجلّها فائدة ... وكان هؤلاء لا يأبون علينا أن يرشدونا الى كتب نقرؤها ما كان اعظمها أثراً في ثقافتنا." [٢]

١- Ahmed, P. 57

٢- هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص ٣٤.

الفصل الاول

محمد حسين هيكل : حياته وثقافته وحياته العملية

١٨٨٨ - ١٩٥٦

في كفر غنام :

ينتمي محمد حسين هيكل الى عائلة من اعيان قرية كفر غنام، وقد تحدثنا في الفصول السابقة عن طبقة الأعيان هذه . اما انتماؤه هذا فسيحدد معالم شخصيته وسيؤثر على ميوله الفكرية واتجاهاته السياسية .

تقع كفر غنام في محافظة الدقهلية . وكانت عائلة هيكل قد جاءت الى القرية منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، وكان عدد افراد القرية آنذاك حوالي ثلاثمائة شخص ، ثم وصلت عائلة هيكل الى منصب العمودية في مطلع القرن التاسع عشر .[١]

اما ما يذكره احد الدارسين من ان العمد في القرى كانوا يعيشون في سعة في منازل كبيرة ويمتلكون الى جانب دارهم ، بيتا للضيافة ، واسطبلاً ، ومضخة للري ، ومسجداً ... ويرسلون اولادهم الى الأزهر ، ويكثرون من ذهابهم الى المدن ، [٢] اما هذا كله ، فيبدو انه لم يكن منطبقاً على جميع عمد القرى ، وكان هناك فئتان من العمد : عمد القرى ، الذين لا يملكون الأراضي بل يزرعونها ويستغلونها ويدفعون

١- Ch. Smith , *Islam and the Search For Social Order in Modern Egypt : A Biography of Muhammad Husayn Haykal* p. 33

وسنشير الى هذا الكتاب فيما بعد باسم : - Smith

٢- نفسه . وهو مأخوذ عن Gabriel Baer,*Studies in Social History of Modern Egypt* .

مقابل ذلك ايجارا للمفتش او المأمور [1] وعمد القرى - من الفئة الثانية - التي تملك اراضيها اما لأنها نجت من الأقطاع العلوي حين وزّع محمد علي اخصب الأراضي واجودها على اسرته واولاده او لأنها من الذين اقتنوا الارض بعد اللائحة السعيدية [2]. اما قرية هيكل فإنها لم تُضم الى الإقطاع العلوي وبنى والده أول منزل على الطراز الأوروبي في كفر غنام عام ١٨٥٠ ، وكان للعائلة فلاحون اجراء (تملّية) يعتنون بأراضيها مقابل اجرهم اليومي وطعامهم .[3]

في هذه البيئة الريفية ، ولد محمد حسين هيكل في ٢٠ اغسطس سنة ١٨٨٨. وكان والده حسين افندي[4] سالم هيكل، سيد قومه وعشيرته وكان يحتل ايضاً مكانة عالية بين اعيان المركز ورجال الحكومة، لأن العمد في ذاك الوقت كانوا همزة الوصل بين اهالي الريف

١- انظر: هيكل ، مذكرات ، ج ١ ، ص ٤٨ حيث يصف بعض بيوت العمد بأنها « أدنى الى منازل أشد الطبقات فقراً » . المفتش هو الذي يدير « التفتيش » وهي قطعة ارض تزيد مساحتها عن عدة آلاف من الأفدنة ، والمأمور هو الذي يدير "المأمورية" وهي الأرض التي تقل مساحتها عن الألف فدان. انظر: حسين فوزي النجار ، الدكتور هيكل وتاريخ جيل ١٨٨٨ - ١٩٥٦ ، ص ٥٩ . وسنعود اليه باسم : النجار ، الدكتور هيكل .

٢- النجار ، الدكتور هيكل ، ص ٥٩ .

٣- Smith , p. 34 ويذكر المؤلف ان هذه المعلومات حصل عليها من مقابلة شخصية مع السيد نعمان هيكل قريب محمد حسين هيكل .

٤- كان يلقب نفسه بالأفندي لأنه، حسب احدى الروايات، كان يلبس لباساً اوروبياً بينما كان معظم الناس يلبسون اللباس التقليدي.

والحكومة وما يتصل بها من شؤون وأعمال.[١]

بدأ هيكل تعليمه في القرية في كتاب الشيخ جاد وحفظ جزءاً من القرآن[٢] وليس هناك في مذكراته او كتاباته ما يشير الى طفولته سوى مقالتين كتبهما في السفور؛ احداهما بعنوان «في الكتّاب» والأخرى «في المدرسة» يصف فيهما الإهمال الذي كان يعامل به التلاميذ والرشوة «بالرغيف» او «بنصف البريزة» التي كان يتوقعها الشيوخ من الأولاد.[٣] وكانت عائلته، كمعظم عائلات الأعيان قد انتبهت الى ضرورة تعليم ابنائها وتثقيفهم لأنه الوسيلة التي تمكنهم من الوقوف على قدم المساواة مع الاتراك والجركس (ابناء الذوات)، منافسيهم في الوظائف والمناصب الحكومية، فنال معظم اعمام هيكل واخوته قسطاً وافراً من التعليم الابتدائي والثانوي والجامعي احياناً. وبنى عمه الشيخ نجم الدين اول مدرسة غير دينية في القرية، ويذكر انه ساعد مجموعة من الشبان على اتمام تعليمها في الأزهر بدفع نفقات التعليم[٤].

فكان من الطبيعي الا تهمل العائلة تعليم ابنها فأرسلته، وهو في السابعة من عمره، إلى القاهرة لكي يتلقى التعليم هناك.

١- احمد لطفي السيد ، د. محمد حسين هيكل ، ص ٥. وسنشير اليه فيما بعد باسم : السيد . وانظر : عبد العزيز شرف ، محمد حسين هيكل في ذكراه ، ص١٥؛ الذي سنشير اليه فيما بعد باسم : شرف .

٢- وادي، ص ٢٧ حيث يقول انه لا يمكن القطع بكمية ما حفظ من القرآن لأنه لم يسجل في يومياته او مذكراته؛ لكن Smith يقول انه حفظ ثلث القرآن، غير انه لا يشير الى مصدر معلوماته. (p. 35).

٣- هيكل ، في اوقات الفراغ ، ص ٣٢٦ و٢٩٢.

٤- Smith, P. 34.

في القاهرة :

وفي القاهرة حصل محمد على الشهادة الابتدائية من مدرسة الجمالية ومن ثم دخل المدرسة الخديوية ليحصل على الباكلوريا في عام ١٩٠٥[١]. وهناك عاش هيكل مع عم له من علماء الأزهر هو الشيخ صالح سالم هيكل الذي ربما عاد الفضل اليه في لفت نظر ابن اخيه الى بعض كتب اللغة وآدابها[٢]. ويرى سميث، وهو احد دراسي هيكل ان انفصاله المبكر عن عائلته وقريته، بالرغم من عودته في العطل الصيفية الى القرية، أثر تأثيراً عميقاً في نفسه، فولّد عنده شعوراً بالاستياء نحو ابيه. وقد استمر هذا الإحساس طوال حياته. ويعزى سبب هذا الاستياء الى سلطة الوالد وقلة اكتراثه بولده خاصة بعدما تزوج امرأة ثانية وانجب منها. ويستنتج الكاتب انه بسبب مرارة هذه الذكريات فإن هيكل تعمد اغفالها من يومياته[٣]. لكن يبقى هذا الاستنتاج موضع تساؤل خاصة عندما نراجع وصف هيكل لأبيه بالطيبة والحنو وحسن الرعاية في رواية زينب[٤]. وليس هناك سوى إشارة واحدة في مذكرات الكاتب توحي بأن صداماً أو اختلافاً في الرأي وقع بين الأب وابنه، وذلك عندما يُضرب طلاب مدرسة الحقوق ويُضرب معهم هيكل فيطلب اليه والده العودة الى الدراسة ويأبى الولد ذلك[٥]. اما فيما يتعلق بإخوته فلم نر أية اشارة الى ذلك باستثناء «إحسان» شقيقته التي اهدى إليها

١- النجار، الدكتور هيكل، ص ٢٩.

٢- وادي، ص ٢٨؛ Smith, P.35 .

٣- Smith, P. 36 .

٤- هذا باعتبار ان الرواية هي سيرته الذاتية كما يجمع اكثر النقاد.

٥- هيكل، مذكرات، ج١، ص ٢٥ .

قصة زينب وكان هيكل يكاتبها كثيراً في أثناء غيابه عن القرية[١].

كان هيكل يقضي معظم أوقاته، أثناء العطل الصيفية في قريته، بالمطالعة والذهاب الى الحقل (دون ان يعمل في الحقل كباقي اخوته وأعمامه). وكان احياناً يدرس في مدرسة القرية التي كانت شبه مقصورة على أفراد عائلته. وبدأ في صيف ١٩٠٣ بإصدار صحيفة دعاها «الفضيلة» واستمر باصدارها طوال سنتين، وكانت تطبع بالبالوظة وتوزع على أهل القرية[٢].

ولم يكن هيكل في ذاك الحين، وهو حديث السن في الثانوية، قادراً على تتبع الاتجاهات الفكرية التي كانت سائدة في عصره، على حد اعترافه هو، باستثناء كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» (١٨٩٩) الذي أثار ضجة «لم تفت حتى الصغار في ذلك الوقت»[٣]. لكنه يذكر أنه كان شديد الميل الى دراسة الأدب العربي والاطلاع على قديمه وحديثه[٤]؛ ويذكر طائفة من الكتب التي قرأ فيها، منها أمالي القالي وأغاني الأصفهاني وأمثال الميداني والبيان والتبيين للجاحظ وكتاب الأفغاني في الرد على الدهريين وكتاب الإسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده[٥]. وكان لمقالات عبده التي نشرها في «العروة الوثقى» وفي الكتاب الذي نشره رشيد رضا (تاريخ الأستاذ الإمام) أبلغ الأثر في نفس هيكل[٦].

١- وادي، ص ٣٠.

٢- Smith, p. 37 . ويطلق عليها المؤلف اسم "news sheet"، وانظر: وادي، ص٢٩ الذي يذكر أنها "مجلة".

٣- هيكل، مذكرات، ج١، ص ٢٤.

٤- نفسه، ص ٢٥.

٥- السيد، من مقالة للتجار، ص ١٢.

٦- هيكل، مذكرات، ج١، ص ٢٨.

بعد الثانوية، دخل هيكل كلية الحقوق وحصل على الليسانس عام ١٩٠٩[١]. وكان أكثر زملاء هيكل في الكلية من المتشيعين لمصطفى كامل وآرائه[٢]. غير أن هيكلاً يقف في هذه الفترة موقفاً غاية في الأهمية. هنا يبدأ وعيه الفكري بالتكون ليتخذ اتجاهاً مميزاً يلتزم به طوال حياته. فهو لم يستطع الانجراف مع تيار الطلبة قبل ان يتبين حقيقة الأمر على حد قوله. فاكب على صحيفتي المؤيد واللواء ليتابع عن كثب هذه التيارات السياسية .

في ذاك الحين تأزم الوضع حول حادثة طابا* وانقسمت البلاد بين مناصر لتركيا بتأييد صحيفتي اللواء والمؤيد، ومناصر لانجلترا التي تقول إن طابا أرض مصرية. يقول هيكل بهذا الصدد : «حينذاك ايقنت ان المنطق كما أفهمه ليس منطق هذه الصحف واصحابها (اي صحيفتي اللواء والمؤيد) ولم أرَ في هذا المنطق ما يدفعني الى متابعتهما عن سياسة مصر».[٣] ثم حصل حادث آخر ثبت عند هيكل الاعتقاد بأن وجهته مختلفة عن وجهة صحيفة اللواء واتباعها. هذا الحادث هو اتخاذ اللواء موقفاً عدائياً من قاسم أمين وكتابيه «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة». يقول هيكل عن ذلك : «أعدت قراءة كتابي

١- اقنعه لطفي السيد بالالتحاق بمدرسة الحقوق الخديوية بدلاً من الذهاب الى انجلترا لدراسة الهندسة، وكانت تربط اسرتيهما اواصر صداقة وقرابة. ويشير Smith ان تاريخ تخرجه هو ١٩٠٨ . لكنه يبدو على خطأ اذ ان هيكل يشير في مذكراته انه تخرج عام ١٩٠٩.

٢- كانت مدرسة الحقوق تموج بالفكر الوطني الذي اوقد جذوته مصطفى كامل منذ التحاقه بهذه الكلية عام ١٨٩١ ، انظر : النجار، الدكتور هيكل، ص ٤٤ .

* تقدم الحديث عن هذه الحادثة .

٣- هيكل، مذكرات، ج١، ص ٢٦ .

قاسم أمين واقتنعت بأن الرجل على حق، وبأن ما يقوله من البديهات. وعجبت لموقف الذين ناوؤه ووقفوا في وجهه، ولموقف جريدة اللواء التي اتهمته بمخالفة الدين تأييداً منها لموقف الخديوي الذي حرم على قاسم دخول عابدين»[١] . ونشأ عند هيكل اذ ذاك ما أسماه «بحيرة إجتماعية»، وكانت حادثة طابا التي ذكرناها آنفاً قد سببت له «حيرة سياسية». فإلى ماذا أدّت هاتان الحيرتان ؟ أدّتا الى اتخاذ هيكل اول موقف سياسي في حياته عبّر عنه بقوله : «بدأت أشعر بأن متابعة الجماهير هي الطريق السهل، ولكنها تؤدي أكثر الأمر إلى الخطأ، ولهذا شعرت بعزلة جعلت موقفي من زملائي الطلبة في هذه المسائل موقف صمت ليس فيه معارضة لهم، وليس فيه كذلك انخراط في صفوفهم ومتابعة لزعمائهم»[٢]. ومن هنا، وكان لا يزال دون العشرين من عمره، حدد هيكل مبادئه وهي : اتباع المنطق ورأي النخبة او «الصفوة» والاعتدال، وهذه هي نفسها مبادىء حزب الأمة الذي تكوّن لاحقاً.

الجديد أيضاً عند هيكل في هذه الفترة، فترة دراسته الحقوق، احساسه بالرغبة في الكتابة في الصحف. فأخذ يكتب المقالات دون ان يرسلها الى الصحف، يكتبها متأثراً باسلوب الشيخ محمد عبده كما يذكر[٣]. وجاء يوم أرسل مقالة الى صحيفة المؤيد فلم تنشرها فعوّل على الاكتفاء بالكتابة لنفسه وهو يعلّق على هذه الحادثة فيقول انه كبر عليه ان يذهب الى صاحب المؤيد بنفسه بسبب ما جُبل عليه منذ نشأته من أنفة وحياء : «أنفة في أن يكون لغيري حكم عليّ وحياء من أطلب الى غيري شيئاً كائناً ما كان»[٤].

١- هيكل، مذكرات، ج١، ص ٢٧.

٢- نفسه.

٣- نفسه، ص ٢٩ .

٤- نفسه.

في باريس ١٩٠٩ - ١٩١٢:

يقول سالم محمود نجم الدين هيكل : « في سن العاشرة حضرت احتفالاً اقامته العائلة بكفر غنام توديعاً للشاب الاستاذ محمد حسين هيكل لمناسبة سفره الى باريس وسمعت والدي (أي عم محمد) يلقي خطاباً يودعه فيه ويقول: "سيكون لابن اخي هذا شأن عظيم وسيغدو وزيراً ."[١]

ابحر هيكل في ٧ يوليو ١٩٠٩ الى باريس لدراسة الحقوق في السوربون[٢]، ووصل الى باريس في ١٣ يوليو ١٩٠٩ عشية عيد الحرية الأمر الذي ترك في نفسه ابلغ الأثر لما رآه من ابتهاج الناس بحرية الأفراد وحرية الوطن بشكل لم يألفه في وطنه ، حسب قوله [٣]، واختار موضوع دراسته «دين مصر العام»[٤] باشراف استاذه « لارنود» وكان قد عدل عن موضوع اختاره سابقاً وهو موضوع تشريع العمل والعمال في مصر، بسبب قلة المراجع، وبنصيحة من استاذه لطفي السيد، خشية ان يقوده الى الخوض في قضايا الاشتراكية والاشتراكيين وهو موضوع لم يكن محبباً للسيّد وجماعته. ويذكر انه بدأ منذ انتقائه موضوعه بقراءة كل ما كتب عن مصر الحديثة منذ عهد محمد علي، بالفرنسية والانجليزية ، وجميع الوثائق الرسمية وكل ما يمكنه الاستفادة منه، ويبدو انه بذل جهداً كبيراً ودقة متناهية في عمله هذا، حسبما يصوره لنا في مذكراته ، وهذه صفة ستلازم كتاباته جميعها

١- السيد ، ص ١٦٢ .

٢- Smith , p . 41 .

٣- هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص ٣٩ .

٤- رسالة الدكتوراه طبعت بالفرنسية ويحاول ابنه ترجمتها الى العربية.

فيما بعد : "الحقيقة العلمية المجردة."[١]

وفي باريس كانت شهوره الأولى صعبة، خاصة انه لم يكن قد اتقن الفرنسية بعد، برغم وجود بعض الأصدقاء هناك مثل احمد لطفي السيد، ومصطفى عبد الرازق وبهي الدين بركات[٢] وعبد الحميد سعيد وحسن صبري[٣]، ومن الطبيعي، وهو طالب العلم في فرنسا ، ان يحصل ثقافة واسعة ويطلع على العديد من كتب الفكر والأدب الاوروبي الى جانب تردده الدائم على المسارح والمتاحف والحدائق والمواقع التاريخية. ومن الصعب الاحاطة بجميع ما قرأ في باريس لكن سنذكر بعضاً مما ورد عن قراءاته في الكتب التي تناولت حياته بالبحث. فقد بدأ مطالعاته باللغة الانجليزية فقرأ لـ "جون ستيوارت مل" وقرأ لـ"توماس هوبز" و"جون لوك" ، وكتاب «محمد » للكاتب الأميركي "واشنطون ارفنج"، وقرأ «البعث» لـ"تولستوي" ورواية "النبي الأبيض" لـ"هول كين" وكتاب "الأبطال" لـ"كارليل"[٤]، ويذكر انه كان يقرأ صحيفة التيمس قبل ان يقرأ الصحف الأخرى الفرنسية[٥]. وبعدما اتقن اللغة الفرنسية بدأ بقراءة اعترافات جان جاك روسو ، وبعض كتب "ارنست رينان" وقرأ كثيراً لـ"موليير" وحفظ قصيدة الفقراء لـ"هوجو" واكثر من أثر

١- هيكل، مذكرات، ج ١ ، ص ٥٢. ويعجب القارىء من موقف الكاتب الواضح والمستقيم في تأريخه عن حزب الوفد وسعد زغلول في مذكراته والمعروف انهما كانا خصمين له طوال حياته الصحفية والسياسية.

٢- Smith, p. 41 .

٣- وادي، ص ٣٣ .

٤- لم يذكر هيكل أنه قرأ هذه الكتب بالإنجليزية ، ولكن كان ذلك استنتاجاً من حسين فوزي النجار . انظر: الدكتور هيكل ، ص ص ٧٨ و ١٠٧ ؛ ووادي ، ص ٤٦ .

٥- النجار ، الدكتور هيكل ، ص ١٠٧ .

فيه وسحره حقاً هو روسو[١]. واعتبره اول ثلاثة كتاب في عصره : الاثنان الآخران هما "فولتير" و"مونتسكيو."[٢] واعجب هيكل اعجاباً شديداً بـ"أناتول فرانس" . وسنجد لهيكل فيما بعد ست مقالات عنه ينشرها في صحيفة السياسة بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٤ . ويجد هيكل عند "اناتول فرانس" ما كان قد رسخ في اعتقاده وآمن به وهو حرية الرأي وحرية التعبير . ويروي هيكل عن حفل أقامه الطلاب في باريس دعوا إليه اناتول فرانس فيقول: « لقد ألقى خطاباً لا تزال عباراته ترن في أذني الى اليوم . تحدث عن حرية الرأي وحرية التعبير عنه لمناسبة كانت بباريس بل كانت فرنسا كلها تهتز لها اذ ذاك ايما اهتزاز ، تلك ان الحكومة الفرنسية سحبت نيشان اللجيون دونير من الكاتب الفرنسي فيكتور مارجريت لأنه نشر قصة «الغلامة» فكان تعليق اناتول فرانس على هذا التصرف ان قال : « ان كل قانون يحد من حرية الرأي، وحرية التعبير عنه أياً كان هذا الرأي ، قانون أثيم» كم صفقت وصفق رفاقي الطلبة لهذه العبارة القوية التي صادفت موضع الإيمان في نفسي والتي بقيت لذلك منقوشة في ذاكرتي ، فأنا أرويها اليوم بعد أربعين سنة... وكأن اناتول فرانس لا يزال امامي يقولها بصوته المتهدج .ولم تغير الحوادث من إيماني بحرية الرأي ومقتي لكل قانون يحد منها. فأنا أمقت العنف والاعتداء والبطش والجريمة وارى ان ميدان الرأي الحر الذي

١- بعد عودته الى مصر سيكتب كتاباً عن روسو في جزأين . وقد لفت نظره جمال اسلوب روسو فوصفه كالتالي : « يشعر القارىء امام جمال اسلوبه وترتيبه وتوازنه بهزة سرور غريبة فكان نفسه تجري مع موجات موسيقى الكاتب ويحس من لحظة لأخرى بحاجة تدفعه لأن يقرأ بصوت عالٍ حتى تتلذذ أذنه بالنغمات المرتلة التي تسمع » . (انظر النجار ، الدكتور هيكل ، ص ١٠٧ .)

٢- نفسه .

يناضل من نفسه هو وحده الميدان الانساني الذي يكفل للأمم التقدم والرخاء والحرية»[1].

وفي فرنسا والى جانب رسالة الدكتوراه ، حقق النشاطات الفكرية التالية:

أولاً: مراسلة جريدة الجريدة : نشر في الجريدة ، وهو في باريس بين ٣ مايو ١٩٠٨ و ٢٩ ابريل ١٩١٢ حوالي ثلاث وستين مقالة متنوعة ، يعالج في عدد كبير منها وضع المرأة المصرية وخاصة فيما يتعلق بالحجاب. ففي عام ١٩٠٨ كتب مقالتي : "حجاب المرأة" (٩ سبتمبر) و"المرأة والحجاب" (٢٤ اكتوبر) ثم عاد في سنة ١٩١٠ ليكتب سلسلة من عشر مقالات بدأها في ١٣ أغسطس تحمل عنوان "قضية المرأة -الحجاب " . كتب بعض المقالات السياسية ، منها سلسلة من خمس مقالات تحمل عنوان "وجهتنا في السياسة " تتضح فيها نزعته نحو تقديس الحرية المطلقة والقومية المصرية .[2] كما كتب أول محاولاته في القصة فأرسل للجريدة "انتقام من الجمود " و"في انتظار الفرج ".[3] ونجده في معظم

١- هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص ٤٢٦ هذا التقديس لحرية الرأي والاعتقاد عند هيكل سيسوقه للدفاع عن كتابي عبد الرازق وطه حسين اللذين قوبلا بهجوم عنيف من المحافظين ، والمؤكد ان هيكل انبرى بجرأة للرد على هؤلاء المحافظين ليس من منطلق الصداقة القائمة بينه وبين عبد الرازق وحسين ، بل من منطلق الدفاع عن حرية الرأي في مصر .

٢- انظر اعداد ٢٨ اكتوبر ١٩١١ - ٤ نوفمبر ١٩١١ .

٣- في ١٦ و ٢٧ ابريل ١٩١١.

مراسلاته يقارن دوماً بين مصر واوروبا.[١] وقد مثل الصحيفة في المؤتمر المصري الذي دعا اليه الحزب الوطني في بروكسل : فكتب للجريدة ثلاث مقالات بعنوان "في بروكسل: المؤتمر المصري".[٢] ولم يبد فيها أي أثر لموقف معاد او متطرف للحزب الوطني ويفسر ذلك هيكل بقوله : "وأرى المصريين خارج بلادهم لا أحزاب بينهم ، قدروا هذا الموقف الذي رأيته أنا طبيعياً، ورآه كثيرون سمواً بالخصومة عن مواقف لا تحتمل الخصومة . والواقع انني منذ ذلك العهد ، عهد الشباب الأول ، كنت ارى ان الخلاف في الرأي ليس معناه الخصومة." [٣] ولم تكن هذه المراسلات عديدة ، كما يذكر ، لأنه شغل عنها بكتابة مذكراته اليومية عما يشاهد في «هذه الحياة الجديدة» [٤].

ثانياً : كتابة يومياته: بدأها منذ عام ١٩٠٩ ، واراد ان يسجل فيها ما يجول بخاطره من مسائل مختلفة طوال وجوده في فرنسا. ويرجح طه عمران وادي الذي قرأ المخطوطة ان يكون حياء الكاتب من الحديث عن نفسه منعه من نشره[٥] . اما ما يتعلق بمسائل ذاتية وامور شخصية فإن المخطوطة لا تحوي على شيء منها يذكر باستثناء إشارة الى لقائه مع فتاة تدعى "مس بياتركس" كانت تنزل معه بالفندق اتصل بها

١- انظر مثلاً مقالات : «المجتمع المصري» (ع ٧٥٤ / ٣١ أغسطس ١٩٠٩) و«شهوري الأولى في باريس» (اعداد ٨٤١ - ٨٥٥ - ٨٥٦ في ١٤ ديسمبر و ٤ و ٥ يناير ١٩٠٩).

٢- اعداد : ١٠٨٨ و ١٠٨٩ و ١٠٩٠ في ٩ و ١٠ و ١١ اكتوبر ١٩١٠ .

٣- هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص ٤٣ .

٤- نفسه ، ص ٤٢ . ويومياته هذه لم تنشر وما تزال مخطوطة عند ولده احمد هيكل .

٥- وادي ، ص ٣٤ .

وقضى معها «ساعـات سعيدة » ويقول انها كانت تحدثه عن مصر وتريد منه ان يكتب تاريخ امتـه في قـالب روائي ثم تطلب ان يقـدم باسمها احدى هذه الروايات فيضيف هيكل في يومياته: « نعم بياتركس من اجل هـذا الاهداء الـذي تطلبين سأكتب تاريخ مصر مهما كلفني وليكون ذكرى لاسبوعين من أيام الحياة »[1] لماذا اذاً لم ينشر يومياته هذه ولماذا لم تنشر من بعده؟ .

يعتقد حسين فوزي النجار، كما يعتقد وادي ، ان الذي منعه من وضع اسمه على رواية زينب ، عندما نشرها للمرة الأولى، هو الذي منعه من نشر هذه اليوميات . فهو يقول : « فما زلنا في الشرق نخشى ان يجني بعض ما يتصل بحياتنا الخاصة على حياتنا العامة »[2] . لكننا نستبعد ان تكون مسائله الذاتية هي الدافع وراء عدم نشر الكتاب. ذلك لأن الكتاب ، كما ذكرنا لم يشتمل على شيء خاص حول هذه المسائل ، بل نعتقد ان وجود بعض الملاحظات الجريئة حول قضايا فكرية متعلقة بأمور دينية منعه من نشر اليوميات . فإن هيكلاً يعالج في يومياته مسألة الدين ومدى تأثيره على مسيرة التقدم . ومما توصل اليه ان الأديان ليست وحياً بل ظواهر إجتماعية ضمن ظروف تاريخية. فالأنبياء كانوا نتاج مجتمعهم . ووحيهم هو ذاتي بالرغم من اعتقادهم المخلص بأن الله اصطفاهم من دون البشر.[3]

ثالثاً : انضمامه الى «الجمعية المصرية» ، والى «الجمعية الإسلامية». كان هيكل عضواً بالجمعيتين ، وكان أعضاء هاتين

١- وادي ، ص ٣٤ .

٢- السيد ، ص ٤٥ .

٣- Smith , p . 41 وقد أخذ هذه الفكرة من يوميات باريس ، ١٣ اغسطس ١٩١٣ .

وانظر أيضاً وادي ، ص ص ١٦ – ١٧ .

الجمعيتين من الشباب المصريين الذين يتعلمون بباريس إما مبعوثين من الجامعة ، او على نفقتهم الخاصة ، مثل محمود عزمي ومنصور فهمي وسيد كامل ومحمد ولي الدين ومصطفى عبد الرازق وبهي الدين بركات.[١] وقد كان محظوراً على هؤلاء الشبان الاشتغال بالسياسة ، خاصة أولئك المبعوثين من قبل الجامعة ، فكانوا يجتمعون لتبادل الآراء والوقوف على ما يجري في مصر في النواحي السياسية والفكرية دون اتخاذ أي قرار بشأنه.[٢]

رابعاً : كتابته فصولاً من رواية زينب : أخذت كتابة زينب من وقته قرابة العام : من ابريل ١٩١٠ حتى مارس ١٩١١ . لكنه لم ينشرها حتى عام ١٩١٤ بعد عودته الى مصر بتوقيع « مصري فلاح » . وقد اجمع النقاد على انها اول رواية مصرية من حيث المقومات الفنية للرواية ، واول رواية مصرية اخرجت للسينما العربية . ولقد تلقفها الدراسون فتناولوا بحثها باسهاب وتضاربت آراؤهم حولها فمنهم من رأى فيها فكراً سياسيا[٣] ، ومنهم من وجد فيها بذور القصة الواقعية[٤]، ومنهم من رآها تتسم بالرومانسية[٥] . وسنتطرق للكلام على قصة زينب في حديثنا عن الأدب القومي لاحقاً .

١- النجار ، الدكتور هيكل ، ص ٦٠ .

٢- هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص ٤٠ ؛ وانظر السيد في مقاله لموسى صبري يبين فيها كيف استطاع هيكل ان يحصل من الجمعية المصرية قراراً برفض مد امتياز شركة القناة (ص ٢٤٦).

٣- النجار ، الدكتور هيكل ، ص ١٢٠ .

٤- محمد حسن عبد الله ، الواقعية في الرواية العربية ، ص ١٤٥ وسنشير اليه فيما بعد باسم : عبد الله .

٥- وادي ، ص ١٢٤ .

في مصر ثانية :

عام ١٩١٢ عاد محمد حسين هيكل الى مصر بعد أن نال الدكتوراه في الحقوق ، وكان اعتزازه بها كبيراً لأنه أول من حصل على هذه الدرجة من المصريين اقرانه [1] . ونلاحظ ان مقالاته في الجريدة منذ يوليو ١٩١٢ بدأت تظهر في معظمها بتوقيع « الدكتور محمد حسين هيكل » . أما حياته العملية في مصر ، فنلاحظ انها تنقسم بشكل عام الى ثلاث مراحل : مرحلة هيكل المحامي ، وهيكل الصحفي ، وهيكل السياسي.

وعلى الرغم من تداخل هذه المراحل – لأن هيكلاً عندما كان محامياً كان أيضاً صحافياً – هناك سنوات فاصلة اعتمدناها لفصل مراحل حياته العملية . فقد مارس المحاماة حتى عام ١٩٢٢ حين اضطر ان يتخلى عنها . واشتغل بالصحافة حتى عام ١٩٣٧ حين تخلى عنها نهائياً عندما عين وزيراً واتجه نحو السياسة .

اولاً- هيكل المحامي : ١٩١٢ - ١٩٢٢ .

بدأ هيكل عمله بالمحاماة في ديسمبر ١٩١٢ في المنصورة حيث افتتح له مكتباً وانضم الى نقابة المحامين بالمنصورة [2] . ويبدو ان احمد لطفي السيد عرفه على كثير من المحامين ، لكن هيكلاً يتحدث باعجاب خاص عن ابراهيم بك الهلباوي [3] . وظل قريباً طوال هذه الفترة من احمد لطفي السيد ودائرة الجريدة وكتب عدة مقالات فيها حتى عام ١٩١٥ حين اضطرت الى التوقف عن الصدور ، والمقالات التي كتبها في الصحيفة ، نجد بعضها يدور حول قضايا قانونية فنجد مثلاً المقالات

١- النجار ، الدكتور هيكل ، ص ١٠٠ .

٢- هيكل ، مذكرات ، ج١ ص ٥٤ .

٣- نفسه .

التي تحمل العناوين التالية : « معاقبة الجرم في المحاكم المصرية »[١] (وقد وقعه هيكل بـ «هيكل المحامي ») و «وجوب اعادة النظر في احكام الاعدام»[٢] ، و «قانون شركات التعاون الزراعية »[٣] ولما سرت الشائعات بامكان توقف «الجريدة» ، رأى هيكل وجماعة من أصدقائه ، من بينهم مصطفى عبد الرازق وطه حسين ومنصور فهمي وعبد الحميد حمدي – وكانوا جميعاً من كتاب الجريدة الشبان ، بل كان عبد الحميد حمدي سكرتيراً للتحرير فيها – اصدار جريدة «السفور» لتواصل مسيرة "الجريدة". وظلّوا يمدونها بمقالاتهم خلال سنتي ١٩١٥ – ١٩١٨ ؛ غير انهم لم يتطرقوا الى المقالات السياسية بسبب الرقابة التي فرضت على الصحف اثناء الحرب ، بل اختصرت المقالات على الأدب والاجتماع[٤] . ولعل اهم ما كتبه هيكل في السفور سلسلة مقالات عن قاسم أمين ، بين فيها دوره كمصلح اجتماعي وداعية لنهضة حديثة لا تقوم على أسس دينية ؛ وبيّن أن قاسم أمين كان من السبّاقين الى هذه الدعوة لكنه لم يقطف ثمارها[٥] . ومن المقالات المميزة التي نشرت في السفور سلسلة مقالات امتدت طوال ستة أسابيع واتخذت شكل جدال ونقاش بين طه حسين وهيكل ؛ لكن باتفاق مسبق على أن يكتب طه حسين مقالاً يؤيد فيه النظرية القائلة بأن الحروب هي التي تدفع الانسانية الى الأمام ويكتب هيكل رداً على هذا الموضوع . لكن الحوار المتفق عليه ، الذي

١- الجريدة ، ع١٨١٨ – ٥ مارس ١٩١٣ .

٢- نفسه ، ع ٢١٤٤ – ٢٩ مارس ١٩١٤ .

٣- نفسه ، ع ٢١١٦ – ٢٣ فبراير ١٩١٤.

٤- Smith . p . 53 .

٥- نشرت هذه المقالات في كتاب "في اوقات الفراغ" . وكانت قد ظهرت في السفور في ٢٥ فبراير و ٣ مارس و ١٤ ابريل و ١٩ مايو عام ١٩١٦ .

كانت الغاية منه حث الشباب على التفكير ومتابعة ما يكتب كما يقول هيكل، ادّى الى شيء من العنف بين الكاتبين وان لم يغيــر من صداقتهما.[١]

وفي هذه الفترة ، وبالتحديد في عام ١٩١٧ ، يكتب هيكل عدة مقالات عن الجبرية والقدرية في المقتطف[٢] يرى فيها ان على مصر الانتقال من المرحلة الدينية الى المرحلة العلمية كما فعلت أوروبا . وكي يتحقق ذلك يجب ان يتواجد فيها افراد عظماء يقودون مجتمعهم. وتلح عليه فكرة وجود العظيم أو المرشد ، متأثراً بكتاب الأبطال لكارليل ، فنراه يبدأ كتاباً عن جان جاك روسو بجزئين صدرا عامي ١٩٢١ و ١٩٢٣.

وتظهر له مقالات في الاهرام عام ١٩١٩ ، يتناول فيها الأحداث السياسية التي كانت تمر بها البلاد وتتمحور حول الديمقراطية وحقّ مصر في الحرية والسيادة[٣] .

هذا بالنسبة لنشاطه الفكري . اما سياسياً ، وكان الوفد المصري في ذاك الوقت قد بدأ بالمفاوضة مع الجهات الانجليزية ، فقد الف هيكل مع زملاء له هم : مصطفى عبد الرازق ومنصور فهمي ومحمود عزمي وعزيز ميرهم ، «الحزب الديمقراطي» «لأداء واجبهم القومي » على حد قولهم . كانت رئاسة الحزب دورية ، وكان عزيز ميرهم سكرتيراً للحزب[٤] . ولم يثر هذا الحزب عند إعلانه ، عام ١٩١٩،

١- هيكل ، مذكرات ، ج ١ ، ص ص ٧٥ و ٧٦ .

٢- وقد نشرت في « كتاب الإيمان والمعرفة والفلسفة » ص ص ١١٥ – ٦٦.

٣- السيّد ، من مقالة بقلم محمد عبد الله عنان ، ص ١٢٤ . ومقالة أخرى بقلم سامي الكيالي ص ٢١٩.

٤- هيكل ، مذكرات ، ج ١ ، ص ٨٠ .

انتباه احد حتى بدأ أعضاؤه ينشرون أفكاره على الناس ، مما جعل البعض يصفه بأنه لم يكن حزباً بالمعنى الدارج وانما كان أعضاؤه «جماعة من الأصدقاء جمعت بينهم الثقافة والمنبت الاجتماعي المشترك[١]» إذ معظمهم من محرري صحيفة السفور . وحاول الحزب ان يتخذ موقفاً من ثورة ١٩١٩ وما استتبعت من أحداث ، فكان من مقرراته الدعوة الى مقاطعة لجنة «ملنر» التي جاءت الى مصر . ولم يعمر هذا الحزب طويلاً فقد انضم بعض أفراده الى سعد وانضم الآخرون الى جانب عدلي بعد انقسام الوفد على نفسه[٢] . الجدير بالإشارة أن هيكلاً في معرض حديثه عن الحزب في مذكراته يذكر انه كان يختلف دوماً مع عزيز ميرهم لأن الأخير كان اشتراكياً متطرفاً بينما كان هيكل يؤمن بمبدأ الحرية الفردية[٣] . واعترافه هذا يدحض استنتاجات بعض الكتاب الذين رأوا في هيكل مناصراً للاشتراكية وداعية لالغاء الفروق الطبقية ، معتمدين في استنتاجاتهم على مقاطع وردت في «زينب» تصف شقاء الفلاحين وسوء معيشتهم إزاء طمع صاحب الأرض واستغلاله[٤] ؛ وأيضاً على مقاطع من كتاب روسو - عندما يشيد هيكل بفكرة روسو القائلة بأن الملكية الخاصة والترف والامعان في الملذات هي سبب كل التعاسات التي تقع على رؤوس ملايين الفقراء ، والداعية الى إحلال الجمهورية الاشتراكية القائمة على أساس التعاقد الحر بين أفراد

١- النجار ، الدكتور هيكل ، ص ١٦٩.

٢- نفسه .

٣- هيكل ، مذكرات ، ج ١ ، ص ٨٠ .

٤- انظر Smith, p 56 الذي يشير الى أن Johansen هو من الذين وقعوا في هذا الاعتقاد الخاطيء .

الاجتمـــاع[١] .

ثانياً - هيكل الصحفي : ١٩٢٢ - ١٩٣٦

رأينا سابقاً أن هيكلاً أثناء اشتغاله بالمحاماة - أو بالأحرى قبل ذلك بسنوات[٢] - كتب في عدة صحف ، منها الجريدة ، والسفور ، والمقتطف والأهرام . وانما أردنا اعتبار سنة ١٩٢٢ فاتحة حياته الصحفية الحرفيّة لأنه فيها انتدب ليكون رئيس تحرير صحيفة حزبيّة وهي صحيفة السياسة الناطقة بلسان حزب الاحرار الدستوريين، وقد اشترط رجال الحزب[٣] على هيكل اذ ذاك ان يمتنع عن المحاماة ، فقبل هيكل الشروط وانقطع للصحافة انقطاعاً تاماً .

وكان حزب الأحرار الدستوريين قد تشكل من مجموعة انسلخت عن الوفد اثناء مفاوضاته مع الانجليز ، وأيدت عدلي يكن في مواقفه وآرائه ضد سعد زغلول . وانضمت اليها اللجنة التي عينت لتضع مشروعاً للدستور المصري[٤] . وكان هيكل من ضمن هيئة تألفت

١- انظر:هيكل ، جان جاك روسو ، مقدمة،ص ص ١٠ و ١١ ، الذي سنشير اليه فيما بعد باسم : هيكل ، روسو .

٢- اول مقالة صحفية له ظهرت في الجريدة عام ١٩٠٧ .

٣- منهم عبد العزيز فهمي ولطفي السيد ومحمد باشا محمود . وبدأ الخلاف بين «السعديين» و «العدليين» حول مشروع ملنر : ايصلح او لا يصلح لتنظيم العلاقات بين مصر وانجلترا . انظر للتفاصيل: هيكل ، مذكرات ، ج ١ ، ص ص ١١٢ و ١٧.

٤- عينت هذه اللجنة برئاسة حسين رشدي اثر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذي ألغت بموجبه انجلترا الحماية على مصر واعترفت بها دولة مستقلة مع الاحتفاظ بأربع مسائل لمفاوضات مقبلة وهي : الدفاع عن مصر وحماية الاجانب وحماية الاقليات والسودان . (انظر للتفاصيل : هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص ١٢٩ - ١٣٠) .

من رجال القانون والفقه لتقوم بأعمال الأمانة العامة للجنة الدستور[١]. كما دُعي لحضور اجتماعات مؤسسي الحزب التي كانت تدور في منزل عدلي لمناقشة اعمال الحزب[٢] ، ويبدو انه كان للطفي السيد يد في ادخال هيكل الى دائرة المجموعة التي تكون منها الحزب ، وهو اول من زفّ الخبر لهيكل بقوله له : «ستتولى رياسة التحرير لجريدة الحزب الجديد الذي يؤلفه عدلي باشا واخوانه»[٣] . وسنقف عند تعريف هذه المجموعة التي تكوّن منها الحزب . فهي تعتبر بالاساس "صفوة" من المصريين . وتعرّف الصفوة ، بالنسبة للمجتمع المصري خلال الربع الاول من القرن العشرين ، "بأنها طبقة الأعيان من كبار ملاك الأراضي من أصول زراعية أو من أصول بدوية ، تشتغل فئات منها بشؤون المال او الصناعة او التجارة . وتضم هذه الطبقة المصريين الأقحاح الى جانب المتمصرين ، الى جانب بقايا من العناصر التركية القديمة ، كما تضم هذه الصفوة جناحاً من المثقفين وكبار موظفي الدولة واصحاب المهن الحرة وغيرها ، وهذا الجناح يمثل في معظمه – في حالة حزب الاحرار – ابناء طبقة الأعيان ."[٤] فالحزب إذاً ، باعتبار تركيبه ، وريث حزب الأمة السابق الذي تكوّن من الأعيان وفئة من الشباب المثقف ، وهو أيضاً امتداد له من حيث مبادئه الأساسية والاجتماعية والفكرية . اما مبادىء الحزب السياسية فتتلخص بعمله على استكمال استقلال مصر واصدار الدستور الذي وضعت اللجنة مشروعه ، وهذان الأمران كانت

١- هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص ص ١٢٩ – ٣٠ .

٢- نفسه ص ١٤٤.

٣- نفسه .

٤- الشلق ، الأحرار الدستوريون، ص ص ١١٦ – ١٧ وسنعود إليه فيما بعد باسم الشلق ، الأحرار.

تنادي بهما «الجريدة» طوال صدورها . اما من حيث مبادئه الاقتصادية والاجتماعية ففي مقدمتها احترام كامل للحرية الفردية في الرأي وفي التجارة . ويهمنا تعليق هيكل على سياسة الحزب هذه اذ يقول : «رأيت فيه (اي خطاب الحزب) سياسة تتفق في جملتها وفي تفصيلها مع آرائي. فهو يقدس الحرية الفردية وانا اقدسها . وهو يكبر حرية الرأي وهذه الحرية تحل من نفسي محل الإيمان الذي لا يتزعزع . وهو على نزعته الفردية يدعو الى العدالة الاجتماعية كما صورتها في مقدمة كتابي عن «جان جاك روسو» الذي صدر قبل ذلك بعام واشهر . وهو يحبذ الوحدة القومية وقد كنت من دعاتها يوم كان الخلاف بين سعد وعدلي على اشده . وهو يؤيد حرية التجارة ما لم تحتج صناعة ناشئة الى الحماية حتى تقف على قدميها ؛ وأنا من هذا الرأي. لي اذن اكبر الرجاء ، يوم تظهر «السياسة» ان ابشر بهذه المبادىء في إيمان وقوة يحملان كل متردد على اعتناقها والاقتناع بها»[١] .

وظهرت «السياسة» يومية في عام ١٩٢٢[٢] ، والحقت بها بعد اربع سنوات ، عام ١٩٢٦ ، السياسة الأسبوعية التي ظلت تصدر برئاسة محمد حسين هيكل حتى عام ١٩٣٧ .

وهناك عدة أمور تميزت بها السياسة (اليومية والأسبوعية) عن غيرها من الصحف والمجلات منها :

١ - الجدّة في الموضوعات : فصحيفة السياسة اليومية خصصت صفحات للأدب والفكر والثقافة ولم تكن يوم ذاك الصحافة

١- الشلق ، الاحرار ، ص ص ١٤٦ - ٤٧ .

٢- كان حافظ عفيفي صاحب الامتياز ، وتأسست شركة مساهمة للصحيفة تتألف من ١٥٠٠ عضو برياسة مدحت يكن وكان اذ ذاك رئيساً لبنك مصر . انظر : الشلق ، الاحرار ، ص ٥٥ .

السياسية تعنى بمثل هذه الشؤون .ومن أهم ما كتب فيها مقالات طه حسين التي جمعت فيما بعد في كتاب «حديث الاربعاء» ، لأنه كان ، في كل يوم أربعاء ، ينشر مقالة أدبية في السياسة . ومنذ عام ١٩٢٦ تخصصت السياسة الأسبوعية في المجالات الفكرية والثقافية ، فشُهد لها بالابداع والجدية . وفي هذا المجال يعلق محمد شفيق غربال بقوله : "ليس معنى ذلك ان الصحف قبل السياسة لم تشتغل بالشؤون العامة . انما كان اشتغال الصحف القديمة يجري بأسلوب متسم بقلة التمييز بين العام والخاص ، متسم بالنقل عن الكتب ، بالإفراط في الوعظ والارشاد." [١] ويتهكم مصطفى عبد الرازق على موضوعات تلك الصحف القديمة بقوله : « كأن ربك لم يخلق صحفنا الاّ للدعوات الصالحات فهي تدعو للمواليد بطول العمر ، وللميتين بالرحمة ، وللمسافرين لأوروبا بالسلامة ، وللحجاج بالحج المبرور ، وللكتب بالرواج والانتشار."[٢]

٢ - السير على نهج جريدة «الجريدة» : تعتبر السياسة امتداداً للجريدة كما يعتبر هيكل تلميذاً لأحمد لطفي السيد . وبالرغم من ان الاوضاع السياسية والاجتماعية كانت قد تغيرت كثيراً بين زمن الجريدة التي توقفت عن الصدور اثر اندلاع الحرب الكبرى ، وبين زمن السياسة، إلاّ ان الهموم الأساسية الاولى بقيت هي هي : الإصلاح السياسي ، والاصلاح الاجتماعي ، والتحرر الفكري ، والاخذ عن الحضارة الغربية : مفاهيمها وثقافتها وعلومها . . . وكما اعتبرت الجريدة مدرسة فكرية كذلك اعتبرت السياسة مدرسة ادبية فكرية جمعت كبار الكتاب والمفكرين منهم طه حسين ومصطفى عبد الرازق ومحمود

١- السيد ، من مقالة بقلم محمد شفيق غربال ص ١٨٩ .

٢- نفسه ، من مقالة لمحمد عبد الله عنان ص ١٢٣. ومحمد عبد الله عنان كان سكرتير تحرير جريدة السياسة وزامل ايضاً هيكل مدة عشرة أعوام .

عزمي وسيد كامل وعبد العزيز البشري وابراهيم المازني وغيرهم[١].

٣- تشجيع الكتاب الناشئين : رحبت السياسة بالجيل الناشىء وشجعته على الكتابة وكان أكثرهم ممن تثقف في أوروبا. وهذا ما ميزها، على حد قول حسين فوزي النجار ، عن باقي الصحف كاللواء والمؤيد اللتين لم تكونا ترحبان بالكتابة الأدبية الا إذا كانت بأقلام الشعراء والكتاب المعروفين مثل شوقي وحافظ ومطران والمنفلوطي وأمثالهم[٢] . وكما رحبت بالأقلام الناشئة ، روت أيضاً ظمأ الشباب المتعطش الى المعرفة والثقافة خاصة وان الجامعة الحكومية كانت لم تزل في مهدها . ويذكر محمود تيمور في هذا المجال ان هيكلاً نهض بجريدة السياسة «على نحو غير مسبوق ورسم للصحافة اليومية في مصر مثالاً يضارع الأمثلة الكريمة السيارة في العصر الحديث»[٣].

٤- الانتشار الواسع : انتشرت السياسة باصداريها انتشاراً واسعاً في مصر والشرق العربي كله منذ ظهورها[٤]. وكانت السياسة الاسبوعية ، بشكل خاص ، في البلاد العربية اكثر انتشاراً من المجلات والصحف المحلية في دمشق وحلب وبيروت والقدس[٥] .

وكان لهذا الانتشار جانب ايجابي في الصحافة المصرية ككل. فقد جعل الصحف المنافسة للسياسة تضاعف عدد صفحاتها ومحرريها لتكون على قدم المساواة مع السياسة. كما اخذت هذه الصحف تنشىء شبكة للتلغرافات الخاصة من الخارج والمكاتب الخاصة ، على غرار ما فعلت السياسة ؛ فقفزت بذلك الصحافة المصرية قفزة قوية في تاريخ

١- السيد ، ص ١٢٧.

٢- النجار ، الدكتور هيكل ، ص ٢٠٢ .

٣- السيد ، من مقالة بقلم محمود تيمور ، ص ص ١٠٣ و ١٠٤ .

٤- هيكل ، مذكرات ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

٥- السيد ، من مقالة بقلم محمد عبد الله عنان ، ص ١٢٨ .

الصحافــة المصريـــة[١] .

وكما كان هيكل أميناً كل الأمانة لحزب الاحرار الدستوريين متمسكاً بمبادئه اشد التمسك[٢] ، كذلك انقطع انقطاعاً تاماً للسياسة اليومية ثم للسياسة الأسبوعية ، فكان يظهر له مقالة يومية في السياسة تحت عنوان «حديث اليوم» ، وفي السياسة الأسبوعية قلما تجد عدداً لا يحمل موضوعاً رئيسياً لهيكل - ولم يقبل هيكل عروض بعض الأشخاص للعمل الصحفي بعدما ارتبط بصحيفة السياسة . فقد عرض عليه جبرائيل تقلا صاحب جريدة الأهرام ان يكون رئيساً لتحرير الأهرام فرفض هيكل ذلك معتذراً بأنه ارتبط مع اصحاب السياسة قبلاً [٣] . وحاول اسماعيل صدقي أن يغريه براتب مضاعف ليضمه اليه يوم أنشأ حزب الاتحاد واصدر جريدة «الشعب» الناطقة بلسان الحزب . فاعتذر هيكل خاصة ان صدقي كان قد عطل الدستور الذي عمل هيكل في لجنته وفي الدفاع عنه طوال عمره ، وظل هيكل يقاوم صدقي من منبر صحافة السياسة حتى أنذر صدقي الجريدة مرتين ثم عطلها[٤] . ويذكر هيكل في هذا الصدد :"حدثني أخي الأصغر يوماً وسألني علام اعتمد في مقاومة صدقي باشا وتحته من جاه الحكم وسلطانه ما لا سبيل الى التغلب عليه ، وكان جوابي : ان كل عدد من جريدة السياسة يساوي عشرات الجنود الذي يعتمد عليهم صدقي باشا . وانا لذلك مطمئن الى

١- السيد ، من مقالة بقلم فكري أباظة ص ٥٤ ويذكر أن جريد البلاغ - جريدة حزب الوفد المنافس - التي صدرت سنة ١٩٢٣ ، اصدرت، اقتداء بالسياسة - ملحقاً اسبوعياً للادب والفكر هو البلاغ الاسبوعي ، وكان صدوره ايضاً سنة ١٩٢٦ .

٢- انظر: هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص ١٤٧ ؛ والنجار ، الدكتور هيكل ، ص ١٩٧ .

٣- نفسه ..

٤- هيكل ، مذكرات ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

أنني منتصر في المعركة آخر الأمر لا محالة»[1].

وعمل كثير من كتاب السياسة في صحف اخرى بعد أن تركوا الجريدة ، يذكر حسين النجار منهم ابراهيم عبد القادر المازني الذي كتب في البلاغ ومحمود عزمي الذي جرّب قلمه في صحف عديدة ، وطه حسين الذي تولى تحرير جريدة الشعب لسان حزب الاتحاد [حزب السراي] الاّ هيكلاً فقد ظلّ متمسكاً بحزبه وصحيفته . فلمّا عطّل صدقي السياسة اتفق هيكل مع جاد بطرس جاد ، صاحب جريدة الفلاح المصري، لاصدار جريدته من مطبعة السياسة وبقلم تحريرها وكان المحررون يوقعون المقالات بأسمائهم ، حتى امر صدقي بتعطيل جريدة الفلاح المصري وتعطيل كل جريدة تحل محل السياسة.[2] لم يستسلم هيكل هذه المرة أيضاً بل أصدر مع زميله ابراهيم عبد القادر المازني ومحمد عبد الله عنان كتاباً عن الانقلاب الدستوري الذي احدثه صدقي . واختاروا له عنوان «السياسة المصرية والانقلاب الدستوري» - وكان محمود باشا عبد الرازق قد أشار عليه أن يجعل كلمة «السياسة» في عنوانه - غير ان نسخ الكتاب العشرة الآلاف صودرت قبل توزيعها ولم يفرج عنها الا بعد أكثر من شهر[3] .

وفي نهاية الحديث عن هيكل الصحفي ، نود ذكر رأيين عن مذهب هيكل في الصحافة جاءا من تلميذين وزميلين له : الأول لحسين فوزي النجار الذي يقول عن هيكل : «بأنه الوحيد في جيله بل وفي الجيل الذي تلا جيله الذي اتخذ من الصحافة منبراً لما يرى ويعتقد ، لا ينشد الثراء ولا سعة في الرزق .فقد مرّت على السياسة ، لسان حال

١- هيكل ، مذكرات ، جزء ١ ، ص ٣٢٦ .

٢- نفسه .

٣- نفسه ، ص ٣٢٧ ؛ النجار ، الدكتور هيكل ، ص ٢٧٧ .

الدستوريين ، اوقات عصيبة لا يجد فيها المحررون رواتبهم فتغلق ابوابها ، وتتوقف عن الصدور ويبقى هيكل وحده يصدر السياسة الاسبوعية مع بعض تلاميذه ، وكنت منهم نكتب فيها تطوعاً ونُسعد بأن تنشر لنا ما نكتب . فلم تكن الصحافة في حياته مهنة عيش . . . بل كانت معه وسيلة للتعبير عن رأي يراه.»[١]

الرأي الثاني هو لمحمد عبد الله عنان ، الذي كان سكرتير تحرير السياسة اليومية ، يقول فيه : كان الدكتور هيكل يحضر الى الجريدة مبكراً في نحو الساعة السادسة او السابعة وكان مركز الجريدة في شارع المبتديان وكان يخوض من الساعة السابعة صباحاً حتى الساعة العاشرة في أحاديث مختلفة مع زملائه في كل ما يكتبه كل منهم وما يعتزم ان يكتبه ، ومع اعضاء مجلس ادارة الحزب . وفي حوالي الساعة العاشرة او الحادية عشرة يكون معظم الزملاء قد انصرفوا معاً وبقي الدكتور هيكل بمفرده ويكون قد كوّن رأيه وفكرته . ولا تمضي نصف الساعة او ثلاثة ارباع الساعة حتى يكون قد انتهى من كتابة مقالته ثم يدفع بها الى رئيس العمال. وكان حسن الحظ لأن أحداً لم يكن يستطع ان يقرأ خط هيكل سوى هذا الرئيس المدعو المعلم سعد.»[٢] ويضيف عنان ان هيكلاً كان يرى ان الصحفي يجب ان يؤدي في الجريدة كل ما يمكن ان يؤديه فلا فرق في ذلك بين رئيس تحرير وبين محرر . ولا حرج ان يقوم رئيس التحرير بكتابة مقال ولا حرج ان يقوم

١- النجار ، الدكتور هيكل ، ص ٦٤ . وفي مقالة لمنيرة ثابت في كتاب السيد، تقول ان مرتبه في السياسة كان ١٢٠٠ جنيهاً سنوياً ولكنه لم يكن يقبض منه سوى مصاريف السجاير والركايب وكان آخر من يقبض مرتبه وقد اعتمد على مؤلفاته ليعيش (ص ٢٩٢) .

٢- السيد ، من مقالة بقلم محمد عبد الله عنان ، ص ١٢٧ .

بترجمـــة إعـــلان»[١].

كانت السياسة الاسبوعية آخر ما اتصل بحياة هيكل الصحافية . فقد اختير وزيرا للدولة عام ١٩٣٧ وهو رئيس تحرير السياسة الاسبوعية - وكانت السياسة اليومية قد احتجبت قبل ذلك بسنة . وكما ترك المحاماة الى الصحافة ، يترك الآن هيكل الصحافة الى السياسة ؛ وعن ذلك يقول : كما انتقلت مصر من عهد الى عهد (من عهد فؤاد الى عهد فاروق) انتقلت انا كذلك من عهد الى عهد . وقد تركت ميدان الصحافة الى ميدان التأليف ، اذ نشرت كتابي : «حياة محمد» واعددت العدة لأنشر «في منزل الوحي» ، وقد سرت في حياتي البرلمانية عضواً بالشيوخ سيرة رضيتها.»[٢]

في هذه المرحلة ، في العشرينيات ، واوائل الثلاثينيات والى جانب عمله في الصحافة ، ظهرت لهيكل الكتب التالية :

- الجزء الثاني من كتاب جان جاك روسو (١٩٢٣) . وكان جزؤه الأول قد صدر عام ١٩٢١ .

- في اوقات الفراغ (١٩٢٥) : وهو مجموعة رسائل أدبية تاريخية اخلاقية فلسفية[٣] اكثر من نصفها نشر في السياسة اليومية ، والباقي نشر في السفور والجريدة والاهرام .

– عشرة ايام في السودان : (١٩٢٧).

– تراجم شرقية وغربية : (١٩٢٩) : ونشرت جميعها تقريباً في السياسة الاسبوعية .

١- السيد ، من مقالة لمحمد عبدالله عنان ، ص ١٢٧ .

٢- مذكرات ، ج ١ ، ص ٤٣٦ .

٣- وقد أهدى الكتاب الى احمد لطفي السيّد . وجاء الإهداء على النحو التالي:

«إلى الاستاذ الكبير أحمد بك لطفي السيد مدير الجامعة المصرية» .

- ثورة الأدب : (١٩٣٣) وهو مقالات نشرت جميعها في السياسة الاسبوعية .

ثالثاً - هيكل السياسي : ١٩٣٧ - ١٩٥٢

يوم الخميس في ٣١ ديسمبر ١٩٣٧ ، عين هيكل وزيراً للمرة الأولى في وزارة محمد محمود . يقول هيكل عن ذلك : «هذه هي المرة الثالثة التي يتغير فيها اتجاه حياتي تغيراً جوهرياً منذ بدأت حياتي العملية . اشتغلت بالمحاماة منذ شهر ديسمبر ١٩١٢ ، واشتغلت بالصحافة منذ شهر اكتوبر ١٩٢٢ ، وكنت أكتب الكتب وأؤلف الكتب منذ كنت طالباً في الحقوق ، وها أنذا اليوم أبدأ حياة جديدة هي حياة الوزير ، وأبدأها وزير دولة في وزارة الداخلية.»[1]

وقد فصّل هيكل حياته السياسية في كتابه «مذكرات في السياسة المصرية» الذي يقع في ثلاثة اجزاء . غير أننا سنشير إلى المحطات الرئيسة في حياته السياسية والأدوار البارزة التي قام بها باختصار ، من أجل استكمال جوانب حياته .

دخل هيكل الوزارة مرات عدّة ؛ كانت على الوجه التالي :

- وزير دولة في وزارة محمد محمود عام ١٩٣٧ .

- وزير للمعارف في الوزارات التي أعاد تأليفها محمد محمود حتى عام ١٩٤٠ ، وفي عام ١٩٣٨ منح لقب الباشوية لجميع

١- هيكل ، مذكرات ، ج ٢ ، ص ٧١ .

الوزراء في وزارة محمد محمود وكان هيكل من ضمنهم[١] .

- وزير للمعارف في وزارة حسن صبري - ١٩٤١ .

- وزير للمعارف في وزارتي حسين سري حتى ١٩٤٢ .

- وزير للمعارف والشؤون الاجتماعية في وزارة احمد ماهر حتى يناير ١٩٤٥. وشارك مشاركة فعالة في مجلس الشيوخ : فقد عين عضواً في مجلس الشيوخ في ٨ مايو ١٩٣٦ ، ثم عين رئيساً للمجلس عام ١٩٤٥، وبقي حتى عام ١٩٥٠ . وبعد عام ١٩٥٠ كان عضواً مرة أخرى حتى الثورة عام ١٩٥٢ .

اما بالنسبة للانتخابات النيابية ، فقد ترشح مرتين : الأولى كانت عام ١٩٢٦ عندما طلب اليه سعد زغلول ان يترشح عن دائرة الجمالية من دوائر القاهرة، ولم يعاونه سعد في حملته الانتخابية كما كان يفترض وخسر ضد خصمه الوفدي.[٢] المرة الثانية كانت بعد عشر سنوات ، سنة ١٩٣٦ ، عندما رشحه حزبه في دائرة تمي الأمديد (حيث توجد قرية هيكل) لكنه تنازل لأخي لطفي السيد ، سالم بك السيد نزولاً عند طلب لطفي.[٣]

١- يقول هيكل : « ولم اعر الامر يومئذ بالاً . فما كانت الرتب والنياشين في يوم من الايام مثار اهتمامي ، ولا كنت اراها تسبغ على الرجل فضلاً ليس له . وقد يرجع عدم اهتمامي بالرتب والألقاب الى اعتزازي بلقبي العلمي ، واعتباره ممثلاً لجهود ذاتي هو وحده الجدير بأن يسبغ على صاحبه قدره الحق » . (هيكل ، مذكرات ، ج٢، ص ٧١) .

٢- هيكل ، مذكرات ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

٣- ويبدو ان هيكلاً لم يتنازل عن ترشيحه بطيبة خاطر إذ يقول : «وشعرت يومئذ بغضاضة من نفسي اشد غضاضة» وكان يرغب في ترك رئاسة تحرير السياسة فاقنعه ثروت باشا بالتروي والعدول عن ذلك (هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص ٢٢٢).

فضلاً عن ذلك ، فقد تسلم رئاسة حزب الاحرار الدستوريين من عام ١٩٢٢ حتى ١٩٥٢، وكان عضواً بالاتحاد البرلماني الدولي ، فسافر مرات عديدة الى روما وستوكهولم وموناكو ودبلن لحضور مؤتمرات الاتحاد البرلماني[١] ، ويقول عنه نجيب اسكندر انه من خلال رياسته للوفد البرلماني المصري قدّم مذكرات وابحاثاً قيمة في المؤتمرات البرلمانية[٢] .

اشترك هيكل ايضاً في وضع ميثاق جامعة الدول العربية، وفي تنظيم امانتها العامة ، وعن ذلك يروي رئيف ابو اللمع : «من يتصفح محاضر جلسات مجلس الجامعة ير اقوال حسين هيكل فيها واكثرها ينصب على ثلاثة امور :

١ - الدقة في العمل والتمسك باهداب النظام ، فلم يتغاض عن اي خلل في الاجراء او اي تضارب في الاختصاص او اي بطء في التنفيذ.

٢- التمسك الشديد بحقوق مجلس الجامعة ورفضه باصرار تحمل اية مسؤولية اذا لم تكن تلك المسؤولية مقترنة بالصلاحية .

٣- تميز بدماثة الخلق وسماحة الطبع وحلاوة النكتة . . . يناقش فلا تفوته الحجة ويناضل دون ان يخاصم وينتقد دون ان يجرح.»[٣]

١- كان ذلك في سنوات : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، و ٥١ . انظر: مذكرات ، ج ٣ ، ص ٤٩ وص ٨٨ .

٢- السيد ، ص٦٣ .

٣- السيد من مقالة بقلم رئيف ابو اللمع - ص ص ٤٧ - ٤٩ . وكان رئيف ابو اللمع قد اختير من قبل النادي الأدبي في لبنان ليقول كلمة ترحيب «باديب مصر الكبير» اثناء زيارة هيكل للبنان عام ١٩٣٧ .

وقد تكون الانجازات التي قام بها ، او التي بدأ في وضع اسسها اثناء توليه منصب وزير المعارف اهم مما حققه . وسنذكر بعضها هنا مما نستخلصه من مذكراته :

- الغاء تدريس اللغة الانجليزية في السنة الأولى الابتدائية من أجل تقوية التلاميذ في اللغة العربية الفصحى[١]. وتحمل من اجل ذلك تهماً شتى اضطر ان يرد عليها كتهمة التعصب وكراهية الاجانب،[٢] كما ان هيكلاً فرض على المدارس الأجنبية ان تعلم جميع تلامذتها اللغة العربية والتاريخ المصري والتربية الوطنية وجغرافية مصر.[٣]

- توسيع مجانية التعليم .

- تمصير الوظائف الرئيسية في مصالح الوزارة .

- انشاء جامعة الاسكندرية باسم جامعة فاروق الأول .

- وضع نظام ترقية اساتذة الجامعة على أساس بحوث علمية يقومون بها

-اصدار قرار بتعميم التجنيد الاجباري في الجامعات وفي المدارس .

- البدء بمشروع إنشاء جامعة محمد علي التي عرفت فيما بعد بجامعة اسيوط .

- بدء مشروع انشاء معهد التحرير والترجمة والصحافة بكلية الآداب ؛

١- كان علي يوسف (صاحب المؤيد) قد دعا الى ان يصير التعليم في مراحله جميعاً باللغة العربية وكان تعبيره الذي تناقلته الالسن : ان تعليم العلم بلغة غير لغة الامة ينقل العلم الى طائفة من أبناء الامة . وان تعليم العلم بلغة الامة ينقل الأمة كلها الى العلم وينقل العلم الى الأمة . (مذكرات ، ج ١ ، ص ٣٥) . بينما دافع زغلول عن التعليم باللغة الانجليزية وحجته ان كتب العلم ومستكشفاته ومصطلحاته كلها من عمل الأجانب.

٢- للتفاصيل انظر : مذكرات ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

٣- السيّد ، من مقالة بقلم محمد شفيق غربال، ص ١٧٦ .

وكان هو وطه حسين ومحمود عزمي ، اول من دعا إلى إقامة معهد للصحافة بجامعة فؤاد الأول.[١] وقد أولى قوانين الصحافة وحرية النشر اهتماماً خاصاً مفسراً ذلك بما واجهه في حياته الصحفية من اعتداء على حرية النشر[٢] .

- انشاء معهد اللغات الشرقية وآدابها.

- العمل على ربط التعليم بالبيئة ، فأنشأ مدرسة قرية «المنايل» على نظام اليوم الكامل - نصف يوم لتلقي الدروس النظرية، والنصف الباقي للدراسات العملية في الزراعة والصناعات الريفية .

- السماح للمدرسات بالزواج وبمنحهن اجازة وضع شهرين ونصف الشهر.

- تعميم الخدمات الطبية في المدارس .

ولا بد من الوقوف عند حدثين هامين مر بهما هيكل خلال حياته السياسية : في عام ١٩٣٦ التقى هيكل حسن البنا ولم يكن يعرفه من قبل . وذكر هذا الأخير لهيكل بأنه ألّف جمعية الاخوان المسلمين «لتهذيب الناس تهذيباً اسلامياً صحيحاً ، وانه يطمع في تعضيد مؤلف

١- السيد ، من مقالة بقلم حسين فوزي النجار ، ص ١٤٥ .

٢- هيكل ، مذكرات ، ج١ ، ص ٤٢٦ . لا شك أنه يقصد بذلك التحقيق الذي جرى معه بتهمة الدعوى الى قلب نظام الحكم في احدى مقالاته ؛ وبتهمة إهانة البرلمان في مقالات أخرى وحوكم هو وحافظ عفيفي صاحب إمتياز السياسة . وانتهت المحاكمة الى تبرئة عفيفي وتغريم هيكل بثلاثين جنيهاً لكنه بريء فيما بعد . ويقصد أيضاً قانون المطبوعات الذي اصدره صدقي والذي يحرم من رياسة التحرير كل من صدر ضده حكمان بالإدانة . ولما كان قد صدر ضد هيكل حكمان على مقالتين نشرهما في السياسة (واحد بغرامة خمسة جنيهات والثاني بغرامة عشرة جنيهات) ، فقد حرم من رياسة التحرير وحل محله عبد القادر المازني ووضع اسم هيكل مديراً لسياستها.

(حياة محمد)[١] لهذه الجماعة ، بل يطمح في قبول هيكل رياسة الجمعية" . فاعتذر هيكل عن قبول ذلك بسبب اعماله في التأليف والسياسة ، وقد ذكر أنه كان قد سمع بأن حسن البنا على صلة بالحكومة السعودية ويلقى منها عطفاً ومعونة[٢] .

الحدث الآخر هو ان هيكلاً دخل في خصام مع شيخ الأزهر ، محمد مصطفى المراغي ، طوال سنتين ، من ١٩٣٧ - ١٩٣٩ ، على الرغم من المودة التي كانت تربط بينهما ، فهيكل كان يرى ان طلاب الأزهر يجب أن يخضعوا لامتحان او يدخلوا تجهيزية تؤهلهم لتدريس اللغة العربية قبل ان يصار تعيينهم فورياً اثر تخرجهم من الأزهر. ذلك انه لم يكن يراهم متساوين في الكفاية مع طلاب دار العلوم . وفي آخر الأمر، وبعد أن استفحل النقاش حول هذه المسألة اقرّ اقتراح هيكل باجراء مسابقة بين خريجي دار العلوم وخريجي كلية اللغة العربية بالأزهر وعلى أساسها يتم التعيين في وظائف التدريس.[٣]

ولقد كان لمراسيم ١٧ يونيو ١٩٥٠ وقع شديد على هيكل . فقد قضت بتنحيته كرئيس لمجلس الشيوخ لأنه ، كما يذكر ، سمح ، في حدود الدستور ، باستجواب من الشيخ مصطفى مرعي حول تصرفات بدت من الحكومة. [٤]

وتضاءلت نشاطاته السياسية بعد ذلك الوقت فلم يعد يتصل بأحد من الوزراء او رجال القصر الا ما قضت به الضرورة على حد

١- صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٥ .

٢- هيكل ، مذكرات، ج٢ ، ص ٤٠٣ .

٣- للتفاصيل انظر : هيكل ، مذكرات ، ج ٢ ، ص ص ١٠٦ - ١٤٠.

٤- للتفاصيل انظر : نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٠ . ويشير بذلك الى قضية استيلاء كريم ثابت على مبلغ خمسة آلاف جنيه من أموال الحكومة .

قوله، حتى ظهور قضية الوثائق المزورة عام ١٩٥١[١] .

اما مؤلفاته في الثلاثينيات فإنها تُوجت بكتاب لعله أهم ما كتب عن حياة الرسول وهو كتاب «حياة محمد» (١٩٣٥) . وكان فاتحة مؤلفاته الاسلامية التي تلت بعده : «في منزل الوحي» (عام ١٩٣٧) ، والصديق ابو بكر (١٩٤٢) ، الفاروق عمر (ج١ ، ١٩٤٤؛ ج ، ١٩٤٥) وكان قد بدأ في وضع خطوط رئيسية لكتاب جديد يتم به دراساته الاسلامية ويتناول عصر الخليفتين الأخرين عثمان وعلي وكان قد اختار له عنوانا «بين الخلافة والملك».[٢] لكن نجد ابنه أحمد ينشر له كتابين في الستينات : الأول بعنوان «الامبراطورية الاسلامية» (١٩٦٠) والثاني بعنوان «ذو النورين عثمان بن عفان» (١٩٦٤) .

ولئن كانت مؤلفاته خلال عمله السياسي قد انصبت في تيار التاريخ الإسلامي فإننا نراه بعد اعتزاله السياسة اثر ثورة عام ١٩٥٢ ، وحتى عام وفاته ١٩٥٦ ، يعود من جديد كما بدأ الى كتابة القصة والرواية . فينشر في «المصور» عام ١٩٥٥ مجموعة قصص قصيرة ، جمعت فيما بعد في كتاب عنوانه «قصص مصرية» (١٩٦٩) اذ ان هذه القصص المستوحاة من الواقع المصري كانت تنشر في المصور تحت عنوان «قصة مصرية» . وإننا في العام ١٩٥٥ نراه يُقدم لنا روايته «هكذا خلقت» وتكون خاتمة أعماله ، فقد توفاه الله في العام التالي .

١- هي وثائق تدين النحاس باشا وتتهمه بالتعامل مع السوفييت وصلت الى يدي هيكل فاطلع عليها رئيس الديوان الملكي . ثم ثبت بعد ذلك تزويرها وأخذت الحكومة هذه المسألة فرصة لتنال من هيكل المنتمي الى حزب معارض . للتفاصيل انظر: هيكل ، مذكرات ج ٣ ، ص ص ٢١٤ وما بعدها .

٢- السيد ، من مقالة بقلم حسين النجار ، ص ١ .

الفصل الثاني

مؤثرات في فكر هيكل

ذكرنا فيما سبق طائفة من الكتب التي قرأها هيكل في مستهل حياته الدراسية ، وهي دون شك قليلة جداً بالنسبة الى الثقافة الواسعة التي حصّلها فيما بعد باطلاعه الواسع على الفكر والأدب باللغتين الفرنسية والانجليزية علاوة على مخزونه من الأدب العربي . حتى يقال "إنه لم يكن هناك من أبناء جيله من آلمّ بالثقافتين الانجليزية والفرنسية معاً ولم يكن له قرين في ذلك سوى الدكتور محمود عزمي."[١]

ونخص من المصريين الذين تركوا أثراً في توجهه الفكري ثلاثة نفر هم : محمد عبده وقاسم أمين وأحمد لطفي السيد . صحيح انه لم يتصل مباشرة بمحمد عبده ، لأن عبده توفي عام ١٩٠٥ وهيكل مازال في الثانوية ؛ لكنه تأثر بكتابات محمد عبده ، وبالتيار الفكري الذي خلقه . وكان أحمد لطفي السيد حلقة الوصل في ذلك . يقول هيكل: «كان الشيخ محمد عبده وكانت دعوته موضع اعجابي . وقد دعاني ذلك الى قراءة كتابه "الإسلام والنصرانية" وكتاب استاذه السيد جمال الدين الأفغاني في الرد على الدهريين . فلما توفي الشيخ محمد عبده وبدأ السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وتلميذ الأستاذ الإمام ينشر حياته وبدأ ينشر الجزء الثاني المحتوي على مقالات الشيخ أسرعت الى اقتنائه وطالعته بعناية فائقة. واذكر انه قد كان لكثير من مقالاته في جريدة العروة الوثقى التي كان يصدرها مع استاذه جمال الدين اثناء

١- النجار ، الدكتور هيكل ، ص ٩٩ .

نفيه الى باريس اثر ابلغ الاثر في نفسي.»[1] ويخبرنا هيكل انه لم يتجرأ على ارسال أول مقالة صحفية لصحيفة المؤيد الا بعد ان خالها تضاهي مقالات الشيخ محمد عبده[2] . وفي مقالاته الداعية الى الاصلاح التعليمي والتربوي - التي سنبحثها فيما بعد - نرى اثر محمد عبده ، كما ان نظرته الى الدين، والقول بوجوب تنقيته من الشوائب الداخلة عليه ، والحملة على رجال الدين الذين، حسب رأيه ، أضافوا أفكاراً ليست من صميم الاسلام . كل هذا دون شك راجعٌ للبذورالتي غرسها محمد عبده في تلامذته والجيل اللاحق بهم.[3] اما لطفي السيد ، قريبه واستاذه الذي كان له دور كبير في جميع محطات حياة هيكل ، اذ اختار له دراسة المحاماة في فرنسا ، وأرشده الى كتب معينة لمطالعتها ، وفتح له المجال للكتابة في الجريدة ، ورشحه لرئاسة تحرير السياسة ؛ فقد وصف تفكير هيكل بصفات عديدة . الا ان اهمها هي النزعة الى القومية المصرية ، هذه النزعة التي تبناها هيكل تبنياً كاملاً طوال العشرينيات من القرن الحالي .

وما مقالات هيكل في قضية المرأة وحقوقها المنتزعة وفرض الحجاب عليها ، وحديثه عن «الحب» وتمييزه عن الهوى [4] سوى ترديد لأفكار قاسم أمين . وقد دفعه اعجابه الشديد به الى كتابة ترجمة عنه والى الإشادة به وبكتبه في مقالات عديدة ومواضع مختلفة ، ذاكراً ما قدّمه هذا «البطل العظيم لانشاء الجامعة المصرية ولتطهير القلوب

١- هيكل ، مذكرات ، ج ١ ، ص ص ٢٨ - ٢٩

٢- نفسه .

٣- عالج هذا الموضوع في ثلاث مقالات - انظر: س.أ. (الأعداد ١٥ و ١٧ و ٢٠) ، وانظر ايضا : Smith , p . 39 .

٤- راجع مقالة «نتيجة الحب» في الجريدة ع ٦١٧ ، ٢٢ مارس ١٩٠٩ .

بتحرير المرأة » . ويلفت انتباه القارىء في رواية زينب ان هيكلاً يذكر ان بطله حامد هو تلميذ قاسم أمين .

أما من جهة الفكر الغربي فقد شدته إليه ناحيتان : الأولى، الحرية الفكرية والثورة على الأنماط المتعارف عليها ، متأثراً بجان جاك روسو و جون ستيوارت مل واناتول فرانس ؛ والثانية ، النظرية الوضعية او «الواقعية» كما يسميها متأثراً بأوجست كونت وهيبوليت ادولف تين.

فقد ترك روسو اثراً واضحاً في هيكل تمثل بدعوته الى الحرية والثورة على قيود المجتمع والدين رغم إيمانه بوجود الله؛[١] ويربط البعض بين رواية «زينب» لهيكل وبين رواية «هلويز الجديدة» لروسو بمقارنة الشخصيتين «حامد» و «جولي»،[٢] وبالرومانسية التي تميز الروايتين.[٣] وروسو ، بالنسبة الى هيكل ، هو احد عظماء الفكر الغربي الذين دعا هيكل إلى الاقتباس عنهم والتمثل بهم . وفي مقدمة كتابه «جان جاك روسو» الذي نشر جزأيه في عامي ١٩٢١ و ١٩٢٣ [٤] يقول : «اللقاء ممكن بين الغرب والشرق وليس كما قال احد شعراء الانجليز: "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا» .ولكي يتم هذا اللقاء

١- Smith , p . 59 .

٢- نفسه .

٣- نفسه : ووادي ، ص ١٢٤ يرى عبد المحسن طه بدر تاثير روسو في رواية زينب لما تحمله هذه الرواية من اصلاح اجتماعي . انظر: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ، ص ٣٢١ . وسنعود اليه فيما بعد باسم : بدر .

٤- الجزء الاول هو ترجمة لروسو ، والجزء الثاني هو بحث في كتبه : «جولي» ، «التربية» ، «العقد الإجتماعي» أما الجزء الثالث ولم ينشره في الكتاب بل في السياسة الاسبوعية (١٠ فبراير ١٩٢٧) وعنوانه «بين جان جاك روسو واسقف باريس».

يجب ان تلتقي الطبائع اولاً وتتطابق وهذا ليس محالاً بل يتم عن طريق نقل الأفكار المتبادلة في مختلف الأقطار نقلاً أميناً ووصف حياة الأبطال الهداة وصفاً دقيقاً بعيداً عن كل تميز»[١]. ولم يقصر هيكل في محاولته لوصل العقل المصري بالعقل الأوروبي فانبرى يكتب عن روسو وبتهوفن وتين وشكسبير وشلي واناتول فرانس وبيير لوتي وكونت- وهؤلاء جميعاً كانوا العظماء في اعتقاده . غير أن إعجابه بروسو فتر عندما اراد تطبيق آراء روسو على الواقع المصري،[٢] فاكتفى مثلاً بالأخذ من العدالة الاجتماعية التي ينادي بها روسو جزءاً يناسب تفكيره ومركزه الاجتماعي .

وتجدر الاشارة هنا الى أن هيكلاً كان يرى نفسه من تلك النخبة المتعلمة التي يجب ان تقود المجتمع. يرى ذلك - كما يراه تلاميذ الجريدة- حقاً لهم فهو يقول : «وإن اولى الجماعات بواجبات الخدمة القومية ومراقبة احوال العامة واقدرها على العمل لتكوين الرأي العام جماعة اولى الرأي.»[٣] وهذا ما أوقعه في توتر بسبب اعجابه بروسو من جهة وعجزه عن تطبيق مبادئه على المجتمع المصري من جهة اخرى[٤] .

وبتأثير من قراءاته لجون ستيوارت مل ورينان وكارليل يلح هيكل على دور «النابغة» او «البطل» في قيادة

١- هيكل ، جان جاك روسو ، مقدمة، ص ١٣ . وسنعود إليه فيما بعد باسم : هيكل، روسو .

٢- Smith . p p . 56 - 59 .

٣- الجريدة ، ع ١ ، ٩ مارس ١٩٠٧ .

٤- انظر : Smith ,, p . 58 .

المجتمع[١] ، ومن هنا يركز أيضاً على دور النخبة المثقفة في التطور الاجتماعي . فهو يرى ان «النفوس العظيمة تكون سبباً لاحداث انقلاب في تاريخ الأمم ؛ واصحابها ، وهم الذين نسميهم عظاماً ، يذكرهم التاريخ بالثناء ويخلد لهم احسن الأثر[٢] . وهؤلاء النوابغ ، حسبما يرى، هم الذين سيخلقون الأدب القومي . فيذكر أن «هؤلاء العمالقة الفحول هم النوابغ يقف الواحد منهم من قومه موقف الهادي تتعلق به الأنظار وتنفتح لعبارته الأفئدة والقلوب ، يعتصر ذهنه الفرد لب الحضارة جميعاً وينفثها من روحه القوي في احاديث وقصص او في قصائد منظومة او في كتب علم وفن فيتلقاها عنه قومه وقد لبست الفاظه ثياباً من المعاني يجب أن تقرها معالم اللغة راضية او كارهة . ولهذا النابغة يخضع الاقدمون والمحدثون.»[٣] ويقوده هذا النمط من التفكير الى اعتبار النبي نموذجاً للفرد المتفوق ، متأثراً كذلك بكارليل ورينان . فالنبي هو احد افراد هذه المجموعة المتفوقة الذين يكتشفون الحقائق بصورة خيالية بارعة . الأمر الذي يجعلهم يعتقدون بأنها وحي من الله وينكرون اكتشاف ذلك بأنفسهم.[٤]

اما مذهب كونت الوضعي والذي اسماه بالـ «Positivism» والذي يقوم على تقصي الحقائق بصورة علمية ، فقد وجد فيه هيكل ما يتفق مع مزاجه المعتدل وثقافته القانونية القائمة على العقل والمنطق .

١- تأثر هيكل بكتاب كارليل «الابطال» (Heroes and Heroes` Worship) الذي يقول فيه ان الترتيب الذي ظهر به العلماء في الارض كان كما يلي : في اول امرهم كانوا آلهة يُعبدون (مثل اودين عند اهل السويد والنروج) ثم جاءوا انبياء ثم شعراء ثم ملوكاً ثم كتاباً ، ويعقب هيكل على ذلك بقوله : « وعندي أن هذا الترتيب حسن ». (راجع الجريدة ، ع ٨٥٥ ، ٤ يناير ١٩١٠) .

٢- الجريدة ، ع ٤١٠ ، ١٣ يوليه ١٩٠٨ . والمقالة بعنوان «النفوس البشرية» .

٣- الجريدة ، ع ١ ، ٩ مارس ١٩٠٧.

٤- Smith , p . 42 نقلاً عن يوميات باريس - ايلول ١٩٠٩ .

وقد فسّر هيكل مذهب كونت في مقالتين في السياسة الأسبوعية[١] ، ونقل مقدمة ليفي برول (Levy Bruhl) لكتابه عن اوجست كونت وفلسفته.[٢] فخلال العشرينيات كان يسيطر على تفكير هيكل تفكير المدرسة الوضعية كونت وتلامذته : مل وسبنسر وتين ورينان ، ومن هنا كان هجومه على رجال الدين الذي اشتد اثر الحملة على كتاب طه حسين في «الشعر الجاهلي» (١٩٢٦) وكتاب علي عبد الرازق "الاسلام واصول الحكم" . ويقارن هيكل بين ما حدث لروسو وما حدث لعلي عبد الرازق على يد رجال الدين[٣] ، وفي معرض حديثه عن هذه الفلسفة اللادينية الجديدة يقول : «هي فلسفة لا تعرف تقديس الماضي ولا الخضوع له . بل هي تأخذ كل ذرة من ذراته فتحللها وتبحث عن مصدرها وأصلها وطرق نموها والنتائج التي انبنت عليها. ثم تبحث عن قيمتها وحقها في البقاء . فإن لم ترها متفقة مع العقل أو رأتها عقيمة النتيجة طرحتها جانباً.»[٤] وهذه المرحلة العلمية تستدعي تنازل رجال الدين عن سلطتهم."[٥] ويفصل هيكل، في ترجمته لـ "تين"، كيف يكون تطبيق الطريقة الواقعية - او الوضعية ، التي قررها اوجست كونت على الأحياء وغير الأحياء . هذه الطريقة التي اعتمدها تين أساساً لكل تفكيره[٦] ؛ ومختصرها ان الانسان ثمرة الوسط الذي يعيش فيه ، وهذا الوسط خاضع لعوامل طبيعية وتاريخية لا سلطان له عليها . ويضيف هيكل في كلامه على تين ومذهبه الوضعي : « وعندي ان مذهبه في

١- اعداد ٧٨ و ٧٩ في ٣ و ١٠ سبتمبر ١٩٢٧.

٢- النجار ، الدكتور هيكل ، ص ١٠٦ .

٣- نفسه ، ص ١٤.

٤- هيكل ، في اوقات ، ص ١١٦ .

٥- انظر : مقالة «العلم والدين» في س .أ. ع ١٥ وع ١٧ .

٦- هيكل ، تراجم ، ص ص ٢٤١ - ٤٣.

النقد اقرب الى الدقة من كل مذهب سواه . فهو أشد إمعاناً في «الموضوعية» .ويتساءل : «أأنا متأثر بتقدير ذاتي ام بذكريات خاصة . فلقد قرأت كتبه في النقد والتاريخ منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة وتركت في نفسي من الأثر ما لم تتركه كتب اناتول فرانس[١] «الحياة الأدبية» ، وما لم تتركه كتب استاذ النقد الكبير سنت بيف (Sainte Beuve) نفسه.»[٢] وسنأخذ نموذجاً من كتابات هيكل يدل على مدى تأثره بنظرية تين وهو دراسته لقاسم أمين. في هذه الدراسة نراه يحلل الاوساط التي عاش فيها قاسم أمين في حوالي ثلاثين صفحة فيتحدث عن الوسط المصري الذي يقسمه الى وسط طبيعي ووسط اجتماعي ، ثم الوسط الفرنسي . ويقول ان الوسط الطبيعي يؤثر جداً في خلق الناس، بينما الوسط الاجتماعي يؤثر في أفكارهم.[٣] ويريد هيكل بدراسة هذه الاوساط أن يبحث جوانب حياة قاسم بحثاً تحليلياً "يظهر فيه صلة رجل قام بحركة فكرية كبيرة في مصر بمجموع حياة الامة ومقدار تأثره بهذا المجموع وتأثيرة فيه وأبين الاصول التي يمكن ان ترجع اليها الافكار التي قام بها قاسم أمين والتي كانت من الظواهر الاجتماعية المحسوسة التي ظهرت في العصر الاخير في مصر.»[٤] ونقدم نموذجاً أخر وهو ترجمته للخديوي توفيق . فبعد أن يسجل هيكل احداث الثورة التي قامت في عهده يقول : «والآن هل على توفيق تبعة في الحوادث الجسام التي حدثت . . . . هذا ما لا يصعب الجواب عليه . فعلى توفيق التبعة اذا كانت على الانسان تبعة ضعف نفسه واضطرابه

١- هذا مع شدة اعجابه باناتول فرانس كاديب وداعٍ للحرية الفكرية . فقد كتب عنه في "في أوقات الفراغ" ست مقالات . واهداه قصته «إبيس» .

٢- هيكل ، تراجم ، ص ٢٣٦.

٣- هيكل ، في اوقات ، ص ٩٩.

٤- نفسه ، ص ٩٧ .

بين قوى لا سلطان له عليها . وانما التبعة اكبر التبعة على الحوادث التي أحاطت بتوفيق فكان لضعفه لا يملك تحويرها بما يتفق ومصلحة بلده . انما التبعة على تركيا وعلى فرنسا وعلى انجلترا وعلى عرابي ، وماذا يستطيع ضعيف قصير النظر ان يصنع بين هذه القوى جميعاً الا ان يترك نفسه يتقاذفه موج الحوادث ليصل بملكه وبلاده الى ما وصلا اليه ! »[١] ، وما يُطبق على الانسان يُطبق على المجتمعات ، فكل مجتمع يختلف عن الآخر بحسب العادات والتقاليد الموجودة فيه ، مما يؤدي الى اختلاف في التطور . وهذا ما جعل هيكلاً يعتقد «ان على مصر ان تتحرر من الإسلام وثقافته من أجل اكتشاف مصريتها التي كانت قبل الاسلام والا كيف يتسنى للفرد ان يكتشف ما هو المصري المختلف عن الأوروبي ، بل المختلف عن التقاليد العربية الاسلامية ؟ »[٢] . وهنا تأتي الردة الفرعونية عند هيكل الذي يعتقد ان « الأمة لا تتكون من اللحظة الحاضرة بل ان للماضي في شركة حياتنا قسماً اكبر مما للحاضر . الماضي هو حياتنا كلها»[٣] . ولهذا يجب على الأمة ان تمتص الحضارات الواردة عليها لتصبح جزءاً منها ويشعر الناس وكأنها لهم . وفي هذه الحال ، يقول هيكل، تظهر ذاتية كل أمة بماضيها البعيد المجيد[٤] . ويعزز هذا الاعتقاد في نفسه ما قرأه في كتاب التضامن (Solidarité) لليون بورجوا الذي يقول إن « مبدأ التضامن القومي يستند الى ان الوطن يتألف من أجياله المتعاقبة.» [٥]

١- هيكل ، تراجم ، ص ٩٣ .

٢- Smith , p. 43 .

٣- هيكل ، في اوقات ، ص ٩٦ .

٤- نفسه ، ص ٣٥٥ .

٥- هيكل ، مذكرات ، ج ١ ، ص ٤٤ .

الفصل الثالث

هيكل والدعوة للقومية

سنحاول هنا البحث في الدعوة القومية المصرية عند هيكل، والتعرف على الشكل الذي ظهرت فيه هذه الدعوة وعلى مدى قوتها وانتشارها . وسنعتمد في هذا الفصل على روايته الأولى «زينب» لأنها التعبير الأدبي الأول عن نزعته القومية ، وعلى مقالاته في الجريدة والسياسة والسياسة الأسبوعية ، وقد آثرنا قسمة هذه المقالات على مرحلتين : مرحلة الجريدة ١٩٠٨ - ١٩١٤ ومرحلة السياسة والسياسة الأسبوعية ١٩٢٢ - ١٩٣٧ ، وذلك لسببين .

١ - ان معظم مادة كتبه في الفترة التي هي قيد البحث - ان لم يكن كلها - جُمعت من مقالاته في الجريدة والسياسة الأسبوعية . وهناك القليل مما نشر في السياسة اليومية ، واقل منها مما نشر في صحيفتي السفور والأهرام، وهذه الكتب هي :

- في أوقات الفراغ ١٩٢٥ : مقالات في السياسة اليومية والجريدة والسفور والأهرام .
- تراجم مصرية وغربية ١٩٢٩ : جميعها في السياسة الأسبوعية .
- ولدي ١٩٣١ : معظمه في السياسة الأسبوعية .
- ثورة الأدب : ١٩٣٣ : معظمه في السياسة الأسبوعية .

٢ - ان اكثر مقالاته في الجريدة لم يظهر في مؤلفاته فمن أصل ثمان وثمانين مقالة ظهرت ثمانية فقط في كتاب «في اوقات الفراغ» .

في رواية زينب :

كتب هيكل فصول هذه الرواية بين عامي ١٩١٠ و ١٩١١ اثناء

اقامته في فرنسا وتنقله بين لندن وجنيف ، فجاءت «ثمرة الحنين الى الوطن» بالدرجة الأولى . وفي العام ١٩١٤ * ظهرت الرواية بطبعتها الأولى تحمل توقيع مصري فلاح ، وكان كاتبها قد تردد طويلاً بين ان يضع اسمه عليها وبين الا يضعه . والسبب خوفه من ان تجني صفة الكاتب القصصي على اسم المحامي [١] وكان قد انخرط في مهمة المحاماة منذ عام ١٩١٢. ولا يخبرنا هيكل لماذا كان يعتبر كتابة القصة "جناية" إنما يفسر لنا ذلك احد الكتاب بقوله ان القصص والروايات في ذاك الوقت لم تكن تحظى باهتمام المثقفين لأنها كانت تقتصر على مجالات التسلية والترفيه ،[٢] ويضيف يحي حقيّ سبباً آخر وراء تستر هيكل وهو ان القصة حافلة بالحديث عن الحب، والكاتب يتغنى ويحتفي بهذه العاطفة ، ولما كانت زينب تحمل الكثير من سيرة هيكل الخاصة - فقد اراد ان يتجنب فضول الناس «وان لا يخرج المحامي الناشىء الذي يعيش في الريف عن العرف المألوف بالجهر بما ينبغي كتمانه . يكفيه

---

* يصر علي شلش على ان الرواية نشرت ١٩١٣ وليس ١٩١٤ كما يذكر هيكل. [راجع مقالة لعلي شلش في الشرق الأوسط (١٨ / ٨ / ٨٨) بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد محمد حسين هيكل] . ويزعم البعض (ومنهم د . عبد العزيز شرف استناداً الى «مستقبل الصحافة لحمزة» ج ١ ، ان الرواية نشرت فصولاً في جريدة الجريدة) لكننا لم نعثر في الجريدة على أي فصل من فصولها .

١- هيكل ، زينب ، مقدمة ص ٧ . ومما يذكر في هذا الصدد ان الكاتب الاسكتلندي الروائي ولتر سكوت قال عن روايته التي صدرت باسم ويفرلي : «لم انسب ويفرلي الى نفسي فلست على ثقة من انه يليق بمن كان مثلي من رجال القانون ان يكتب الروايات» .

٢- عبد المحسن طه بدر ، تطور الرواية ، ص ٨٥ . وسنعود اليه باسم : بدر ، تطور.

انه منحاز لحزب لا ترضى عنه الأمة كل الرضى»[١] ، يقصد به حزب الأمة.

ولنعد الى "المصري الفلاح "؛ ان لاختيار هاتين الصفتين ولتقديم كلمة مصري على كلمة فلاح سبباً جديراً بأن يلتفت اليه . فقد كان ابناء الاعيان في الريف المصري يعتزون بمصريتهم ويكرهون ابناء الذوات كرهاً شديداً لأنهم كانوا ينافسونهم على السلطة والحكم ويحتقرونهم ؛ فأراد هيكل ان يثبت ان المصري الفلاح «يشعر في اعماق نفسه بمكانته .. وأنه لا يأنف ان يجعل المصرية والفلاحة شعاراً له يتقدم به للجمهور . وإذ به يقدم كلمة مصري على كلمة فلاح حتى لا تكون صفة للفلاح اذا أخرت فتصير «فلاح مصري».[٢] أما في عام ١٩٢٩، حين طبعت القصة طبعتها الثانية ، فإن هيكلاً وضع اسمه عليها؛ وكان في ذلك الوقت قد ترك المحاماة الى الصحافة واصبحت فكرة القومية منتشرة «ومحترمة»[٣] .والجدير بالذكر انه في تلك السنة نشر طه حسين كتابه «الأيام» ، لكن الفضل يبقى لهيكل ، حسبما يرى النقاد ، في نقل الرواية من «فكاهة» لا يُقصد بها الاّ التسلية الى مرحلة العمل الفني الهادف والجاد.[٤]

وتلقف النقاد «زينب» وأمعنوا فيها تحليلاً وشرحاً

١- بدر ، تطور ، ص ٨٥ ، نقلا عن فجر القصة المصرية .

٢- نفسه .

٣- انظر: شوقي ضيف ، الأدب العربي المعاصر، ص ٢٠٩ . وسنعود إليه فيما بعد باسم : ضيف.

٤- عبد المحسن طه بدر ، الروائي والأرض ، ص ٨٢ . وسنعود اليه باسم : بدر، الروائي .

باعتبارها الرواية المصرية الأولى بمعناها الفني [١] وباعتبارها أول رواية مصرية تُمثل للسينما [٢] وأول رواية تستخدم فيها العامية للحوار . وبلغ الاحتفاء بها ان "جب" اعتبرها منبتة الصلة بكل ما ظهر قبلها من الأدب العربي ويرى انه معها أضيف نوع طريف الى الأدب العربي . [٣]

والواقع انه ليس هناك كتاب يتناول موضوع الرواية او

١- يجمع اكثر النقاد والكتاب على ان زينب اول رواية مصرية . لكن الواقع ان هناك قصصاً وروايات ظهرت قبل زينب في مصر لسوريين متمصرين مثل جرجي زيدان وفرح انطون ويعقوب صروف ونقولا حداد وسعيد البستاني ولبيبة هاشم وزينب فواز وأليس بستاني (القصة في الأدب العربي الحديث لنجم) . لكن يمكن التسليم بأنها أول رواية مصرية باعتبارها ، كما يقول جب : « أول قصة مصرية كتبها مؤلف مصري لقراء مصريين ، وان شخصياتها وجوها وحبكتها جميعها مستمدة من الحياة المصرية المعاصرة » . (جب ، ص ٣٨٢) ؛ انظر ايضاً: Smith p . 48 حيث يقول : «انها اول رواية عربية حديثة لأنها فكت الارتباط بشكل المقامة النثري الذي كان سائداً». عن نقد الرواية من الناحية الفنية انظر: عبد الله ، ص ١٤٥ .

٢- ان من يطالع كتاب جلال الشرقاوي رسالة في تاريخ السينما العربية يجد ان هناك سبعة أفلام سبقت «زينب» هي : ليلى ، قبلة في الصحراء ، غادة الصحراء، سعاد الغجرية ، فجيعة فوق الهرم، بنت النيل، تحت ضوء القمر (ص ٢٥٨)، وانظر: ص ص ٤٤ - ٦٤ عن عملية الإخراج الأولى لهذا الفيلم التي قام بها محمد كريم. وكان الممثلون بهيجة حافظ وسراج منير وزكي رستم ودولت ابيض وقد انتجه يوسف وهبي . وقد أعيد تمثيل الرواية مرة ثانية في الخمسينات وكان البطلان راقية ابراهيم ويحي شاهين وقد أخرجه أيضاً محمد كريم .

٣- جب ، ص ٣٧٩ .

القصة في الأدب العربي الا ً ويفرد قسماً مميزاً لـ «زينب» ، واحياناً كثيرة تتناقض الآراء حول قيمتها وحول لغتها ، وحول انتمائها الأدبي . فمنهم من يراها رواية رومانسية ، ومنهم من يصنفها مع الروايات الواقعية ، ومنهم من يراها تحوي المذهبين معاً . وكذلك بالنسبة للغة: فهناك من يعجب اشد الاعجاب بسلاستها وعاميتها ، وهناك من يعتبرها ركيكة ولا يرى مبرراً للعامية في السرد . ونحن لن ندخل في نقد الرواية من حيث مقوماتها الفنية وقيمتها الأدبية [١] ، لكننا سنتجه الى تلك السمات التي تصنفها في إطار الأدب القومي او الأدب المصري، دون ان نسلم تسليماً خالصاً بقول احدهم "ان زينب صدرت عن وجدان قومي خالص يهدف الى تمجيد مصر والتغني بها والحنين الى إظهار شخصيتها.» [٢]

هذه السمات تظهر في نواحٍ عدة اهمها :

أولاً – تصوير حياة اهل الريف :

يقدم هيكل في روايته صورة لحياة الفلاحين وعملهم في الحقول بما يحمله من شقاء وعناء (ص ١٠٧) ، ثم يصف علاقات الفلاحين الأجراء بعضهم بالآخر (مثل علاقة زينب ابراهيم وزينب بحسن) ، وعلاقتهم برب العمل (زينب بحامد) ، ويصف الاعتقادات السائدة في الريف والخرافات المتحكمة في عقول الفلاحين (ص ١٨٤). ويسخر من التقاليد الدينية التي يمارسونها [(كوصفه لاحدى حلقات الذكر (٢٤٢ -٢٤٣)] ، وما شخصية الشيخ مسعود الا نموذج لشخصية شعبية

١- انظر في نقدها المراجع التالية : عبد الله ، ص ص ١٤٥ - ٥٣؛ بدر ، تطور ، ص ٢١٥ - ٢٧؛ بدر ، الروائي ، ص ص ٥١ - ٨٢ علي الراعي ، دراسات في الرواية المصرية ، ص ص ٢٣ - ٥٣ ، سنعود اليه باسم : الراعي .

٢- وادي ، ص ٨١.

تلجأ الى الخداع والشعوذة باسم الدين (ص ٢٤٢ وما بعدها) [١] هؤلاء الفلاحون كما يصفهم هيكل يشعرون بواجب الفضيلة والاخلاص كزينب وابراهيم ، وبعضهم تغرّهم الحياة المادية فيحسبونها مفتاح السعادة (مثل اهل زينب) . ولم يكن هيكل يتوخى ، حين كتابة القصة سوى اعطاء هذه الصورة عن الريف واهله ، لكن هذه الصورة ما لبثت ان اكتملت بشكل رواية ؛ وقد يكون على حق من قال ان اول رواية في الأدب المصري جاءت «صدفة» ، او «غفلة» . وهذا ما يثبته هيكل في معرض حديثه عن الرواية عندما اختيرت لتمثل فيلما [٢] . قال : «كان اكبر أملي يومئذ (يوم كتابة زينب) ان ابعث بها الى النفوس صورة ارتسمت بخاطري انا من وطن عزيز نشأت فيه واحببت اهله ... وسيرى الجمهور حياة هذه البطلة التي آمنت بالحب والاخلاص فيه والتضحية بالنفس في سبيله مع الاذعان لواجب الفضيلة ... وسيرى كيف تقضي الأوهام على أسمى العواطف ، عواطف الابوة والامومة ، وتجعل الناس يتوهمون في دعة الحياة المادية مفتاح السعادة .. وسيرى هذه العواطف المتضاربة المتناقضة في نفس البطلة والريف كأنما يسخر من حماقة العادات السخيفة التي لا مبرر لها.» [٢]

وبسبب احساسه بطبقة الفلاحين وتميزها كطبقة عاملة إزاء طبقة الملاك في الريف ، قال بعض النقاد عن هيكل بأنه اشتراكي ، وأضاف البعض عنه بأنه ثوري ، لدرجة انهم اعتبروا زينب رواية مهّدت لثورة ١٩١٩، [٣] وكان هناك رأي مناقض اعتبر ان هيكلاً يصف ويقول

١- انظر : ضيف ، ص ٢٧٤ .

٢- س .أ. ع ٢١٣ ، ٥ ابريل ١٩٣٠ .

٣- النجار ، الدكتور هيكل ، ص ٧٠ .

دون ان يعمل محافظة على مصالح طبقته .[١]

لكننا لا نستطيع في اية حال الا ان نشعر بصدق احاسيسه تجاه الفلاحين وتعاطفه معهم عندما يصف الملاك مستغلي الفلاحين بقوله: «انهم مهروا في المحافظة على الظواهر واخفاء ما في نفوسهم وبرعوا في النفاق امام الله وامام الناس بل امام انفسهم» . ويصفهم بأنهم يتأففون من عمله (عمل الفلاح) وهو «خادمهم والساعد الذي يستندون به في مجالسهم القديمة حيث يقضون ساعات هنائهم لا يفكرون» . ثم يتساءل : «ايتها الايام الظالمة ! اما يكفي ايقاعك بالفقير في مخالب عدمه وألمه حتى تظهريه كذلك الشقي المجرم »[٢] .

هذا الاهتمام بواقع الريف وشخصياته فسح مجالاً للقول ، بل الاصرار على ان الرواية تنتمي الى الأدب الواقعي .[٣]

ثانياً – التغني بجمال الريف :

ربما فاتنا ان نذكر ان الرواية بطبعتها الأولى حملت العنوان التالي : «أخلاق ومناظر ريفية» ؛ وقد تكلمنا في الفقرة السابقة عن الشق الأول من هذا العنوان «أخلاق الريفيين» . وهنا نتحدث عن «المناظر» . في الرواية وصف مكثف لجمال الطبيعة في الريف المصري: المزارع ، الغيطان ، السماء في الصيف ، سكون الليل ، جمال القمر الفصول الأربعة وما الى ذلك .. لدرجة ان تكرار هذا الوصف فتح مجالاً واسعاً للمناقشة . فالبعض اعتبر هذا الوصف ميكانيكياً

١- Smith , p . 50 .

٢- هيكل ، زينب ، ص ١٨٨ .

٣- انظر مثلاً: انجيل بطرس سمعان ، دراسات في الرواية العربية ، ص ١١ و ص ٧٦ ، وسنعود اليه فيما بعد باسم : سمعان .

وجامداً لا يعبر عن أي تفاعل بين الكاتب وبين الطبيعة .[١] والبعض الآخر رآه بديعاً وشاملاً وشاعرياً بالرغم من أنه يتنافر مع جو الرواية الحزين ، ويربطون ذلك بتأثر هيكل بالرومانسيين الغربيين في تصورهم للجمال الذي ينشأ بعيداً عن جو المدينة.[٢] اما عبد الرحمن الشرقاوي فيهتم جداً بهذه الناحية من الرواية ، ناحية التغني بجمال الأرض فيقول : «هي اول رواية ... وهي رواية اتجهت الى حياة الفلاحين وجمال الأرض ... وفي صفحاتها تحقق لأول مرة في أدبنا منقبات الحب بين بسطاء الناس » . ويشيد الشرقاوي بالأديب الذي « ألّف أول رواية مصرية وتغنى بجمال «أرضنا» .[٣]

ثالثاً – الاحساس بالذات المصرية والتعبير عنها :

كان هيكل فخوراً بمصريته ، معتزاً بها ؛ يبدو ذلك واضحاً في كثير من كتاباته طوال حياته . فروايته الأولى أهداها الى مصر : «الى مصر .. الى هذه الطبيعة الهادئة المتشابهة اللذيذة ... الى هؤلاء الذين احببت واحب ... الى بلاد بها ولها عشت واموت .. الى مهبط وحي الشعر والحكمة اول الأزل.»[٤] وفي رومانسية بالغة يعبر ايضاً في مقدمة الرواية عن مدى تعلقه بمصر وحبه لها ، فيجعل هذا الحب السبب الوحيد لبقائه على قيد الحياة : «لأكتبها عشت ، ولولاها

١- الراعي ، ص ص ٤١ - ٤٢ . ويضيف ان هيكلاً اخفق في ان يصل ما وصل اليه «وردزورث» او «كيتس» في وصفهم للطبيعة ، "حيث ينظر الفنان الى مظاهر الطبيعة ومناظرها نظرة عميقة مشحونة بالعاطفة فيبعث فيها الحياة» .

٢- بدر ، تطور ، ص ص ٣٢٢ - ٢٣ . وعن رومانطيقية زينب وتاثر هيكل بالرومانطيقيين الغربيين كـ «روسو» انظر: Smith , p . 48 .

٣- السيد ، ص ص ١١٤ - ١٥ من مقالة لعبد الرحمن الشرقاوي .

٤- هيكل ، زينب ، مقدمة ، ص ٥ .

لقضيت على حياة ما اغناني عنها.»[١] ووفاءً وتقديراً لهذا الشعور الذي بدا من هيكل الأب ، نجد هيكل الابن يُهدي مجموعة القصص التي نشرها والده في المصور والتي جمعها في كتاب «قصص مصرية» ، الى «مصر» والى «مصرية» ويقول : «اليكما كان اهداء زينب في البدء ولعل من الحق ان يكون اهداء هذه المجموعة في الختام» [٢] .

ذكرنا ان هيكلاً لم يشأ ان يضع اسمه على غلاف الرواية بل وضع «مصري فلاح» . ولم تخفَ هذه الروح المصرية على الدراسين ، فاعتبرت قصة زينب «اللبنة الأولى» في الأدب القومي المصري، [٣] اذ كشفت عن حبه لمصر وفخره بالانتماء لها ، [٤] كما اعتبرت «تجديداً في الأدب المتوارث ونقلة هفت اليها النفوس في ذاك الوقت ودعوة الى انشاء أدب مصري السمات ، مصري الأحداث مصري الروح يتأكد به طابع المصرية في التعبير والتقدير. »[٥]

ولا شك ان الذي نمّى هذه النزعة في نفس هيكل هو انتماؤه لطبقة الأعيان من ناحية ، وتأثره بأستاذه لطفي السيد من ناحية أخرى، اذ كان السيد يلقب «بأبي القومية المصرية.» [٦] وكما تأثر بأستاذه لطفي السيد ، اثر هيكل في الجيل اللاحق من الكتاب الذي كان يتطلع للون من الكتابة يصف الحياة المصرية ويترجم عن نفسيتها [٧].

١- هيكل ، زينب ، مقدمة ، ص ٥ .

٢- هيكل ، قصص مصرية ، الاهداء .

٣- ضيف ، ص ٢٧٧ .

٤- سمعان ، ص ١١ و ص ١٤.

٥- السيد ، ص ١٠٩ من مقالة بقلم محمود تيمور .

٦- بدر ، تطور ، ص ٣١٨ .

٧- السيد ، ص ١٠٢ من مقالة لمحمود تيمور .

رابعاً – صورة المرأة الريفية :

عندما كان هيكل طالباً في باريس ، وقبيل كتابة قصة زينب، يسجل هيكل في يومياته : « .. ظللت وبهي الدين بركات نتحدث في حال المرأة عندنا مدة ليست بوجيزة من الزمن ، تلك الحال التي لا يفرغ القول منها والتي تثير في القلب من دواعي الشفقة على الأمة بأسرها ما يذيبه ، حال الانفصام الدائم بين الجنسين مع وجوب اتفاقهما وتعارفهما ، حال انحطاط المرأة الى حضيضها المشين ، حال جهلها . وفوق كل هذا طرق الزواج السيئة التي لا تدع لرجل مجالاً في ان يكون قديراً على معرفة المرأة التي سيكون لها زوجاً الا ان يعرف اسمها ساعة العقد وينظر في وجهها بعد اجتماعهما في منزل واحد ، والواقع الذي لا يمكن انكاره ان كل شيء عندنا دخلت فيه مصلحة من مصالح المرأة او تعلق به امر من امورها هو ناقص نقصاً جوهرياً ، فكأن المرأة عندنا النقص في كل ما يختص بها او يكون لها يد مهما تكن ضئيلة فيه.»[١]

وظلّت قضية المرأة ووضعها الاجتماعي مدار اهتمام هيكل طوال حياته . نجد هذا الاهتمام في مقالاته الكثيرة في الصحف - التي سنتحدث عنها لاحقاً - وفي قصصه القصيرة وفي روايتيه : «زينب» و «هكذا خلقت» ؛ ولا يخفى في ذلك تأثير قاسم أمين على هيكل وقد كان هذا الأخير معجباً بقاسم أمين ومقتنعاً بكتابيه اشد الاقتناع ، وفي «زينب» مقاطع تبين استخفافاً بالحجاب واعتباره «مذلة» فرضت على البنات منذ ميلادهن[٢] لأن الفتيات لا يرضين به ويعتبرنه سجناً . وقد اورد هيكل هذه الفكرة على لسان عزيزة في الرواية عندما

١- وادي ، ص ١٧ [عن يومية ٧ اغسطس ١٩٠٩ لهيكل] .

٢- هيكل ، زينب ، ص ١٨٧ .

تقـول : "هل تظن يا أخي حـامـد انّا مـعـشـر البنات سـعـيـدات في ذلك السجن العـتـيق ؟ انكم تحـسبـوننا دائما ً راضيات ، ولكن الله يعلم علقم ذلك الوجود المر الذي نحـتـمله مـرغـمين ثم نعـوّد عليـه قليـلا ً قليـلا ً كمـا يعـود المريض مـرضـه وفـراشـه.» [١] ويقـارن هيكل أيضـا ً بين"الريـفـيـات السافـرات وحسنـــهن وبساطتـهــن ، وبين المصــــونات فـــي خدورهـــن» (ص ١٨٦ - ١٨٧) .. كما ان احد الاحداث الرئيسية في الرواية هو تزويج زينب لحسن بالإكراه وهـو عـادة مـتـبـعـة في الريـف ، وقـد جـعل هيكل نتـيـجـة هذا الـعمل مـأسـاة تنتـهي بموت البـطلة بمرض السل وهي على وفـاتها لحبيـبـها ابراهيم . ولما كانت «زينب» الرواية تعالج مـثل هذه القضـايا عن المرأة في الريف ، أمكن تصنيف «زينب» الفلاحة كفاتحة الصور للمرأة الريفـية المصرية [٢] . ثم ان التـغـيير في معاملة المرأة الذي ينشده هيكل او يحض عليه والذي هو جزء من الاصلاح الاجتماعي جعل البعض يعتبرون الرواية اخلاقية تدل على تأثر كاتبها بالكتاب الغربيين امثال شكسبير وروسو وجوته الذين بحديثهم عن الحب كانوا يتحدّون مجتمعاتهم الأمر الذي دفع هذه المجتمعات الى التطور والحرية. [٣]

خامساً - استخدام اللغة العامية :

حـاول هيكل الابتـعـاد عن اسلوب السـجع والتكلف اللغـوي الذي كان سائدا ً في كتابات من سبقه . وقد وُفق في ذلك فكانت لغته بسيطة وعفوية ومعبرة . استخدم العامية المصرية في لغة الحوار بين الريفيين، كما تضمن السرد ايضا ً بعض الألفاظ العامية التي كان يشرحها احياناً. اما العامية في الحوار فقد اطلقها على لسان الفلاحـــين

١- هيكل ، زينب ، ص ١٩٢ .

٢- سمعان ، ص ٧٢ و ص ٧٦ .

٣- Smith , p . 48 .

واهل القرية ، بينما استخدم الفصحى في حوار المثقفين : حامد واصحابه وعزيزة . كما ينقل هيكل كلام الريفيين نقلاً ظريفاً واقعياً ونمثل بمقطع جاء على لسان خالة حامد حين تصف «حسنين ابو مخيمر» وهو يضرب امرأته :

- يوه ، وامسك مراته فضل يضرب فيها هيه هيه لما قال بس.. قال يا ستي متقاتل ويّا جوز ام السعد وبيقول (والله إلا هلكته الكلب .. بس إيّاك عاد هو يفتح حنكه) هي ردت عليه وقالت : (ليه ياشيخ الطيب احسن) هو سمع كده وعفاريته طلعت (وانت رخرة يا بنت.. جيه وياهم) وشال ايده في الهوا وراح سافخها كف نزلت في الأرض روحها سارقة . وهو من شطارته ينط في بطنها بالرجل ويقول لها (قومي يا بنت ال ... بلا مكر) قول وبعدين أبصر مين دخل ورشوا على وشها ميه لما صحيت مبهولة مسكينة بصت له وقالت (طيب يا حسنين برضه معلهش كتر خيرك) ويا عين خذتها نفسها راحت معيطة . صاحبنا لا يشيل ايده في الهوا من تاني ويقول لها (برضه بتعيطي يا مره يالايده) وراح سافخها بالكف ومن الناحية التانية وكمان كف ما لحقوا الناس يحوشوا الا بعد ما دبت بالصوت وراحت مرمية خالصة زي اللي حاتموت ، وبعدين خدت بنتها وراحت على دار ابوها . ولازم حايقدم بلاغ في حق الراجل ابو مخيمر . يبقى مقدم بلاغين في حقه في ليلة.

- اعوذ بالله .. يا اخواتي الناس دول وحوش . لاه اخص..»[1]

اما الكلمات العامية التي جاءت في السرد ، فكانت غالباً كلمات محلية يصعب فهمها مثل : جلست العائلة حول «المشنة»(ص١٤) و «لمضة» خمس شمعات . (ص ١٥) ولم يبق للعمال الا ان يطلعوا

١- هيكل ، زينب ، ص ١٩٧ .

«بالوش» وذهب معهم من ذهب الى الطفى والسقى (ص ١٠٧) .

- وان لم يتمتع بزن التابوت فقد بقى له بدلا منه «رج الطنبور ... (١٧٦) .

- الفتيات في خف الرز (١٧٦).

والحقيقة انها جرأة بالغة من محمد حسين هيكل ان يورد مقاطع طويلة باللغة العامية كالمقطع السابق ، ويضمن لهجة العامة في الحوار خاصة اذا ما علمنا انه كان رائداً في ذلك .[١]

وان كان البعض يرى ان استخدام العامية في السرد دليل على ضعف لغوي عند هيكل ، فإننا نرجح ان استخدامه لهذه الألفاظ كان متعمداً لأنها تزيد القارىء احساساً بجو الريف . اضافة الى ذلك لا يسعنا الا ّان نشعر بأن الكاتب كان مغتبطاً ومعتزاً بنقل هذه الألفاظ الينا . ويبقى السؤال : هل كان هيكل في روايته زينب يحاول تحقيق امنية استاذه احمد لطفي السيد ؟ ذلك ان السيد كان قد نادى ودعا مراراً الى ايجاد لغة مصرية . لغة تقرب الفصحى من العامية ، وكما اشرنا سابقاً ان تمصير اللغة كان احد اهداف القوميين المصرين الأساسية التي برزت على نحو بيّن في جريدة الجريدة ، لذلك تعتبر زينب أول تلبية لدعوة الجريدة الى ادب مصري قومي . والذي لا يقبل الشك ان هيكلاً بدافع من شعوره القومي لم يجد غضاضة في استخدام اللهجة المصرية ، ولم يخطر على باله انها ستسبب له اتهاماً بضعف اللغة في يوم من الأيام .

١- انظر : جب ، ص ٣٨٨ .

في جريدة الجريدة :

بين سنتي ١٩٠٨ و ١٩١٤ كتب هيكل لجريدة الجريدة حوالي ثمانٍ وثمانين مقالة يقع الكثير منها في مجال الاصلاح الاجتماعي مثل التربية والمرأة والتعليم والحرية . ويدور البعض منها حول موضوعات سياسية - خاصة ما كتبه خلال سنة ١٩١١ ، عندما تسلم كتابة افتتاحية العدد مكان أحمد لطفي السيد - كما ان منها مقالات في الأدب والنقد ، ومنها يدور حول قضايا ومسائل قانونية . وهذا الفصل سيبين كيف برزت دعوة هيكل إلى القومية المصرية في مقالات الجريدة .

لو اعتبرنا ان الدعوة إلى القومية المصرية - من الناحية الفكرية وليس من الناحية السياسية او الثورية - كانت ذات شقين : الأول يلتفت الى إصلاح الحال الراهنة تربوياً واجتماعياً واقتصادياً .. والثاني يدعو الى خلق حال جديدة تحمل مظاهر قومية ، لاستطعنا القول ان هيكلاً في جريدة الجريدة غلّب الشق الأول على الشق الثاني ، بعكس ما سيظهر في مقالاته في السياسة -الأمر الذي سنبينه في الفصل التالي . اذاً الدعوة إلى القومية المصرية في الجريدة جاءت في معظمها بصوت إصلاحي هادىء. ومن القضايا التي تناولها :

١ - المرأة :

لعل الاهتمام المبكر عند هيكل بشؤون المرأة ومشكلاتها كان صدى لدعوة استاذه قاسم امين . فهو يتحدث باسهاب عن حريتها وتعليمها وتحجبها . ومقالاته الأولى بين سنتي ١٩٠٨ و ١٩١٠ يدور اغلبها في إطار هذا الموضوع ، فنجد مثلاً اول مقالتين لهيكل بعنوان «المرأة المصرية» ، ثم هناك سلسلة من عشر مقالات بعنوان «قضية المرأة - الحجاب» ، اضافة الى مقالتين اخريين تحملان العنوانين الآتيين: «حجاب المرأة» و «المرأة والحجاب» ؛ ونقرأ أيضاً موضوعات متعلقة

بالمرأة مثل : «الحب» و «نتيجة الحب» و «الزوجة» .

يقر هيكل بأن المرأة المصرية متخلفة وهي في «أحط درجات العالم الانساني المتمدن». وهذا التخلف جاء نتيجة للاستبداد في شتى العصور السالفة - فالحاكم يستبد بالرجل، والرجل يستبد من جهته بالمرأة . ولازالة هذا التخلف ، على المرأة ان تتعلم وتجني من فنون الأدب ما يرفع تفكيرها ويثقفها ، طالما انه ليس هناك اسباب تمنع المرأة من ان تنال حظاً وافراً من العلم.[١]

اما الحجاب فيشن عليه الكاتب حملة شعواء ويصنفه نوعين: فهو «إما سجن في الدار» حيث تقضي المرأة حياتها داخل هذا السجن ، واما «ستار اسود» تلتحف به وقت خروجها من منزلها وكلا النوعين سيء بالنسبة لهيكل . فإن النسوة يلفتن انتباهاً اشد تحت ذلك الستار فيصبح بالتالي مدعاة للتهتك وليس للستر.[٢] ثم يلتفت الى الصغيرات المتحجبات ، فيذم هذه العادة التي تقيد البنات الصغيرات وتُفرض عليهن .[٣] ويحمل هيكل على أولئك الراضخين للحجاب سواء أكانوا من النسوة أم من الرجال الذين يناصرونه ، يحمل عليهم لاستسلامهم لهذا القيد عن غير اقتناع بل لأنه عادة متبعة وحسب . وهو لفرط ولعه بالطبيعة وجمالها يشتد كرهه للحجاب الذي يحول بين الناس وبين الاستمتاع بما حولهم من جمال فيقول : «سائل المرأة كيف ترضى بالسجن والتحجب عن كل جمال ابدعه الله ليمتع به الخليقة : كيف لا يخطر على بالها ان تخرج الى المزارع فترى البرسيم كما الارض

١- الجريدة ، ع ٣٤٩ ، ٣ مايو ١٩٠٨ ، و ع ٣٨٧ ، ١٦ يونيه ١٩٠٨ .

٢- الجريدة ، من مقالة بعنوان «حجاب المرأة» ، ع ٤٧٧ ، ٢٩ سبتمبر ١٩٠٨ .

٣- نفسه .

بساطاً من سندس اخضر وعلى جوانبه تقع القبرات آونة بعد الأخرى تترنم بأناشيدها الجميلة المطربة والى جوارها الأشجار الباسقة يحرك الهواء العليل غصونها وقد اتخذتها القماری مسكناً فتنعش كل ما جاورها بصوتها البديع - فتجيبك وهي حيرى هذا شأن النساء . سائل انصار الحجاب لما يحجبون المرأة عن الهواء والفضاء وبدائع الخليقة فيجيبونك* ان ذلك من مستلزماتها الطبيعية »[١] وينبري هيكل لأولئك المستسلمين للعادات السخيفة دون منطق فيقدم لهم حججاً شديدة المنطق بقوله : «اذا خاف الرجل من فساد من المرأة لضعف عقلها كما يُقال فلما لا يسعى في تكميله بالتربية والتعليم ... هذا برهان ساطع على أنانيته . يداوي نقص التربية بالحجاب . يداوي شراً بشر."[٢] ونرى هيكلاً صريحاً جداً في معالجة جوهر القضية - فالمتمسكون بالحجاب كما يقول ، يرونه رادعاً للتهتك المنتشر في اوروبا بسبب الحرية ، وعلى هذا يعترض هيكل قائلاً بأن في مصر فحشاً ليس بالقليل ، بل ان الفساد ظاهر ، فالحجاب لا يستر ولا يأتي بقليل او بكثير مما يتخوف البعض . بل يجب ان تُربى النفوس الناشئة على الحرية[٣] . ونواحي الانحطاط التي يخلفها الحجاب ، حسب رأي هيكل متعددة . فهو يقارن بين الحياة في مصر ، والحياة في بلدان اوروبا حيث

---

* خطأ لغوي من هيكل .

١- الجريدة ، من مقالة «المرأة والحجاب» . ع ٤٩٨ ، ٢٤ اكتوبر ١٩٠٨ هنا الطبيعة بالنسبة لهيكل رمز للحرية .

٢- نفسه .

٣- الجريدة ، مقالة "قضية المرأة" - الحجاب (١) ، ع ١٠٤٣ ، ١٠٣ أغسطس ١٩١٠.

يعيش الفرد «حياة كاملة» على حد تعبيره . يقول في هذا الصدد : «مر حيث شئت في بلاد تعرف قيمة المرأة ولو بعض المعرفة ترى لها كل شيء ومن أجلها يكد العامل قوته ، ويجهد الشاعر خياله وينسق الكاتب روايته ، ويسعى كل ساعٍ ليجعل الوجود الخشن مهاداً وثيراً.»[1] اما في مصر ، وبسبب الحجاب فليس هناك ، حسبما يرى هيكل، ادب لغة مخصوص تتجلى فيه الروح المصرية مما يضطر المصريين الى انتحال ادب الغير ، ثم ان فن التمثيل معدوم ، والروايات المصرية تُعد على الأصابع ، والنقش والتصوير كذلك قليل ، واللغة القومية محتقرة وغير موجودة تقريباً ، وتاريخ العظماء غامض. ثم يعطي هيكل امثلة عن العظماء القدماء ، فيقول ان ارق الشعر هو نتاج جماعة المحبين امثال عنترة وامرىء القيس وعمر بن ابي ربيعة وجميل وغيرهم ، والمصورون الملهمون امثال روفائيل، تتجلى في صورهم العذارى التائهات في احلامهن ، وفي مصر لا تجد شيئاً من كل هذا [2] .

ومن مساوىء الحجاب ، فصله بين الرجل والمرأة بشكل يجعل اختيار الزوجة في غاية الصعوبة [3] ، وهذه مسألة هامة بالنسبة لمفكر مثقف مثل هيكل يؤمن بأن الزوجة المتعلمة الصالحة هي شريكة لزوجها وصديقه الحميم ، وانها القوة العاقلة التي يسترشد بها في مجاهل الحياة [4] . ولا يقف هيكل عند القول بأن الحجاب يجعل اختيار الزوجة صعباً بل يجعله مانعاً لصلة الحب . ويتكلم بصراحة عن رابطة الحب

١- الجريدة ، قضية المرأة - الحجاب (٢) ، ع ١٠٤٤ ، ١٤ أغسطس ١٩١٠ .

٢- الجريدة ، قضية المرأة - الحجاب (٣) ، ع ١٠٤٥ ، ١٥ أغسطس ١٩١٠ .

٣- الجريدة ، قضية المرأة - الحجاب (٥) ، ع ١٠٥٠ ، ٢١ أغسطس ١٩١٠.

٤- الجريدة ، من مقالة بعنوان «الزوجة» ، ع ٥١٠ ، ١٠ نوفمبر ١٩٠٨ .

الشريفة التي تقوم بين الجنسين والتي أساسها الثقة ، فيرى انه يجب هدم عادة الحجاب الذي يقف في وجه هذه العلة [١] . اما الوسيلة لرفع الحجاب والتي يعود هيكل اليها دوماً فهي التربية - تربية البنات على حب الحرية ، وتربيتهن على تقدير الجمال الخارجي . فالتربية هي الأساس لرقي المرأة وخلع الحجاب [٢] .

اما في مقالته العاشرة في سلسلة «قضية المرأة - الحجاب» فإنه يدعونا لنطرح سؤالاً آخر : هل خامر هيكل نوع من الاستسلام او التراجع بعد كل الأفكار الاصلاحية التحررية التي طرحها سابقاً ؟ او هل هي مرارة الأزمة التي تنشأ عند اصطدام عقليتين مختلفتين من بيئتين مختلفتين - يقول هيكل :

«الشبان امثالي حينما يعودون الى مصر يضطرون الى أن يقضوا حياة ساكنة فاقدة كل شهية ، لا هي بالقديمة البكر حين كل شيء يسعد صاحبه في وحشته ، ولا بالمتمدنة ذات الحركة الهائلة والابداع جديداً كل يوم . حياة غير متناسبة تضطرهم ان يتأملوا كثيراً . اني ناصح كل آتٍ الى أوروبا ان يبتعد عن حياتها قدر المستطاع وان يحفظ مصريته رغماً عن كل ما يحيط به .» [٣]

لا شك ان هذا القول صادر عن معاناة الكاتب الذي وجد نفسه في ازمة بين اتباع اساليب الحضارة الأوروبية وبين جذب الواقع المصري له ، فوقع في تناقض بين حرية يؤمن بها وبين عادات مفروضة

١- الجريدة ، من مقالة بعنوان «نتيجة الحب» ع ٦١٧ ، ٢٢ مارس ١٩٠٩ .

٢- الجريدة ، من مقالة قضية المرأة – الحجاب (٩)، ع١٠٥٨، ٣١ اغسطس ١٩١٠.

٣- الجريدة ، من مقالة قضية المرأة - الحجاب (١٠) ، ع ١٠٦٠ ، ٢ سبتمبر ١٩١٠.

عليه ، لكن نستطيع ان نقول ان هذا التناقض كان عابراً لأن هيكلاً سيواصل فيما بعد دعوته الى اقتباس المفاهيم الغربية السائدة التي تؤدي حسب رأيه الى التطور . فهو في معرض حديثه عن انتمائه للجمعية الاسلامية في باريس يقول انه وجد فيها شباناً « من خيرة طلاب العلم يلتهبون غيرة وحرية وحماساً من اجل مصالح الشرق والشرقيين ويريدون وقد رأوا تلك الحركة الكبيرة في الغرب وخالطوا أصحابها ان ينبهوا الشرق الى ان العمل والجد اول ما يجب وكل ما يجب لرقيه ورفعته »[1] ، ثم يعطي الغرب نموذجاً كي يحتذيه الشرق ، فهو قد نهض من عصوره المظلمة والقرون الوسطى بعد أن أرهقه الاستبداد ، ويعود الفضل في ذلك الى كتّابه وكبار علمائه الذين بحثوا عن علله وعادوا الى كتب الفلسفة اليونانية وكتب القدماء حتى تكونت لهم فلسفتهم الخاصة. [2]

٢. الحرية :

أمن هيكل بمذهب اللبيراليين وتمسك به طوال حياته . فهو يقرر"ان الفرد حر بالسليقة ويجب ان يبقى حراً منفرداً ومجتمعاً وانه اعرف بمصلحة نفسه من سواه . يعرف موضع النقص فيسده ومقدار الكمال فيجاهد للوصول اليه." [3] ومقالاته في الجريدة عن الحرية كثيرة ، قدمنا منها البعض عن الحرية الاجتماعية المتمثلة بحرية المرأة. وهذه مقالة بعنوان «مصير الأمم» ، يطرق فيها هيكل باب الحرية

١- الجريدة ، من مقالة بعنوان «الجمعية الاسلامية في باريس» ، ع ٨٦٢ ، ١٢ يناير ١٩١٠.

٢- نفسه .

٣- الجريدة ، من مقالة بعنوان «جمال الحرية» ، ع ٤٢٦ ، ١ أغسطس ١٩٠٨ .

السياسية ، فهو يرى ان الأمم سائرة لنيل استقلالها وحريتها ، فالقرن العشرون خير دليل لما حمله ويحمله في طياته من ثورات هادفة الى تحقيق الجمهوريات والدساتير ؛ ثورات على أنواع الملك المستبد ، مثل الثورة العثمانية والثورة الفارسية ومطالبة الصينين بالدستور وانقلاب حكومة البرتغال الى جمهورية ، وتوقع مثل هذا التغيير في اسبانيا .[١] وبرغم تفاؤله يجد مصر في الوقت الراهن بلداً بعيداً عن التقدم ، واقف الحركة بسبب الأمراض السياسية والاجتماعية الكثيرة التي يعاني منها .[٢] من هذه الأمراض «الخلط في تطبيق المبادىء» (الأمر الذي كان يناقض شخصية هيكل وسلوكه) ، ويعطي مثلاً على ذلك الحزب الواحد وصحيفته اللذين يدافعان عن الحرية والاستقلال ثم يدعوان في الوقت ذاته للخضوع لسلطان دولة أجنبية [٣] (واضح انه يشير الى الحزب الوطني) . اما فيما يتعلق بالحرية الفكرية فلهيكل مقالة خطيرة في الجريدة بعنوان «أكبر الذنوب» ؛ يسخر فيها من المحافظين الذين يعتبرون التفكير ذنباً من أكبر الذنوب . فهو قد استنتج ذلك من حادثة مرت به عندما كان جالساً في مجلس يُذكر فيه شعر ابي العلاء بالاستحسان . لكن عندما ذُكر بيته القائل :

افيقوا افيقوا يا غواة فإنما ديانتكم مكر من القدماء

جن جنون الحاضرين ورموا أبا العلاء بالكفر والالحاد . بعد ان يذكر هيكل هذه الحادثة يتساءل في منتهى البساطة : ما كان ذنب الرجل

١- الجريدة ، ع ١١١٣ ، ٨ نوفمبر ١٩١٠ .

٢- الجريدة ، من مقالة بعنوان «هل نحن الى الأمام» ، ع ٨٩٢ ، ١٦ فبراير ١٩١٠ .

٣- نفسه .

عندهم ؟ ولم قاموا ضده بهذ الشكل الفظيع ؟ ثم يدافع عن ابي العلاء الذي لم يقم "بسوى ما تدعون اليه من التفكير فذهب الى غير مذهبكم ووصل به عقله الى غير ما تعتقدون . فهل تحملونه بعد ذلك ذنباً كبيراً؟" ويرى ان هذه هي الحالة الحاضرة في مصر ، يرمون كل مفكر بالسوء ويسمونه مارقاً وكافراً وكأنه ارتكب أكبر الذنوب . ثم يقول «ان الضلال كل الضلال هو الاقتناع بما لا يقبله العقل والايمان بما يرفض» ، ويعترف دون أخذ أية حيطة ، وهو الذي سيُرمى فيما بعد بالالحاد لانتمائه الى صفوف المفكرين اللبراليين ذوي نمط التفكير الغربي ، يعترف بأن تفكيره يختلف عن تفكير المصريين فيقول : «وما أطالب المفكرين ان يصلوا الى ما وصل اليه ابو العلاء لأني أكون اذ ذاك أنا الآخر طالباً القضاء على حرية الفكر . بل ان الذي وصلت اليه أنا شخصياً ليس هو من رأي المصري في شيء . ولكني اكرر لهم لا تضعوا أمام حريتكم الفكرية عقبات تصدها ، بل ذروها تختار من المسارح ما يوافقها .. فإذا استقرت على نتيجة فأخرجوا هاته النتيجة للناس وضعوها موضع المناقشة وجاهدوا لادخالها في سير الأفكار العامة تكونوا بذلك قدمتم خدمة للانسانية وزدتم في الثروة العلمية والفكرية .» [1]

٣- التربية والتعليم :

وهو موضوع آخر من موضوعات الإصلاح التي كتب فيها هيكل، وموضوعات التربية ليست جديدة على الجريدة ، فمنذ عام ١٩٠٧ مع بداية ظهورها ، نرى محمد السباعي يترجم على صفحاتها كتاب

١- الجريدة ، من مقالة «أكبر الذنوب» ، ع١١٥٨ ، يناير ١٩١١ .

«التربية» لسبنسر . كما ان اساتذته امثال محمد عبده [١] ولطفي السيد وقاسم أمين عُنوا شديد العناية بمسائل التربية . في مقالتين بعنوان «الاصلاح الاجتماعي» احداهما تدور حول التربية الأولى ، والثانية تدور حول التربية والتعليم ، يصف هيكل سوء طرق التربية المنزلية ، وسوء طرق التعليم السائدة . ويدعو لاصلاح شؤونهما [٢] . اما فيما يختص بالتربية فإنه يجد ان مبدأ الحرية المطلقة في التربية هو أحسن المبادىء ؛ ذلك لأن الغرائز الموجودة في النفس البشرية لا يمكن قهرها بقوى خارجية . وهذه النزعات او الغرائز فيها أكثر الخير ويجب ان توجه بتأثير المحيط التي هي فيه بشكل يتفق مع نفع الجمعية ، لأن الأخلاق في الأصل موضوعة لنفع الجمعية [٣] . ومن هذا المنطلق ، منطلق مبدأ الحرية في التربية يعارض هيكل التربية الدينية ، او تلقين الانسان قواعد دينية جديدة عليه من قواعد الخلق ، فيقول : « الناس الذين ربوا تربية دينية هم أميل الناس للفساد وابعدهم عن الخلق الحسن لأنها بنيت على قواعد خارجية .. وبما ان الناس بطبيعتهم مدفوعين [٤] لقضاء اغراضهم فترى مثل هذا الشخص يسعى لغرضه من طرق خفية خبيثة» . ويبدو ان هيكلاً اراد ان يحمي نفسه من تهمة التعرض للدين الاسلامي دون سواه فقال ان هذه الملاحظة لاحظها في

١- ذكرنا في موضع آخر من هذه الرسالة ان الشيخ محمد عبده ترجم كتاب سبنسر في التربية عن اللغة الفرنسية ، ولكنه لم ينشر .

٢- الجريدة ، اعداد ١٦٩٢ ، ١٦٩٣ في تاريخ ٣ و ٥ اكتوبر ١٩١٢.

٣- الجريدة ، من مقالة بعنوان «قواعد الخلق» ، ع ١٦٥٧ ، ٢١ أغسطس ١٩١٢.

٤- هذا خطأ نحوي من هيكل .

مصر ولاحظها في أوروبا على حد سواء.[١] بالنسبة اليه التعليم هام في التربية لكن الوسط ايضاً قام بدور هام ، والعادة هي أهم من الاثنين معاً ، لأن التربية الاستقلالية «تتكون من اعتياد الشخص على أن يكون حراً اكثر ما يمكن في كل عمله.»[٢]

اما بشأن التعليم العالي ، فله مقالة بعنوان «التعليم العالي في مصر" يشدد فيها على ضرورة الاهتمام ونشر التعليم العالي دون ان يقلل من أهمية التعليم «الواطي» .[٣] لكن هيكلاً وبحكم اتجاهه الفكري ومكانته الاجتماعية ، كان يعتقد دوماً بوجوب قيادة النخبة المثقفة للمجتمع . وعلى هذا الأساس نقارن اهتمامه بالتعليم «الواطي» على حد تعبيره ، الذي هو لازم للفلاح او العامل لفهم قيمة الحياة ، واهتمامه من ناحية ثانية بالتعليم العالي الذي يخوّل العلماء والمفكرين امساك زمام الأمور وتصريف حياة الأمة ؛ ولذلك يرى وجوب نشر التعليم العالي بصورة اسرع من التعليم الواطي لكي تحس «الطبقات الواطئة» ان هناك رؤوساً تقود المجموع كله قيادة علمية فتتبع هذه الرؤوس ، لأن كثيراً من المصائب التي حلت بالأمم كانت مبنية على جهل قادتها لعدم وجود العلماء فيها .»[٤]

٤- الأدب واللغة :

في عام ١٩١١ ، بدأ هيكل يطرق باب الأدب ويعالج مشكلاته ؛ ونستطيع تصنيف مقالاته الأدبية الموجودة في جريدة الجريدة في ثلاث

١- الجريدة ، من مقالة بعنوان "قواعد الخلق" ، ع ١٦٥٧ ، ٢١ أغسطس ١٩١٢.

٢- الجريدة ، من مقالة بعنوان «التربية الاستقلالية» ، ع ١٦٨٠ ، ١٩ سبتمبر ١٩١٢.

٣- الجريدة ، ع ١٦٥٢ ، ٢٥ يوليه ١٩١٢ .

٤- نفسه .

فئـات :

- الفئة الأولى : خمس مقالات تعالج مسائل الكتاب والكتابة في مصر والركود الظاهر في اللغة والأدب ، وهي بعناوين : «الكتابة في مصر» ، «تواكل الكتاب» ، «أساليب الكتابة» (مقالتان) ، «فوضى الأدب» ، «فوضى اللغة» .

الفئة الثانية : وهي مقالات نقدية ، تدور حول كتابات قاسم أمين ، والرافعي ، وجرجي زيدان (خمس مقالات) .

الفئة الثالثة : وهي ، ان صح التعبير ، محاولات في القصة القصيرة تتمثل في «سحر الطبيعة» ، و «انتقام من الجمود» ، و «في انتظار الفرج» .

اذا راجعنا مقالات الفئة الأولى نجد هيكلاً يقسم الكتّاب الى جماعات : منهم من اتبع الاسلوب الجاهلي القديم ومنهم من أخذ عن الغرب الاسلوب والمعاني وحام «خيالهم حول تلك البلاد التي لم تشرق عليها شمس شرقية» . والطائفة الثالثة هي من اخذت عن الغرب فقط قاعدته في الكتابة المتميزة بالسهولة والسلاسة . وهذه الطائفة هي المفضلة عند هيكل لأنها تكتب بأسلوب جميل ما توحيه «طبيعة مصر الجميلة»[١] .

وفي عام ١٩١٢ ، نجد هيكلاً وقد بدأ يضرب على وتر الأدب القومي . ففي مقالتين متتابعتين بعنوان «أساليب الكتابة» نقرأ آراء جديدة وخطيرة ، يحمله على الاعتراف بها ما قرأه في مجلة «البيان» من مقطوعات لكتاب مختلفين بأساليب مختلفة جداً [الرافعي والعقاد والمازني ومحمد السباعي] منها الاسلوب القديم ومنها الاسلوب المسجع

١- الجريدة ، من مقالة «الكتابة والكتاب في مصر» ع ١٢٤٦ ، ١٩ ابريل ١٩١١ .

ومنها الاسلوب الغربي ، ويعلّق على ذلك : «يُخيل الى وانا اقرأ البيان اني انتقل من ديار قوم لديار آخرين كلما انتقلت من مقالة لمقالة مع انها جميعاً من باب واحد ، باب ادب اللغة ، وابعدهم عند ديار قومي انا هو ابو السامي (الرافعي) .»[1] ثم يبدأ بالكلام وربما للمرة الأولى عن المجموع المصري ووحدة الامة ووحدة اللغة والفكر فيقول : « يجب ان يكون المجموع المصري ابن يومه وان يكون متجانس الاجزاء بحيث يستطيع ان يفهم كل واحد صاحبه من غير ان يضطر للرجوع الى القاموس عشر مرات في كل صحيفة . يجب ان يعلم الناس انهم جميعاً اليوم متضامنون لتكوين وحدة الأمة حتى تستطيع تلك الوحدة ان تكوّن تقدم التاريخ وتضامنه . أمّا ان يكونوا متسلسلين مع العصور ، واحد يعيش مع العرب اهل الجاهلية وآخر يعيش مع الصدر الأول والثالث يتمتع بصحبة كتاب العباسيين ورابع يرتع مع الافرنج ، وان تخرج مصر من بين ذلك كله ولا وحدة لها في اللغة او الفكر او طريق الفهم فذلك ما يستحيل معه تكوين امة ترجو ما نرجوه اليوم لمصر .»[2]

اما اللون الأمي الذي يتكلم عنه هيكل ، والذي اقتبسه من جملة المفاهيم التي اقتبسها عن الغرب ، فهو من علامات الحياة في الامة كما يقول .[3] ويحمل هيكل كذلك على أولئك الذين يسعون وراء انتقاء الألفاظ الفخمة - وهم كثرة من المصريين - لأن ذلك يحد من تفكيرهم ويجعلهم حُفّاظاً ينقلون الفاظاً فقط .[4]

اما الجديد بالنسبة للمقالة الثانية ، فهو محاولة هيكل

١- الجريدة ، من مقالة "اساليب الكتابة(١)"، ع ١٤٩٩، ١٧ فبراير ١٩١٢ .

٢- نفسه .

٣- نفسه .

٤- نفسه .

اقناعنا بوجوب ايجاد لغة تحمل طابعاً مصرياً مستشهداً بامثلة من التاريخ على ذلك : فحسب رأيه ، ان اللغة العربية قبل نزول القرآن كانت مختلفة اللهجات ، ولما جاء القرآن بلهجة قريش توحدت اللغة ولكنها صارت برغم ذلك تنتقل في اشكال التعبير من جيل الى جيل مع انها كانت محكومة بمدنية واحدة هي المدنية العربية . ويمثل بالاختلاف الظاهر من شعر حسان الى شعر الوليد بن يزيد الى شعر ابي نواس الى الشعر الاندلسي [١] . وينطلق من هذه المقدمة ليَعرض حجته فيقول :

«إذن فاذا اختلف الزمان ليس فقط من القرن الاول الى القرن الخامس بل الى القرن الرابع عشر هجري ، وانتقلت اللغة من بلد العرب الى مصر فان طبيعياً ان تأخذ هي اللون الامي في مصر . وان يكون الذي يريد الخروج بها عن هذا الطريق خارجاً اولاً على الطبيعة وثانياً على مصر والمصريين ويستحق بالتالي ان لا يقرأه المصريون الا مع التحفظ والروية لعلهم يفهمونه.» [٢]

اذاً كان هيكل من دعاة التجديد في الادب واللغة بشكل يتلائم مع الواقع المصري . كان يؤمن بحرية اختيار الكاتب لألفاظه ولو كانت خارجة عن نطاق المعاجم والقواميس ؛ ويرى ان استخدام الكاتب المجيد لهذه الألفاظ يُدخلها بطبيعة الحال في دائرة المعاجم . فلماذا إضاعة الوقت في البحث عما اذا كانت احدى الكلمات تدخل في لغة الكتابة او لا تدخل.[٣]

ولهيكل موقف واضح من اللهجة العامية ، ظل محافظاً عليه

١- الجريدة ، أساليب الكتابة (٢) ، ع ١٥١٦ ، ٧ مارس ١٩١٢ .

٢- نفسه ، واللون الأمي هو اعتبار الوسط والزمان والمكان الذي تعيش فيه (متاثراً بشكل واضح بنظرية تين) .

٣- الجريدة ، من مقالة بعنوان «فوضى اللغة» ، ع ١٨٦٧ ، ٣ مايو ١٩١٣ .

طوال حياته . فهو بدافع اعتزازه بمصريته ، لا يستطيع الا ان يُحبذ استخدام اللغة العامية في الكتابة . العقبة الوحيدة التي يجدها هي اختلاف اللهجات . ولولا هذا الاختلاف لانطلق ، دون تحفظ ، بالدعوة للكتابة باللغة العامية المصرية . ونلاحظ انه لم يكترث لاختلاف اللهجات العامية بين الأقطار العربية ، فإن اختلاف اللهجات بينها اشد من اختلاف اللهجات بين مناطق البلد الواحد . ونورد هذه النبذة للدلالة على رأيه في اللغة العامية :

«... هل يعني ان ننزل بالكتابة الى مستوى اللغة العامية المصرية ..؟ لو انني ارى هاته اللغة صالحة لذلك لما ترددت في الجواب نعم . غير انني مع الأسف اراها غير صالحة . اولا لأنها لغة لا قواعد لها ولأنه قد بلغ من مختلف اللهجات في التكلم بها ان صرنا لا نعرف اي هذه اللهجات ارشق واليق لأن تكون لهجة الكتابة . فإننا جماعة الذين وُلدوا وتربوا في الريف ، نفضل لهجة بلادنا عن لهجة العاصمة ، وبلادنا تختلف لهجاتها ما بين اقاصي الصعيد الى شمال الوجه البحري اختلافاً يجعل لهجة الواحد غير مفهومة مطلقاً عند الآخر . وفوق هذا لم يُعن احد بهذه اللغة العامية عناية تجعلها تستلفت نظرنا ونرى فيها جمالاً . ومهما كنت أعجب برواية الشيخ متلوف وبقية روايات عثمان جلال فاني اعزو هذا الاعجاب من جانبي لما تثيره هذه الروايات باسمائها واشخاصها ومناظرها من الخيالات المصرية والشرقية بقدر ما اعزوه للغة فيها . واحسست لو ان لغتها عربية مصرية مأخوذة من وسطنا المصري ومناظرها المصرية لما كنت اقل بها اعجاباً .»[١]

وبتأثير من لطفي السيد ، وكما بينا سابقاً عند الكلام عن

١- الجريدة ، من مقالة بعنوان "فوضى اللغة" ، ع ١٨٦٧، ٣ مايو ١٩١٣ .

رواية زينب ، كان هيكل يدعو دوماً لتمصير اللغة ولكي يستمد الكاتب مادة كتابته من الحاضر الحي بمعانيه والفاظه وتراكيبه لا من الماضي الذي يصفه بأنه «مُنبتّ ، حلو الذكرى ، قليل الأثر في الحقيقة.»[١]

ونود هنا ان نشير الى عبارته الطريفة التي يختم بها مقالته المذكورة آنفاً والتي ان دلت على شيء فإنها تدل على المناقشات المحتدمة التي كانت دائرة آنذاك بين انصار القديم وانصار الجديد . يقول:«ادعو لذلك وأمل ان لا يُسيء فهم كلامي احد فليس عندي من الوقت ما يسمح لي بالرد عليه. »[٢]

اما المقالات النقدية التي كتبها في الجريدة فهي بشكل عام تحمل على كتابات المحافظين لتمسكهم باسلوب القدماء ، واولهم مصطفى صادق الرافعي . ليس هذا فقط بل ان هيكلاً بدافع نزعته المصرية يغمز الرافعي وهو السوري المتمصر بقوله : «يخيل لي ان الكاتب الذي ينتزع نفسه من الوسط الذي يعيش فيه وينتحل في اسلوبه وخيالاته وافكاره صوراً ليست له ولا لقومه ، شخص شارد عن الجماعة التي يقيم بينها خارج عليها منكر نفسه واصحابه . والا فماذا الذي يدعو كاتباً ، عاش في مصر وبين المصريين ليستمطر الغيث او يعشق البادية ما لم يكن منكراً مصر ومقامه فيها .»[٣] ويستحسن هيكل اسلوب جرجي زيدان لسهولته وبساطته ، ويتعرض لكتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» بخمس مقالات في الجريدة يبين مواطن

١- الجريدة ، من مقالة بعنوان "فوضى اللغة" ، ع ١٨٦٧ ، ٣ مايو ١٩١٣.

٢- نفسه .

٣- الجريدة ، من مقالة «تاريخ ادب العرب للرافعي» ، ع ١٥٥٩ ، ٢٨ ابريل ١٩١٢ . والمقالة موجودة في كتاب في اوقات الفراغ ص ١٩٨ .

الحُسن ومواطن الضعف فيه [١] . اما قاسم أمين فإنه في مرتبة اخرى - مرتبة مميزة ينظر إليها هيكل كمثل أعلى فآثاره هي «درر غوالٍ تحتفظ بها مصر» ؛ وهو معجب بقاسم أمين لأنه من الأوائل الذين دعوا لحرية الفكر فيها وكسر القيود العتيقة ، واسلوبه ، اي اسلوب قاسم امين ، «مع ما يحويه من الجمال والموسيقى هو الاسلوب الذي يصلح في «بلد ناعمة التربية رفيعة النفوس رقيقة الاحساس لو لم تكن موانع العادة الثابتة لكانت بجمال مزارعها الواسعة ونجومها وكواكبها وليالي الصيف البديعة فيها خير دار للشعر والأدب الرفيع .» [٢] ولا يكتفي هيكل بمدح قاسم وأعماله بل يهاجم خصومه وينعتهم بالجهل والتعصب ويدعو ، من جهة اخرى اصدقاء قاسم أمين لتشكيل عصبة تحيي ذِكراه كل عام. [٣]

الفئة الثالثة ، حسب تقسيمنا السابق ، هي ثلاث قصص قصيرة ، قد لا يعتبرها النقاد قصصاً بالمعنى الفني الدقيق . ففي «سحر الطبيعة» ، التي قد تكون أقرب الى مقالة تتغنى بجمال المنصورة ثمة ملاحظة جديرة بالتسجيل ، وهي استخدام العامية في الحوار . وهذا يفسر نزوع هيكل الى استخدام العامية المصرية في فترة مبكرة وهي الفترة نفسها التي كتب فيها زينب . ومن الأمثلة على العامية المستخدمة قول سعيد بطل القصة : «اما النهار ده عندنا فسحة

١- الجريدة ، اعداد ١٦٢٣ و ١٦٢٤ و ١٦٢٥ و ١٦٢٦ و ١٦٢٧ بتاريخ ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، يوليه ١٩١٢ . وقد جمع بعضها في كتاب «في أوقات الفراغ» .

٢- الجريدة ، من مقالة بعنوان «ذكرى قاسم أمين» ، ع ١٢٤٨ ، ٢٢ ابريل ١٩١١.

٣- نفسه .

لكن عال» . وقول فاطمة : « مش يفضل لما الشمس تنزل » . و «يا سلام اد ايه يا سعيد انا مبسوطة » . كما استخدم هيكل بعض الألفاظ العامية مثل : «الترصينة» و «القهاوي» و «البلكون». [١]

وعاود هيكل التجربة مرة ثانية في قصة «في انتظار الفرج» فاستخدم العامية أيضاً في الحوار . اما موضوع هذه القصة فمن الموضوعات التي ستكرر عند هيكل في معظم قصصه : المرأة ضحية جهلها وضحية المجتمع واستبداد الرجل . وهنا ، وكما في زينب ، تُزوج الفتاة منيرة بغير ارادتها . فترى الحل في الانتحار ليلة زفافها ، غير ان الرسالة التي تتركها لأخيها تحمل آراء هيكل في الحرية : حرية الاختيار والفكر والعمل ... تقول : «أبوَيَّ قضيا علي مقدماً بالشقاء لأنهما لم يسمعا ارادتي ... اموت قانعة لأني اذا لم اكن قد استطعت ان انفذ ارادتي على أبوي فقد استطعت ان انفذها على نفسي .» [٢]

الأقصوصة الثالثة ، «انتقام من الجمود» ، تبين ايضاً وجهاً من وجوه الظلم اللاحق بالمرأة . فتاة تُسلم نفسها لمن تحب باعتباره زوجها ، ثم تطلب إعلان زواجهما بعد حملها منه ، فيتهرب ويرفض الزواج نزولاً عند رغبة امه . فتقتله انتقاماً لشرفها الضائع. [٣]

حاولنا فيما تقدم ابراز النواحي الاصلاحية التي عالجها هيكل في مقالاته في جريدة الجريدة في المجالات الاجتماعية والتربوية والأدبية. اما الشؤون السياسية فتكاد تنحصر في عشر مقالات

١- الجريدة . «سحر الطبيعة» ، ع ١٢٤٠ ، ١٢ ابريل ١٩١١ .

٢- الجريدة ، «في انتظار الفرج» ، ع ١٢٥٢ ، ٢٧ ابريل ١٩١١ .

٣- الجريدة ، «انتقام من الجمود» ، ع ١٢٥١ ، ١٦ ابريل ١٩١١ . والقصة موجودة في كتاب «في أوقات الفراغ» ، ص ٢١٨ .

هامة؛ [١] وهذه المقالات تحمل العنوانين التاليين : المسألة المصرية (اربع مقالات) و«وجهتنا في السياسة» (ست مقالات) تكمن اهميتها في انها تطرح مسألة وجود الأمة المصرية ككيان مستقل بماضيه وحاضره . يقول هيكل:« لكل امة تكونت على التاريخ وحدة ذات مظاهر ابتدأت اصولها في الماضي القديم وبقيت يبين اثرها في كل عنصر من مكونات الأمة وكل عمل من اعمالها ... ما يؤسف له ان كثيرين نسوا ان لنا نحن بناء يختلف عن بناء غيرنا من الأمم . نسوا ان لنا موقعاً في الوجود مخصوصاً وماضياً يعمل في حاضرنا ولغة لا تزال رغما عن عمرها الطويل في دور التكوين وعادات واخلاقاً ونظاماً فكرياً خاصاً بنا.»[٢]

ثم يستشهد بأهل الأندلس الذين كونوا لنفسهم تاريخاً خاصاً برغم سيطرة المدنية العربية ، ويتساءل لماذا لا يكون المصريون مثل اهل الأندلس ؛ لأن مصر ، كما يقول ، تمتاز باقليم مختلف وطبيعة مختلفة وروح خاصة في الذوق والفكر ، فلمَ لا يكون ذلك سبباً في انشاء وحدة مصرية. [٣] ويستعيد هيكل ذكرى عرابي والثورة العرابية معتبراً اياها ثورة مصرية ضد حكم الاتراك الاستبدادي[٤]، معتبراً أن نيل الاستقلال وجعل «مصر للمصريين» لا يتحقق دون العمل الجدي ، والاحساس بواجبات الحكومة وواجبات المواطنين . ويكرر هيكل فكرة لطفي السيد بان «استقلالنا بيدنا نحن لا بيد غيرنا ، وقبل ان نطالب الاجنبي

١- له مقالات اخرى عن موقف مصر من الحرب الايطالية على ليبيا ولكنها ليست من صلب هذا البحث .

٢- الجريدة ، من مقالة «المسألة المصرية» (٢) ، ع ١٣٧١ / ١٤ سبتمبر ١٩١١ .

٣- نفسه .

٤- الجريدة ، من مقالة المسألة المصرية (٣) ، ع ١٣٧٧ / ٢١ سبتمبر ١٩١١ .

بالحرية يجب ان نحس بها نحن». [١]

في مقالاته المعنونة «وجهتنا في السياسة» يعالج قضيتين هما القضيتان الرئيستان في تفكيره : الوحدة القومية والحرية المطلقة. هو يريد ان تكون مصر أمة موحدة ومجموعاً متضامناً «مكوناً من كل ذرة مادية او فكرية او نفسية موجودة بين السماء والأرض في حدود الوادي». [٢] ويكون لهذه الأمة علاقات مادية وسياسية واقتصادية ببقية أمم الأرض على أساس من المنفعة . والمنفعة في رأي هيكل انما يتبادلها الشخصان اللذان يملك كل منهما حريته وقوته على التصرف . [٣]

وليشدد على ضرورة صرف المصريين جهودهم لترقية بلادهم، يبيُن انه عبر التاريخ ، القديم والحديث ، لم تقف اي دولة بجانب مصر لمساعدتها . فتركيا تخلت عن مصر وكذلك روسيا وانجلترا وفرنسا. [٤] حتى ان الاعتماد على الحكومة المصرية لا يجدي نفعاً في نظره لأنه ثبت تقصيرها في شتى المجالات . فلم يبقَ اذن سوى ان يقوم كل فرد من ناحيته بالعمل النافع لبلده ليتسنى له ان يحل محل الاجانب. [٥] وهؤلاء الأجانب (ويقصد بهم الأوروبيين) يراهم منافسين للمصريين في جميع الأعمال المهمة ، والمشروعات الكبيرة في البلد ، عدا عن ان المصريين يُوغلون كل سنة في المديونية بينما يرتقي الأجانب في

١- الجريدة ، من مقالة «المسالة المصرية» (٤) ، ع ١٣٨١ ، ٣٠ سبتمبر ١٩١١ .

٢- الجريدة ، من مقالة «وجهتنا في السياسة» (١) ، ع ١٤٠٥ ، ٢٨ اكتوبر ١٩١١.

٣- نفسه .

٤- الجريدة ، مقالة «وجهتنا في السياسة» (٢) ، ع ١٤٠٦ ، ٢٩ اكتوبر ١٩١١ .

٥- نفسه ، مقالة «وجهتنا في السياسة» (٣) ، ع ١٤٠٧ ، ٣٠ اكتوبر ١٩١١ .

الدائنية.» لذلك يدعو هيكل الى أخذ المدينة الغربية سلاحهم. [١]

اما الحرية المطلقة التي يتحدث عنها هيكل فهي حرية الفكر والقول والعمل وهي الاستقلال بالنسبة للفرد .[٢]

ويشيد هيكل بعبارة الكاتب الفرنسي «رابليه» الذي وضعها على باب داره : «اعمل ما شئت» . فهو يرى ان مصر خاضعة لحكم آخر غير حكم الانجليز هو حكم العادات والاوهام والاتكال على الصدف الذي يوقف حركة التفكير . ويضيف انه عندما قام من بين المصريين من دعا للحرية ونادى الناس للخروج من سخف عاداتهم واوهامهم (يقصد محمد عبده وقاسم أمين) لم يجد هؤلاء سوى الآذان الصماء.[٣] وفي إحدى المقالات يتحدث هيكل عن الحرية والاستبداد مبيناً نصيب مصر من كل منهما ، معترضاً على الحياة التي يحل فيها الأشخاص مكان المبادىء ، ويبرز المسألة في شكل معادلة : فالمجتمع الذي يسود فيه الأشخاص يقوم فيه الاستبداد ، بينما المجتمع الذي تسود فيه المبادىء تقوم فيه حرية الفكر ؛ يقول : «في مصر الحياة تقوم على أشخاص خالين من الفكر ومن الضمير ويعطيهم الناس من العامة *مكان الآلهة . والبلاد التي يقوم فيها الأشخاص مكان المبادىء محكوم عليها بأن تحيا حياة الأشخاص اي محكوم عليها بالموت .» [٤]

١- الجريدة ، مقالة «وجهتنا في السياسة» (٢) .

٢- الجريدة ، من مقالة «وجهتنا في السياسة (٦) ، ع ١٤١١ ، ٤ نوفمبر ١٩١١

٣- نفسه ، من مقالة «وجهتنا في السياسة» (٥) ، ع ١٤١٠ ، ٢ نوفمبر ١٩١١ .

* نلاحظ إضافة كلمة «العامة» التي لم يكن هيكل يثق بها . بالنسبة له النخبة هي صاحبة دور القيادة في المجتمع .

٤- الجريدة ، من مقالة "وجهتنا في السياسة"(٥) ، ع ١٤١٠ ، ٢ نوفمبر ١٩١١ .

ثم يتخلى هيكل عن لهجته المنطقية وينتقل الى لهجة ثائرة عندما يقول : « اذا قيّد الانجليز حكومتنا عن العمل ، وغلّت المنافسة الأجنبية ايدينا عن الدخول في حركة العالم الاقتصادية ، وبذرت حكومتنا في اموالنا . اذا حصل كل هذا وسلمنا به واستسلمنا له . فما الذي ضرب على عقولنا حتى لا نفكر وعلى أبصارنا حتى لا نرى .. السنا في الواقع عبيد انفسنا وعبيد الوهم قبل ان نكون عبيد غيرنا ؟ ألفنا السكون الى حد يكاد يشبه الموت .. فلم نُعنَ بأحداث حركة ايا كانت ولو لم تكلفنا شيئاً . يجب ان نخرج من هذا العالم الميت الذي نعيش فيه ... من أجل هذا يجب ان نطلق لأنفسنا العنان في الفكر والقول والعمل.» [١]

نرى مما تقدم ان هيكلاً شدد على أهمية الحرية في المجتمع ، ولم يكن هذا التركيز نابعاً من كونه احد معتنقي مبادىء الليبرالية الاوروبية فقط بل كان نابعاً ايضاً من شعوره القومي . وحرصه على استقلال مصر وتطورها . وما اثبته هذا البحث في الصفحات السابقة من ان الشعور القومي كان مرتبطاً بالدعوة الاصلاحية يوضحه هيكل في نهاية مقالاته "وجهتنا في السياسة" : «كتبت مقالاتي هذه لا كصحافي فلست اليوم من اهل هذه الصناعة ولكن كمصري يحس بمركز مصر ويرى الأمل يبرق أمامه احياناً حتى إذا قرأ بعض ما تكتبه آداب البلد اليومية [٢] ورأى تعلق الناس ، حتى الكتاب من اهل أمته ، بالعبودية انطفأ هذا البريق وخيّمت على نفس هذا المصري سحابة من

١- الجريدة ، من مقالة "وجهتنا في السياسة"(٥) ، ع ١٤١٠، ٢ نوفمبر ١٩١١ .

٢- يشير الى الصحافة التي يقول عنها في مكان آخر من المقالة انها صحافة حوادث واشخاص لا صحافة مبادىء .

اليأس .. وحبي لمصر حباً يحتل كل وجودي هو الذي لا يزال يجعلني هناك عند مرمى النظر في المستقبل مصر الجميلة . والذي يدفعني بالتالي لأنادي المصريين ان يكونوا جميعاً ذوي وحدة واحراراً ."[١]

قدمنا في هذا الفصل آراء هيكل من خلال كتاباته في جريدة الجريدة ، التي تظهر كدعوة إصلاحية تحررية بشكل عام فضلاً عن نفحات من الدعوة الصريحة للقومية . اما كتاباته في جريدة السياسة فسنراها في مجال الدعوة للقومية أشد نضوجاً وأكثر وضوحاً وهذا ما سيتناوله الفصل التالي .

١- الجريدة ، من مقالة "وجهتنا في السياسة"(٥)، ع ١٤١٠، ٢ نوفمبر ١٩١١ .

في جريدة السياسة :

عرفت جريدة الجريدة بتأييدها للقضايا الفكرية ، وعرفت صحيفة السياسة بتأييدها للدعوة القومية المصرية . بدأت صحيفة السياسة اليومية في العام ١٩٢٢ ورأس تحريرها محمد حسين هيكل حتى عام ١٩٣٦ حين عطّلها الأحرار الدستوريون ؛ ومع انها كانت صحيفة حزبية ناطقة بلسان حزب الأحرار الدستوريين ، فقد طرقت ابواب الأدب المصري الحديث واثارت مناقشات حوله خاضها كتاب مصريون امثال الاستاذ محمد الخضري وصادق عنبر ومصطفى صادق الرافعي ومحمد صبري وهيكل [١] ، وعلى صفحاتها كان يكتب طه حسين كل يوم أربعاء موضوعاً في الأدب واللغة ، وقد جمعت هذه الموضوعات في كتاب «حديث الأربعاء» فيما بعد - بعد اربع سنوات ، أي في عام ١٩٢٦ .

استقلّت السياسة الأسبوعية بموضوعات الفكر والأدب ، وتبنّت الدعوة إلى الأدب القومي ايماناً منها بأن هذه الدعوة من الأسس التي تجدد الحياة الفكرية والثقافية في مصر : ودافعت صحيفة السياسة عن حرية الرأي فناصرت أخطر كتابين ظهرا في تلك الآونة : كتاب علي عبد الرازق «الاسلام وأصول الحكم» (١٩٢٥) وكتاب طه حسين في «الشعر الجاهلي» (١٩٢٦) ، والمؤلفان من تلاميذ الجريدة ومن كتاب السياسة والمؤيدين لحزب الأحرار الدستوريين ، وقد تحملا تهمة الكفر

١- س . أ . ع ٢٣ ، ١٤ أغسطس ١٩٢٦ .

والالحاد لخروجهما عن القواعد الدينية .[١] ويشيد طه حسين بموقف هيكل ودفاعه عن حرية الرأي بقوله : «دعني اشكر لك هذا الثناء واجزيك به ثناء مثله إن عجزت ان اجزيك ثناء خيراً منه ، لا لأنك اثنيت علي ونوهت بكتابي فحسب بل لأنك وجدت في نفسك هذه الشجاعة الخلقية التي مكنتك من أن تجهر في صحيفتك بالثناء على هذا الكتاب وصاحبه ... اني لأرجو ان يثمر موقفك هذا .. فيوجد في مصر قوم يؤمنون بأن حرية العلم يجب ان تعلو وان تكون مقدسة كالحرية السياسية. »[٢] ولما كان هيكل ، شأن تلاميذ الجريدة ، يؤمن بضرورة الاقتباس عن الغرب فكرياً وحضارياً فقد تنوعت المقالات في صحيفته تنوعاً كبيراً جعلها تسهم دون شك في خلق تيار ثقافي كبير وقتذاك . فقد عُنيت السياسة الأسبوعية بنقل الفكر الغربي وتحدثت عن كبار رجاله امثال هربرت سبنسر[٣] و «كانت» (Kant)[٤] . ودأبت على نقل مظاهر الحضارة الأروبية من معارض وأزياء وموضة وما يشابه ذلك . وما اهتمامها بوضع المرأة المصرية فإنها كانت تفرد ابواباً للتحدث عن المرأة في الدول الغربية قصد التنوير والمعرفة. فمثلاً نجد

١- يقول هيكل في المذكرات ج ١ ، ص ١٨٩ :« ونحن الذين تولينا تحرير السياسة كنا جميعاً ممن آمنوا بأن الشك اول مراتب اليقين ، وان كل رأي وكل فكرة قابلان للنقد ، وان الرأي الحر علامة الحياة ... وقد حاول خصومنا السياسيون ان يجدوا في دفاعنا عن حرية الرأي مطعناً علينا فرمونا بالإلحاد في الدين كما رمونا من قبل في السياسة بالمروق من الوطنية » .

٢- س . أ ، ع ٦٩ ، ٢ يوليه ١٩٢٧ .

٣- انظر مثلاً ، ع ٤٧ .

٤- انظر مثلاً ع ١٤ ، ١٢ يونية ١٩٢٦ .

مقالة عن تعليم البنت في روسيا [١] ، وأخرى عن وضع المرأة في بلجيكا، وأخرى عن اديبات انجلترا. [٢] ومنذ العدد ١٥٦ ، اصبحت الصحيفة تواظب على تخصيص قسم للقضايا النسائية دعته «قسم نسوي اجتماعي» ، وعهد الى مي زيادة بالاشراف على هذا القسم الذي فسح المجال أمام الكاتبات الناشئات للتعبير عن آرائهن . وتطرقت الصحيفة ايضاً وبشكل جرىء ، الى مسائل حسّاسة مثل وجوب اصلاح الأزهر ، وقضية العلم والدين ، وكان هيكل اول الكاتبين في هذه الشؤون ابتداءً من العدد الأول .

اما الأدب المصري وكل ما يتعلق بتنمية الشعور القومي المصري فكان له حصة الأسد في الصحيفة وفي قلب رئيس تحريرها على حد سواء . وقبل الانتقال للتحدث عن مقالات هيكل في هذا الصدد، نرى ان ننوه ، ولو بذكر بعض العناوين ، بموضوعات لكتاب قوميين آخرين لندل على الأهمية التي أسبغتها الصحيفة على الدعوة للقومية المصرية [٣] - من هذه العناوين :

- «هل ادّى المسرح المصري رسالته» (عدد ١٧٢ ، ٢٢ يونيو ١٩٢٩) .
- «الفاظ حية من اللغة المصرية القديمة» (عدد ١٨١ ، ٢٤ أغسطس ١٩٢٩). [٤]

١- س.أ. ع ١٥ ، ١٩ يونيه ١٩٢٦ .

٢- س.أ. ع ١٨٦ ، ٢٨ سبتمبر ١٩٢٩ .

٣- لمزيد من التفاصيل حول هذه الموضوعات وكتّابها راجع ملحم ، ص ص ٦٧ و٦٨.

٤- يشير الى ألفاظ فرعونية لا تزال تستخدم مثل : ختوم ، ثوم ، وحصاة ، صعتر . وهي سلسلة مقالات شارك فيها حسن صبحي ومرقس اسكندر ، وأحمد علي (المدرس بمدرسة الميناء القديمة آنذاك) .

- «في الأدب الفرعوني : قصة فرعونية «وردة» لشهدي عطية الشافعي (عدد ١٨٤ ، ١٤ سبتمبر ١٩٢٩) .

- «الحياة العقلية في مصر الفرعونية» للدكتور محمد غلاب (عدد ٢٠٨ ، ١ مارس ١٩٣٠) .

- «نريد ادباً قومياً ... وها هي الوسيلة» (عدد ١٨٠) .

- «الأدب الفرعوني» لمحمود عزت موسى [١] (عدد ١٧٩) .

- «ثياب المصريين القدماء» لحسن صبحي (عدد ٤١ ، ١ ديسمبر ١٩٢٦) .

- «الفن المصري القديم واثره في العالم» ، (عدد ٧ ، ابريل ١٩٢٦) .

- «قصص البردي» [٢] لحسن صبري ، (العدد ٣ ، ٢٧ مارس ١٩٢٦)

- «أثريات» ، و «صفحة أثرية». [٣]

وكان محمود تيمور ينشر قصصه تحت عنوان «قصة مصرية» ، منها مثلاً «الجنة» (عدد ١٤٨ ، ٥ يناير ١٩٢٩) والانفجار (عدد ١٥٤ ، ١٦ فبراير ١٩٢٩) . وقد ظهرت روايته «ابو علي عامل ارتيست» في سبعة اعداد حاملة عنوان : «رواية قصصية مصرية - مهداة الى جماعة الأدب القومي». [٤] وجماعة الأدب القومي هذه ، والتي كانت تسمى احياناً «رابطة دعوة الأدب القومي» كانت تهدف الى ايجاد دعوة

١- وهو يدعو الى وجود ادب قومي مستقل ، قائلاً بانه لم يقصر احد من الكتاب همه على وجود هذا الأدب كي يستحق لقب الكاتب القومي .

٢- وهو عنوان كتاب يضم قصصاً فرعونية مثل «حتف الأمير» و «جواد قادش» ، قدّم له هيكل .

٣- هذه الأبواب تتحدث مثلاً عن المكتشفات من مدافن وتماثيل ، والأعمال الزراعية والموسيقى عند قدماء المصريين .

٤- ابتداء من العدد ٢٣٥ ، ٦ سبتمبر ١٩٣٠ .

منظمة لتمصير الأدب ، اي التعبير عن واقع الحياة المصرية في الأدب. [١] ومن أعضاء هذه الرابطة : محمد زكي عبد القادر ومحمد الأسمر ومحمود عزت موسى ومحمد أمين حسونة وزكريا عبده ومعاوية محمد نور. [٢]

واللافت للنظر ان غلاف السياسة الأسبوعية كان رسماً فرعونياً هو صورة «حاملة النور» ، ثم استبدلت الصورة من العدد ١٠٦ بصورة «توت» إله الحكمة والكتابة والفن والعلم والأدب عند قدماء المصريين . وبقي هذا الغلاف حتى العدد ٢٠٥ (فبراير ١٩٣٠) ثم حل محله رسم كاريكاتوري ملون يعبر عن الأحداث الراهنة ، لكن لم يستمر هذا الغلاف طويلاً بل ألغي بعد سنة تقريباً ليعود الغلاف القديم مكانه.

أما الذي نشره هيكل في السياسة والسياسة الأسبوعية فليس بالقليل ، ويكفي ان نعرف ان معظم مادة كتبه الخمسة : تراجم مصرية وغربية وولدي وثورة الأدب والإيمان والمعرفة والفلسفة ، والشرق الجديد ، جمعت من مقالات السياسة والسياسة الأسبوعية . وسنحاول فيما يلي توضيح دعوته للقومية من خلال مقالاته في الفترة التي هي قيد البحث . وتوخيا للسهولة رأينا تقسيم المقالات بحسب موضوعاتها برغم ترابط هذه الموضوعات . فوجدناها تدخل في ابواب الأدب والتاريخ والفن والريف المصري .

أولاً - الأدب المصري :

الدعوة إلى التجديد في الأدب كانت تحمل طيّها دعوة الى خلق ادب مصري، ذلك لأن الأدب يبقى فاتراً اذا لم يتصل بقلب الكاتب

١- ملحم ، ص ٧١ .

٢- نفسه .

وعقله وحياته ، وبهذا الشأن يقول هيكل : «عندما نصف حياتنا وحياة آبائنا والبيئة التي انبتتنا والوراثة الكامنة فينا نصل بذلك حاضرنا بماضينا ونصور بذلك حياتنا وحياة قومنا .» [١]

يصدر نداء هيكل لاستلهام الأدب القومي ، من جمال الطبيعة والريف المصري ومن الاحساس بالانتماء لحضارة وتاريخ عريقين، عن تجربة مر بها . يذكر حادثتين اذكتا فيه هذا الشعور : الأولى عندما عاد من فرنسا الى وطنه في العام ١٩١١ «عندما ركبت القطار الى قريتنا ونزلت منه في محطتنا وامتطيت الجواد نحو نصف الساعة بينها وبين منزلنا ، وسرت على هذه الطرق وبين هذه المزارع التي شهدت طفولتي واستمتع بها صباي ، نسيت اوروبا وريفها واهلها وكل ما فيها وشعرت بقلبي يتفتح ونفسي تنتشر في ارجائها السعادة ووجودي يكاد يطير من فرط الطرب ، واحسست كأني عدت اختلط بكل فرع بل بكل ورقة من هذه الأشجار ، وبكل قطرة من هذا الماء المنقلب في الترعة ، وبكل ذرة من هذا الهواء ، هواء قريتنا الصغيرة الجميلة ، وشعرت بما في ذلك من وحي صادق لمن اراد الكتابة عنه.» [٢]

وبعد اكثر من عشرين سنة ، مرّ هيكل بمعرة النعمان في سوريا وتذكر ابا العلاء المعري وادبه وحكمته ، فيقول انه شعر بأن هذا البلد وكأنه يحتوي شيئاً من حياته ؛ فسأل نفسه :« اذا كان هذا شأنه ولم يدرس ابا العلاء المعري دراسة ممحص ، فكيف يكون حال أولئك الذين يدرسون تاريخ أسلافهم دراسة تصل بين نفوسهم وهؤلاء الأسلاف وعصرهم وحضارتهم ؟ ان هذا دون شك يشكل مصدراً لالهام الأدب

١- هيكل ، ثورة الأدب ، ص ١١٤ . [المقالة بعنوان «الأدب القومي»] .

٢- نفسه ، ص ١١٥ .

القومي الصادق. »[١] ولذلك طالب هيكل بدراسة الأدب المصري والتعرف على اصحابه في العصور المتأخرة . وقد ثارت ثائرته عندما وجد عبد الحميد العبادي وطه حسين واحمد أمين (وكان هذان الآخران من دعاة القومية المصرية) يزمعون تأليف سلسلة تحمل عنوان «فجر الإسلام» ، يقيمون فيها الآداب العربية ويقدمون صورة عن حياة العرب وعلاقتهم بغيرهم من الدول.[٢] وبعد أن يقر هيكل لهؤلاء بالمجهود الذي يُشكرون عليه يتساءل بحرارة : «نسأل حضرات المحترمين اساتذة الجامعة ونسأل وزارة المعارف : ما شأن الحياة المصرية والأدب المصري في عصورهما المختلفة ؟ أولا يستحقان عناية أكبر العناية ؟ عناية توازي على الأقل عنايتها بآداب اللغة العربية وبتاريخ العرب . لقد تناولنا الحديث في هذا الموضوع منذ سنوات وطلبنا الى أدبائنا وكتابنا ان يفكروا فيه ويعنوا به . وطلبنا الى الجامعة المصرية يوم لم تكن الحقت بالحكومة ان تخصص له منها مكاناً ولقد لبى النداء المرحوم الاستاذ الشيخ محمد الخضري وجعل يقلب في دار الكتب وفي غير دار الكتب عما لم تشمله مكتبته الخاصة من دواوين الشعراء المصريين ولقد أطلعني في اخريات ايامه على كراسات عدة فيها ما اختاره من الشعراء المصريين امثال البهاء زهير وابن نباتة وغيرهما . وأشهد لقد كان لشعرهما طابع خاص وروعة مصرية تميزه عن غيره من الشعر العربي كما تميز الشعر الاندلسي عن شعر اهل الجزيرة . ثم اني لأشهد ان هذا الشعر المصري كانت تجري فيه روح النيل العذبة السائغة وتضوع منه

١- هيكل ، ثورة الأدب ، ص ١١٤ . [المقالة بعنوان "الأدب القومي"] .

٢- صدرت هذه السلسلة فيما بعد بقلم أحمد أمين وحده ، وهي فجر الاسلام وضحى الاسلام وظهر الاسلام .

هذه الوداعة والهوادة التي يسبغها النهر الإله على ما حوله . لكن الشيخ الخضري انتقل الى جوار ربه قبل ان يتم هذا العمل . وبقيت مصر وآدابها لا يفكر في التخصص لهما أحد ولا يفكر في ان يصلهما بغيرهما على الطريقة التي سار عليهما اساتذة الجامعة في كتاب فجر الاسلام أحد.»[١] وفي المقالة نفسها يبين هيكل ان الأدب المصري في القرون الأولى للاسلام كان متأثراً بالآداب العربية ، لكنه استقل فيما بعد او كاد . وكان له شخصيته المميزة ، لكن هذه الشخصية غير معروفة وغير واضحة لأن بحوثاً كافية لم تجرِ حولها . ويجد انه من الجناية على العلم ان يكون في مقدور المصريين وخاصة اساتذة الجامعات ان يقوموا بهذا العمل الجليل ثم يتوانوا عنه لأن العمل جديد ويحتاج لشيء من الجهد . ويصف هذا الكسل بالعار ويدعو إلى التخلص من هذا العار «فالكرامة القومية وكرامة العلم متفقان إذن في إلقاء التبعة علينا لتقصيرنا في حق تاريخ مصر وأدبها وكلتاهما تنادينا لنلقي عنا غبار هذا العار.»[٢] وان تبادر الى الذهن السؤال ما دليل هيكل على وجود ادب مصري مميز وهو القائل بأنه لم يُعنَ احد باكتشافه او بالبحث عنه ، نجد ان هيكلاً يؤكد وجوده من فرضية يفترضها وهي محال ان تكون مصر قد مرّت بثلاثة عشر قرناً اي منذ الغزو الاسلامي بجفاف تام في الحياة العقلية والعاطفية.[٣] لكن من ناحية أخرى يؤمن بأن الأساتذة المصريين لا ريب واصلون الى استجلاء صور وعواطف

١- س . أ ، ع ١٤٦ ، ٢٢ ديسمبر ١٩٢٨ . والمقالة بعنوان : « تاريخ مصر وآدابها لا يدرسان حتى اليوم في الجامعة المصرية » .

٢- نفسه .

٣- نفسه .

ومعان في الآداب المصرية لا يستطيعون مثلها في دراسة شبه الجزيرة او عرب الاندلس ، «لأننا ورثنا مصر ولم نرث شبه الجزيرة ولا ورثنا الأندلس .»[١]

وبعد سنتين من هذه الحملة الشعواء على الاساتذة المصريين والجامعة المصرية يفتتح هيكل مقالاً له بهذا المقطع :

«أخيراً بدأ علماؤنا يفكرون في الأدب المصري العربي القديم كما فكر غيرهم من قبل في الأدب الاندلسي . وبدأوا يستشفون الروح المصرية من خلال هذا الأدب .» [٢] وكانت المقالة بمناسبة إقدام الشيخ مصطفى عبد الرازق على بحث يتناول شعر البهاء زهير . فيمدح هيكل هذا العمل ويشيد بشعر البهاء لأن صاحبه لم يُقلد شعراء الجزيرة بل استوحى الطبيعة المصرية وبنية الحياة فيها. [٣] وكما اشاد بعبد الرازق نراه يشجع الكتاب المصريين في اية فرصة سانحة ، فهو يثني على شعر شوقي وحافظ ومطران من خلال مقالة [٤] كتبها بمناسبة حفلة اقامتها جماعة من الكتاب الغربيين لهؤلاء الثلاثة . وهو يعتبر شوقي شاعراً قومياً يتغنى بمصر حاضرها وماضيها ؛ لذلك كان اهتمامه به كبيراً فقد قدم لشوقي في «الشوقيات » [٥] وكتب مقالاً حول شعره إثر ظهور

١- س.أ. ع١٤٦، ٢٢ ديسمبر ١٩٢٨، وواضح هنا تاثير تين على هيكل .

٢- س . أ . ع ٢١٧ ، ٣٠ مايو ١٩٣٠ والعنوان : « البهاء زهير (من خلال بحث الشيخ مصطفى عبد الرازق) .

٣- نفسه .

٤- س . أ . ع ١١٠ ، ٤ فبراير ١٩٢٨ .

٥- مقدمة الشوقيات موجودة في س .أ . والعدد بتاريخ ٢٠ مارس ١٩٢٩ .

الجزء الثاني من الشوقيات [١] ونوه بكتابات قاسم أمين وبعض الأديبات المصريات مثل عائشة التيمورية وباحثة البادية والآنسة مي التي تركت "أثرها في الأسرة المصرية" [٢] على حد تعبيره.

قدمنا بعض آراء هيكل في الأدب المصري بشكل عام ، وسنتعرف الآن الى آرائه في فنون هذا الأدب ومدى اسهامه في تطبيق هذه الآراء .

يبحث هيكل في فنون الأدب المختلفة : القصة والنثر والشعر والمسرحية والترجمة . يبين حالها الحاضرة في مصر وما تتخبط فيه من ضعف ووهن [٣]، ثم وفي مقالات أخرى يطرح وسائل لتجديدها وتطويرها، وهو في كل ذلك يتوخى ان تُشكل هذه الفنون ما يسمى بأدب مصري يعبر عن الحياة المصرية بجميع مظاهرها ، متطلعاً الى وجود ذاك النابغة الذي تجود به الطبيعة ويتغلب على كل العواقب التي تعترضه .

١ - في القصة :

لكي يحفز الكتّاب على كتابة القصة يبين هيكل ان وجودها

١- س . أ . ع ٢٤٩ ، ١٣ ديسمبر ١٩٣٠ والمقالة بعنوان : «النسيب في شعر شوقي وروح الوصف السارية فيه .

٢- س . أ . ع ١٥٢ ، ٢ فبراير ١٩٢٩ والمقالة بعنوان : « حول الأدب المصري واثره في حياة الأسرة » .

٣- انظر مقالة «ركود الأدب في هذا العصر» ، ع ١٥٤ ، ١٦ فبراير ١٩٢٩ . ويرى ان أدباء مصر المعروفين لم ينقطعوا للادب وحده ، مع ان الادب غلب عليهم . فمحمد عبده كان مفتياً وقاسم أمين كان قاضياً ، وحفني بك ناصف كان قاضياً كذلك. (ع ٢١٧ ، ٣ مايو ١٩٣٠) .

قديم في الأدب العربي ، وانتشارها واسع في الغرب . ففي مقالته : «فن القصص ومكانه من فنون الأدب »[١] يستشهد بالأثر العظيم التي تركته قصة «أميل» لروسو ، ورواية فرتر (Verter) لجيتي (Goethe) وبعض روايات فلوبير وزولا وفرانس وبول بورجيه . والقصص الروسية التي أبدعها دستويفسكي وترجينيف وتولستوي كان لها قسط كبير في توجيه الحياة الأوروبية . وعندما ينتقل هيكل الى الأدب العربي القديم يقول انه متهم بخلوه من القصص وهو اتهام خاطىء لأنه يرى أن كتباً مثل الأغاني والعقد الفريد والأمالي تدور مادة الأدب فيها على رواية قصص الغرام او الحماسة وما اليها . ثم هناك الروايات الجميلة التي تروي حروب وائل والأشعار التي تنسب الى ابطالها فهي، كما يتصور ، من عمل مخيلة اديب قاص . هذا ، اضافة الى قصص الف ليلة وليلة التي قد تكون آخر ما وصلنا من قصص يستحق الذكر [٢]. علاوة عن التمثل بالقصص الغربية او القصص العربية القديمة ، يستطيع الكاتب ان يستمد مادة لكتبه من التاريخ ومن التاريخ الديني الموجود في الكتب المقدسة .[٣]

وتثبيتاً لدعوته بأن الأدب المصري يجب ان يستوحى من التاريخ ، فقد كتب هيكل خمس قصص مستوحاة من أساطير آلهة الفراعنة نشر اثنتين منها في السياسة اليومية [٤] وهما «أبيس » التي أهداها لسر أناتول فرانس ، «وسميراميس»، والثلاث الأخرى نشرها في السياسة الأسبوعية . وهي «إيزيس» و «راعية هاتور»

١- س . أ . ع ١٧١ ، ١٥ يونيه ١٩٢٩ .

٢- نفسه .

٣- نفسه .

٤- في مارس ويونيه ١٩٢٥ . وقد جمعت في كتاب « في اوقات الفراغ » .

و«أفروديت».[١] اما سبب اختياره لهذه الأساطير كمادة لقصصه فهو يذكر انه اراد ، في البداية ، البحث في عصور مصر الاسلامية وكان اكثر ما يستهويه منها الحروب الصليبية لكنه عندما أفصح عن رغبته هذه قوبل بهجوم عنيف من قِبل معارفه . ويذكر ان سبب هذا الهجوم ، في أغلب الظن ، كان الخصومة السياسية.[٢] لذلك ابتعد الى ميدان الفراعنة وآلهتهم وهو ميدان « لا يُعنى بمهاجمة الباحث فيه أحد » اضافة الى انه ميدان طريف وخصب .[٣]

وقد جعل بحثه عن "أبيس" في صورة قصة لأصدقاء ذهبوا الى المتحف المصري ووقفوا أمام تمثال أبيس . وبدأ أحدهم يقص عليهم أساطير من تاريخ عبادته فكانت موضوعاً للمناقشة فيما بينهم ؛ وبعد ان خرجوا من المتحف توجّهوا الى أخذ فنجان من الشاي في فندق سميراميس . ومن هنا تابع هيكل قصته الثانية عن الملكة سميراميس التي جلست على عرش بابل والتي غزت مصر وحكمتها زمناً . وبعد سنتين تقريباً كتب هيكل قصصه الثلاث الأخرى وذلك بعد تكرار زيارته للأقصر وأسوان فعاد ودوّن حديث ايزيس وهاتور وافروديت «إجابة لدعوة أجدادنا وآلهتهم»[٤] وقد صوّر في هذه القصص ما كان للفراعنة «من حكمة وفلسفة قويتين عميقتين محيطتين بالحياة محبتين إياها أشد حب وأخصبه.»[٥] ويعتقد هيكل انه فتح الباب في هذا المجال

١- وقد جمعت في كتاب ثورة الادب .

٢- هيكل ، ثورة الأدب ، ص ١٤٦ .

٣- نفسه ، ص ١٤٧ .

٤- نفسه ، ص ١٤٨ .

٥- نفسه، ص ص ١٤٩ - ١٥٠ .

– مجال استلهام القصص من التاريخ المصري ، ويتمنى ان يأتي بعده من يُمضي فيه قُدماً . ويُشدد على ان المناهج العلمية الحديثة الغربية في البحث يجب الاّ تحول بين المصريين وبين تراثهم بل يجب الاستعانة بعلم الغربيين لابتكار علم «يتصل بعلمنا وطبيعة بلادنا لتبقى لنا شخصيتنا.» [١]

اما ركود الفن القصصي في وقتنا الحاضر ، فيراه هيكل عائداً لاسباب مختلفة. وفي احدى المقالات[٢] يذكر هذه الاسباب واهمها :

أ – ذيوع الامية وعدم انتشار التعليم مما يحول بين الجمهور وقراءة القصص .

ب – فتور الاغنياء عن دعم الادب بشكل عام والقصص بشكل خاص. بينما في اوروبا ، كان للويس الرابع عشر وسيدات البلاط عنده، مثلاً ، فضل كبير في بقاء آثار راسين وكورني وموليير ولافونتين .

ج – اثر السيدات في الادب : المرأة مصدر وحي للكاتب والشاعر. وقد قمنا في الغرب بدور هام في نهضة الادب . حتى في ايام العرب الاولى وصدر الاسلام كان لبعض النساء امثال سكينه بنت حسين، اثر كبير في نهضة الادب ، اما في مصر فيكاد يكون هذا الاثر معدوماً .

١– هيكل ، ثورة الأدب ، ص ص ١٤٩ – ١٥٠ .

٢– س.أ، ع ٢٠٧ ، ٢٢ فبراير ١٩٣٠، والمقالة بعنوان "ادب القصص والرواية بعض اسباب فتوره وضعفه" .

د- عدم تربية العواطف تربية صحيحة (مثل عاطفة الرفق وعاطفة الاحسان وعاطفة الحب) ويعود ذلك الى اهمال التربية المنزلية.

هـ- ميل الشرقيين الى هدم كل رجل يملك موهبة وقدرة إذا كان يختلف معهم في الرأي او السياسة .

و- أثر الحرب العالمية الأولى التي جعلت الأذهان تتحول عن التأمل في صور الحياة الى صور النضال والكفاح لكسب الحقوق السياسية .

هذه الاسباب يقدمها هيكل ، لكنه لا يقبل بها؛ بل يحمل على الغربيين والمستشرقين الذين يتهمون الشرقي بأنه ضعيف الخيال ويفند زعمهم هذا.[١] كل ما يتطلبه الامر حسب رأيه ، هو التشجيع . فلو وجدت القصة تشجيعاً لأقبل عليها من يمهد السبيل للكاتب النابغة الذي يضع اساسها في مصر كما وضع "جوجول" اساس القصة في روسيا [٢] فعلى الحكومة بالدرجة الأولى تشجيع كتاب قصة والوسائل لذلك عديدة، منها تقديم الجوائز مثلاً.[٣]

ويبدو هيكل متفائلاً حين يدعو الى التخصص في الأدب القصصي بل في احد فروعه لانه ميدان متسع. فهو يقول : "في الغرب مثلاً ترى قصص "بورجيه" تختلف عن قصص "اناتول فرانس" ، وهذه بدورها تختلف عن قصص "زولا » ... وهذا التخصص ، كما يراه ، هو السبيل للكمال في ميدان الفن والأدب ."[٤]

١- هيكل ، ثورة الادب ، ص ٨٦ .

٢- س . أ . ع ١٧١ ، ١٥ يونيه ١٩٢٩ .

٣- نفسه .

٤- س . أ . ع ٢٠٧ ، ٢٢ فبراير ١٩٣٠ .

٢ - في الشعر :

«في الشعر» عنوان مقالة [١] لهيكل يذكر فيها انصراف هذا الجيل عن الشعر الى حد كبير ، ويعزو ذلك الى المذاهب المادية في العلم والفلسفة التي جعلت الشعر بمعزل عن الحياة العقلية او يكاد . في هذه المقالة يتحدث ايضاً عن قيمة الشعر ورسالته ، وكيفية تعبيره عن الحالات النفسية ، ويبين الفرق بين الشعر الواضح والشعر المبهم. [٢] وله في السياسة الأسبوعية مقالتان هامتان يبحث فيهما أسباب فتور الشعر . الأولى بعنوان «النثر العربي والشعر العربي هل يؤديان حاجات النفس اداء صالحاً». [٣] والثانية بعنوان «شعر ونثر : من د . هيكل الى د . طه حسين». [٤] في المقالة الأولى يرى هيكل حالة الشعر الراهنة في مصر من خلال ابيات لحافظ ابراهيم يشكو فيها تقليد السابقين بينما الزمن يتقدم ويتطور ، والابيات تختم بالتالي :

ونحن كما غنّى الأوائل لم نزل نغني بأرماحٍ وبيضٍ وأدرع

عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدى لشيء جديد حاضر النفع ممتعٍ

ولقد حاول كتاب النثر جاهدين دفع اللغة العربية الى الامام ومنهم العقاد وطه حسين ومصطفى عبد الرازق ، حتى أنصار القديم ،

١- س . أ . ع ١٦٢ ، كتبها بمناسبة تلقيه ديواني محمد خيري « في الشعر الفرنسي» ، وأحمد زكي ابو شادي «الشفق الباكي» .

٢- نفسه .

٣- س . أ . ع ٧٢ و ٢٣ يوليه ١٩٢٧ ؛ وهو موجود في كتاب ثورة الأدب ، ص ٤٦ بعنوان النثر والشعر .

٤- س . أ . ع ٧٥ ، ١٣ أغسطس ١٩٢٧ ؛ وهي منشورة ايضاً في كتاب ثورة الادب ، ص ٥٨ بعنوان « علة الشعر » وفيه بعض الاضافات والمحذوفات .

الرافعي وصادق عنبر ، فعندما يتركون أنفسهم على سجينها يكتبون باسلوب هذا العصر ويفكرون بتفكيره.[١] مع هذا التجديد ، فإن الشعر لم يخط الخطوات المطلوبة ، ولم يصل مرحلة يستطاع معها «التعبير عن كل المعاني التي تجيش بالنفس على صورة تتفق ونظم الموسيقى الجديدة ولا تقف عند الاوزان القديمة. »[٢] ويضيف هيكل انه في عصور ازدهار الحضارة الاسلامية كان الشعر يُسابق النثر بل كان الشعر العربي هو الأدب العربي.[٣]

ثم يذكر ان حافظاً وشوقي كتبا قصائد جميلة في وصف مصر لكنهما لم يتحللا من القوافي والصور القديمة والقيود المعنوية ، ويتساءل هل الاعجاب بهذه القيود والقوافي راجع الى انها تؤدي حاجات النفس من ادراك وحس وعاطفة اداءً صالحاً ام هو راجع الى انها تثير في النفس ذكريات ما حفظت اول شبابها من شعر كاعجابك بنغم السلامية الريفية الساذجة بعد سماعك لالحان عبد الوهاب .[٤]

وينظر هيكل في اسباب فتور الشعر فيعود بها الى ما يسميه «فقدان حرية الحس لدى الشعراء » فكما حرية الفكر هي اساس النشاط العقلي المنتج فحرية الحس هي اساس نشاط الذهن والخيال وما يفيض عن هذا النشاط من شعر .[٥] اما المقطوعات التي هي شعر صحيح

١- س.أ.ع، ٧٥، ١٣ أغسطس ١٩٢٧ .

٢- نفسه ، ويذكر هيكل انه تحدث في هذا الموضوع مع حافظ ابراهيم وخليل مطران وقد وافقاه على رأيه . واضاف احدهما ان السبب في جمود الشعر عند اوزان العرب ومعانيهم هو وقوف بعض الشعراء في وجه كل تجديد .

٣- نفسه .

٤- نفسه .

٥- نفسه .

عند اسماعيل صبري وشوقي والبارودي فإنها قليلة بالنسبة للكثير الذي خلفوه.[١]

٣ - في المسرحية :

من اللافت للنظر ان نجد مقالة لهيكل حول التأليف المسرحي[٢] في تلك الفترة المبكرة ، حين كانت المسرحيات المؤلفة في اول ظهورها ، يطرح فيها قضايا هامة في العمل المسرحي، كاللغة المستخدمة والغاية المرجوة منه ؛ وينبه المؤلفين المسرحيين الى العناية بهذا الفن والنظر اليه نظرة جد ، طالباً من الكتاب الالتفات الى نواحي الضعف والنقص فيه لدراستها والتغلب عليها .

اكثر ما يُمثل على المسارح ، حسبما يرى ، هي مآسٍ ومهازل منقولة عن اللغات الأوروبية ، وغرض اكثرها إلهاب خيال الجماهير الساذجة ، وهذه المسرحيات تكاد تكون اقرب الى خيال الظل او «القراكوز» الذي يجتذب الاطفال ، حسب تعبيره ، وهذا ليس بالفن. من الممكن ان يكون المسرح فناً للفن لكن هذا ليس المطلوب ولا هو الغاية المرجوة ، بل يجب ان تمثل على المسرح صور من الحياة المصرية ، وهذا ما فعله محمود تيمور ؛ فبالرغم من ان مسرحياته لم تصل الى مستوى عالٍ الا انه انتزع من وقائع الحياة في مصر صوراً عرضها على المسرح .[٣]

اما لغة المسرح فقد كان النقاش محتدماً حولها في ذاك الحين : هل تكون بالعامية او بالفصحى . لكن لهيكل رأياً آخر ، فالمؤلف يستطيع ان يكتب مسرحيته باللغة التي يراها مناسبة أكانت

١- س.أ.ع. ٧٥، ١٣ أغسطس ١٩٢٧ .

٢- س . أ . ع ٢٣٧ ، ٢٠ سبتمبر ١٩٣٠ . منشورة في كتاب ثورة الادب ص ١٠٤ .

٣- نفسه .

باللغة الفصحى ام باللغة الدارجة من مختلف اللهجات في مصر وغير مصر ؛ لأنه يعتقد ان الخلاف حول لغة المسرح صائر الى الزوال بسبب انتشار التعليم انتشاراً سريعاً مما يقضي على الامية ، وبالتالي يقرب لغة الكلام من لغة الكتابة ، وتصبح لغة الصحف هي لغة الحديث ولغة الكتابة في آن ٍواحد ٍ، وهي اللغة الفصحى المتعارف عليها . ولا بأس عند ذاك ان يتخلل احدى المسرحيات قطعة باللهجة الدارجة ، فهذا يُعتبر من باب التأنق في الفن.[١]

اما جوهر القضية ، بالنسبة اليه كقومي مصري ، فهو يكمن في سؤال طالما راوده : «اواجب ان يوجد في القطع المسرحية العربية نوع من الكلاسيك الذي يصل الحاضر بالماضي ام انا نستطيع نسيان هذا الماضي والاكتفاء ببذل جهودنا للتجديد للمستقبل ؟ وهذا السؤال بدوره سيؤدي الى بحوث اخرى : ايجب ان ترجع الصلة بين الحاضر والماضي الى بلاد العرب فتتصل البلاد التي تتكلم اللغة العربية جميعاً بتاريخها وبثقافتها وبآثارها وتعاليمها على نحو ما اتصلت امم الغرب كلها باليونان وروما القديمتين ، ام ان ترجع الصلة بين الحاضر والماضي الى صلة كل أمة بماضيها فترتبط مصر بالفراعنة وطرابلس (برقة) بقرطاجة وبلاد الشام بفينيقية ، وان تربط اللغة العربية السليمة بين هذه الثقافات المتصلة كلها ، وتجعل منها وحيا للأدب يُقصد منه احياء اللغة »؟[٢]

١- س.أ.ع. ٢٣٧، ٢٠ سبتمبر ١٩٣٠. ونلاحظ أن هنا تغيراً وربما بسبب فارق الزمن ، في موقف هيكل من اللغة العامية ، التي سبق وتحدث عنها في عام ١٩١٣ ، اذ كان يعتبر اختلاف اللهجات يحول دون استخدام العامية .

٢- نفسه .

ويتهرب هيكل من الجواب ويُبقي السؤال معلقاً ، وليس هذا من عاداته في الكتابة ، الأمر الذي يجعلنا نرى ظلالاً من الشكوك بدأت تراود تفكيره من ناحية ربط مصر بالماضي الفرعوني .

٤ - الترجمة :

كتب هيكل في العام ١٩٢٨ مقالة بعنوان «عصر ترجمة ام عصر تأليف»[١] وبرغم الطابع التساؤلي الذي يحمله العنوان فإن الفكرة الرئيسة التي تضمنتها المقالة هي ضرورة الانصراف الى التأليف بعدما ساعدت الترجمة على وجود صور التفكير الانساني في مختلف انحاء العالم امام النظر المصري ليحيط بها.

يتحدث هيكل عن اختلاف الترجمة من عصر الى عصر ، راصداً تطورها في مسيرتها . فبينما كانت الترجمة ايام الطهطاوي ومبارك تهدف الى التعليم والارشاد وكان معظمها كتباً مدرسية ، عُنيَ الجيل اللاحق بترجمة الفكر والعلوم والحضارة الغربية ، كما فعل فتحي زغلول واحمد لطفي السيد. وبينما كانت الكتب في السابق تترجم بشكل حرفي ، اصبحت الآن الترجمة ادبية اكثر وهذا ما يفتح المجال واسعاً امام التأليف.[٢] وإن قول احد الكتاب بان طغيان الترجمة على الأدب كان من الاسباب المباشرة التي دعت الى التفكير بخلق ادب مصرى يعبر عن واقع الحياة المحلية في مصر [٣]، يفسر لنا حماسة هيكل في دعوته للبدء في عملية التأليف معتزاً بما قدمه بعض المصريين ، ويذكر منهم قاسم أمين ومحمد عبده وطه حسين ، من مؤلفات قيمة ، الى جانب رسائل الدكتوراه التي كتبها الطلبة العرب باللغة الاجنبية ،

١- س . أ . ع ، ١١٠ ، ١٤ ابريل ١٩٢٨ .

٢- نفسه .

٣- ملحم ، ص ٧٢ .

وكُتب رجال القانون امثال أحمد أمين وعلي ماهر وعبد السلام ذهني .
كما يدعو هيكل إلى الانقطاع للتأليف لأن الاشتغال بالمناصب الادارية
والسياسية جنى كثيراً على المشتغلين بالتأليف.[١] وهذا الرأي بالطبع
يناصره جميع الداعين لخلق ادب قومي ويمثلهم محمود تيمور الذي
يقول انه «يُفضل ان يقرأ موالاً فلاحياً ساذجاً خارجاً من قلب مصري
على ان يقرأ حكمة منسوخة او ممصرة عن الغرب.» [٢] لكن هناك باباً
في الترجمة لا يزال هيكل يدعو اليه ويحض على الخوض فيه ألا وهو
ترجمة آثار المصريين القدماء . يحث هيكل شباب مصر على الانكباب
على الأدب القديم وترجمته عن أصله الهيروغليفي بعدما حُلّت رموز هذه
اللغة . والمصريون سيكونون دون شك اكثر توفيقاً من الغربيين في
ترجماتهم هذه بسبب هذا الاتصال النفسي بين المصريين اليوم
والمصريين القدماء[٣] ويعطي هيكل نموذجاً هو كتاب حسن صبحي
«قصص البردى» وهو مجموعة قصص فرعونية نقلها صبحي عن لغة
اجنبية مبيناً انه عندما ترجمها «شعر بصورة من الاحساس لم يشعر
بها الذين نقلوا هذه القصص عن اصلها الهيروغليفي»[٤] . ثم يضيف:
«فما بالك لو كان النقل بقلم مصري عن اللغة الهيروغليفية
مباشرة .»[٥]

١- س . أ . ع ١١٠ ، ١٤ إبريل ١٩٢٨ .

٢- ملحم . ص ٧٨ .

٣- س . أ . ع ٣٨ ، ٢٧ نوفمبر ١٩٢٦ . وهي مقالة طويلة وهامة بعنوان « مصر الحديثة ومصر القديمة » ، منشورة في ثورة الأدب تحت عنوان « التاريخ والأدب القومي » . ص ١٣١ .

٤- نفسه .

٥- نفسه .

٥ - اللغـة :

وفي مقالته «القاموس ودائرة المعارف . حاجة اللغة العربية الى جديد منهما.»[١] يُبين الحاجة الماسة الى وضع قاموس جديد للغة العربية يُسقط ما أهمل من الالفاظ واصبح غريباً ويضيف الفاظاً جديدة يُسيغها ذوق العلم والادب ولا بأس ان تكون هذه الألفاظ منتحلة او عامية طالما لا تنفر من استخدامها اللغة ، كذلك ثمة حاجة ماسة ايضا الى دائرة معارف جديدة .

وأغلب الظن ان دعوة هيكل للتجديد في اللغة جاءت من منطلقين : الأول في نطاق دعوته الإصلاحية عامة ، والثاني من معاناة حقيقية كان يشعر بها عندما كان يريد التعبير كتابة ، ونقرأ له اعترافا خطيراً في مقالة[٢] يخاطب فيه صديقه طه حسين فيقول : «أذكر الآن يا صديقي خاطراً مرّ بذهني من خمس عشرة سنة مضت مذ كنت بباريس اثناء دراستي ... فقد أكببت يومئذ على مطالعة الأدب الفرنسي فرأيت فيه صوراً وخيالات وعواطف إن تشبه مثلها في الأدب الانجليزي فإن طرق التعبير عنها في اللغتين تختلف . ولم أكن اعرف لهذه الصور والعواطف اشباهاً في اللغة العربية وإن كان لبعضها في لغتنا المصرية العامية بعض اشباه . هناك ثارت نفسي وجعلت أسطّر آخر كل نهار في مذكراتي كل ما يرد بخاطري غير مقيد بأصول النحو والصرف وبمعاجم اللغة العربية . فكنت اذكر القمر مؤنثاً والشمس مذكرة لأن حسي وشعوري اقنعاني بأن بين قوة الرجل وقـوة الشمس

١- س . أ . ع ٤٨ ، ٥ فبراير ١٩٢٧ .

٢- س . أ . ع ٧٥ ، ١٣ أغسطس ١٩٢٧ - ومع ان المقالة منشورة في ثورة الادب الا ان هذا المقطع محذوف منها .

شبهاً وبين رقة الانثى ورقة القمر شبهاً وكنت أشعر في نفسي بثورة اذا رأيتني عاجزاً عن ان أعبر بلغتي عما يختلج في فؤادي ويصوره ذهني ثم ترتسم صور الفاظه الفرنسية او الانجليزية امام بصيرتي. وقد تنفست هذه الثورة عن رواية كتبتها يومئذ وانا اليوم انكرها. ولست ادري ماذا كنت اصنع لو أن هذه الثورة من ثورات الشباب بقيت في نفسي .. لكن اليوم ما ازال اشعر بأثرها كلما هزتني عاطفة من العواطف فأردت التعبير عنها». لذلك شد انتباه هيكل قول لقاسم أمين اثبته في احدى مقالاته التي عالج فيها النثر ومشكلاته. اما قول قاسم أمين فهو: «كلما اراد الانسان ان يُعبر عن احساس حقيقي رأى بعد طول جهد وكثرة كلام انه قال شيئاً عادياً اكثر مما كان ينتظر، ووجد ان احسن ما في نفسه بقي فيها متخفياً... لتصوير احساس كامل وتمثيل أثره في صورة مطابقة للواقع يلزم استعمال الفاظ غير متداولة، الفاظ غير العتيقة البالية، يلزم اختراع الفاظ جديدة.» [١]

ويستشهد هيكل بلغة القرآن الكريم، لغة قريش التي لم تكن تحوي هذه الاعداد الضخمة من الكلمات الموجودة في القواميس بدليل انه لا يوجد فيه كلام حوشي؛ ثم يضيف انه لو جُمع ما يكتبه الكتاب وما يترنم به الشعراء من الألفاظ لكان اقل من نصف بل ثلث ما تحويه القواميس. [٢]

وثمة مقالة ثانية لهيكل بعنوان «اللغة والاسلوب» [٣] كتبها بسبب عبارة وردت في هامش كتاب لصديقه «منصور فهمي» يدعى «خواطر نفس». هذه العبارة تقول ان الكاتب لم يغير بالكتاب شيئاً

١- س. أ. ع ٧٢، ٢٣ يوليه ١٩٢٧.

٢- س. أ. ع ٤٨، ٥ فبراير ١٩٢٧.

٣- س. أ. ع ٢٢١، ٣١ مايو ١٩٣٠.

الا إعراب بعض الكلمات او تصحيح آخر لشدة «احترامه» للغة العربية. هذا قول منصور فهمي . اما هيكل فلم يستطع مجاراة صديقه وانبرى في مقالته يأخذ عليه شدة حرصه على الاعراب والقواعد اللغوية ، ويسوق له قول "اناتول فرانس" عندما سئل مرة عن رأيه في لغة كبار الكتاب والشعراء امثال "شكسبير" و"موليير" «فقال انها لا تخلو من اخطاء فيما يتعلق بقواعد النحو والصرف واضاف "فرانس" : وخطأ هؤلاء النوابغ هو بعض حسن الخطأ الذي يصيب اللغات ، ذلك ان هذا الخطأ كثيراً ما ينشأ عنه تطور صالح في قاعدة من القواعد ما كان ليقع لو ظل الكتاب المتحذلقون في القواعد هم وحدهم المسيطرين على اللغة. »[١] ويضيف هيكل لصديقه قائلاً :«نحن لا نعرف العربية وهذا ما يُدلي به الاكثرون . فقط الشعراء امثال البارودي وشوقي وحافظ يستطيعون ان يربطوا بين لغتهم واللغة العربية القديمة ، اما في النثر فالبون شاسع.»[٢] لكن هذا التقصير الذي يعترف به هيكل (وربما لم يكن يعتبره تقصيراً بل شيئاً طبيعياً) ، كان مجالاً لوجهة نظر أخرى كشف عنها طه حسين في قوله عن هيكل : « هو قدّم «للبارودي» وقدم «لشوقي» ، وكان من المعجبين بهذا وذاك . ولكنه لم يكن يستطيع ان ينشيء ادباً كالذي يُنشئه هذا او ذاك . لماذا ؟ لأن هيكلاً كان يعيش في عصره . وكان شوقي والبارودي يعيشان في عصور مضت .»[٣]

اذاً كان هيكل يتعامل مع اللغة التي يستخدمها بحرية تامة. فلم يكن يتحرج من استخدام لفظ عامي او لفظ اجنبي ، اذا كان يُسعفه في التعبير . وفي كتاب "ولدي" الذي يصف فيه مشاهداته في اوروبا

١- س.أ.ع. ٣٢١ مايو ١٩٣٠ .

٢- نفسه .

٣- السيد ، ص ٩٣ ، من مقالة لطه حسين .

اثناء زيارته لبلدانها ، الفاظاً اجنبية كثيرة مثل كلمات «جارسون» (ص٦٤ و ١٦٤) ، و«درابزون» (ص ٧٦) و«أسنسير» (ص ٩١ واحياناً يضيف الى جانبها كلمة «رافع» او «مصعد») و«كرت بوستال» (ص ١٤٧)، و«فنكلير» (ص ١٦٤ و ٢١٦) وقد اضاف بجانبه مرة «مصعد الجبل» واخرى «ترام صاعد» مما يدل على الصعوبة التي كان يجدها في ترجمة هذه الألفاظ . اما لفظة «اوتومبيل» (ص ١٢٥) فقد أثارت احد القرّاء وبعث برسالة الى صحيفة السياسة يستفسر من هيكل ان كان استخدامه لهذه اللفظة اعتباطياً او لمجرد حرصه على اللفظ الغربي بدليل انه كان بإمكانه استخدام لفظ «سيارة» . وكان رد هيكل عليه انه لم يكن هذا ولا ذاك . انما جاء في القرآن السيارة بمعنى الركب ولم يزل هذا المعنى مألوفاً «فإن استخدمنا لفظ السيارة على الاوتومبيل جنَينا على هذا المعنى وتخطيناه الى معنى لا يؤديه لفظ السيارة العربي اداءً صحيحاً»[١] . ثم يتساءل «فماذا عسى ان يكون اللفظ الذي نطلقه على الموتوسيكل»؟[٢] ولهذا يرى هيكل انه يجب وضع أسماء المكتشفات الغربية في اللغة العربية بأسمائها او مع التحوير اللفظي التي تقتضيه أوزان اللغة.[٣] ويُعلق طه حسين على موقف هيكل وجيله من المجددين المصريين بقوله :« قلت لكم ان هذا الجيل من الكتاب كان ثائراً على تقليد القدماء وكان يريد ان يُنشيء ادباً جديداً لا يحتفل فيه من القديم الا بسلامة اللغة وفصاحتها . فلا غرابة اذن في ان يكون اسلوباً

١- س . أ ، ع ٩٢ ، ١٠ ديسمبر ١٩٢٧ . وهيكل في نظرته للغة متأثر برأي استاذه احمد لطفي السيد القائل «بصلح» بين العامية والفصحى واستخدام اللفظ اللاتيني للمكتشفات العلمية الحديثة . راجع النجار ، الجريدة ، ص ٣١٦ وما بعدها .

٢- نفسه .

٣- نفسه .

هيكل معاصراً ولا بأس عليه من ان يكون اسلوب غير مؤتلف مع اسلوب الجاحظ وابي حيان او الهمذاني . ولا بأس عليه من هذا ولا من بعضه ، حسبه أنه كتب بلغته واسلوبه ولم ينحرف عن لغة القرآن قليلاً ولا كثيراً.

ثانياً - التاريخ المصري :

واكبت دعوة محمد حسين هيكل إلى العناية بالأدب المصري ، دعوة إلى العناية بالتاريخ المصري ؛ والحقيقة انه يصعب فصل الدعوتين احداهما عن الأخرى لما هناك من ترابط بين الأدب والتاريخ خاصة عند هيكل الذي يدعو لاستلهام الأدب من التاريخ . لكننا آثرنا ان نجعل المقالات التي تتناول موضوعات تاريخية في فصل مستقل لتسهيل البحث . وبعد ان استعرضنا معظم كتاباته ، إن لم يكن جميعها ، في هذا الباب خرجنا بتصنيف عام لها هو كالآتي :

١- مقالات تدعو لدراسة التاريخ المصري القديم ، والحملة على المقصرين في هذا الاتجاه .

٢ - مقالات تبرز المعالم التاريخية لمصر القديمة .

٣ - قصص قصيرة مستمدة من التراث والأساطير الفرعونية.

٤ - مقالات تتحدث عن رجال مصر العظماء قديماً وحديثاً، وفيما يلي سنحاول تقديم موجز عن كل صنف من هذه الأصناف .

نعود قليلاً الى الفصل السابق حيث ذكرنا مقالة مهمة لهيكل بعنوان «تاريخ مصر وآدابها لا يدرسان حتى اليوم في الجامعة المصرية». هنا يقول هيكل انه من العار ان تُدرس في الجامعة المتصلة بالحكومة اتصالاً وثيقاً آداب فرنسا وانجلترا وايطاليا ... ولا يُدرس

تاريخ مصر.[١] وتشتد ثورة هيكل عندما لا يجد في التاريخ انصافاً لمصر بل صفحات تذل المصريين وتصفهم بالخنوع والاستسلام «ونحن في مصر لا نعرف تاريخ وطننا هذا على صورة صحيحة الا ما أصابه من تحكم الغير فيه . ولهذا نرى نفوسنا جميعاً وفيها ثورة حبيسة تكاد تنفجر وتخشى أشد خشية آثار هذا الانفجار . اما ما سوى تاريخ الفاتحين الاجانب الذين أذلوا آباءنا وأجدادنا إذلالاً ترك نفوسنا متأججة بلهب تكظمه الجوانح خشية عواقبه ، اما تاريخ ما أثبت آباؤنا واجدادنا على صفحات الحياة من علم وفن وفلسفة وحكمة فذلك انما نتخيله تخيلاً ونتخيله مبعثراً في ظلم الماضي.»[٢]

ويشدد على ان ابناً من أبناء مصر هو الذي يجب ان يتولى دراسة تاريخ مصر ، لأنه يكون هناك اتصال بين هذا التاريخ وبين عقله وروحه وعاطفته ؛ ولذلك فهو يفيد من عبارة يقرؤها او صورة يراها او قصة تروي له مالا يستطيع غيره ان يفيده من ذلك . وقد سبق ان اشرنا الى الحاحه على هذه الفكرة في معرض الحديث عن الترجمة.[٣]

«مصر الحديثة ومصر القديمة» مقالة أخرى تتحدث عن الاتصال الوثيق بين مصر الحاضرة ومصر الفراعنة . ويتضح في هذه المقالة تأثره بنظرية "تين" القائلة بتأثير الوسط على تفكير الانسان .

١- يكرر هذا الاحتجاج ايضاً في تراجم ، ص ٩ ، وكان قد اطلقه في مقالة «الادب القومي» في السياسة اليومية (انظر : في اوقات الفراغ ، ص ٣٥٢) .

٢- س . أ . ع ١٤٦ ، ٢٢ ديسمبر ١٩٢٨ .

٣- يُعطي هيكل مثلاً كتب "كارليل" و"تين" و"جيزو" عن الثورة الفرنسية . ويرى انه مهما بلغ كتاب كارليل من دقة فإنه لا يُقارن بكتب "تين" و"جيزو" الفرنسيين ، ذلك لأن "كارليل" انجليزي بينما الآخران فرنسيان .

يقول هيكل : « انت في الظاهر تختلف عن هؤلاء الأجداد جد الاختلاف . وقد يحسب من رآهم ويراك انك لست منهم وانهم ليسوا منك . اما الحقيقة العميقة التي تشعر بها انت ويتيقنها العلم فهي ان بينك وبين اجدادك اتصالاً وثيقاً لا سبيل الى انكاره وإن جهله الناس وجهلته انت. فهذا الدم الذي يجري في عروقهم يجري في عروقك ، وهذه الانفعالات النفسانية التي كانت تدفعهم في حياتهم هي التي تدفعك في حياتك . وانت محكوم عليك طائعاً او كارهاً ان تخضع للوراثة التي أورثوك اياها ... فإذا خضعت بحكم الحياة المحيطة بك لصورة غير صورتهم وظاهر غير ظاهرهم ، فصك الذهب عملة مختلفة الاشكال لا يغير انه ذهب . وان المعدن الاصيل باقٍ فيه بقاء معدن اجدادك فيك ... فإذا ذكرت كذلك ان الوسط الطبيعي لم يتغير في وادي النيل منذ آلاف السنين ، وان هذا الوسط الطبيعي هو الذي يصل اللغات والعقائد والأنفس ، وان الذين أغاروا على مصر ثم استوطنوها أجيالاً فقدوا كل صفات اجناسهم القديمة وخضعوا لحكم الوسط الطبيعي واصبحوا وكأنما آباؤهم واجدادهم في مصر منذ عهد الفراعنة - اذا ذكرت هذا ايقنت ان بين مصر القديمة ومصر الحديثة اتصالاً نفسياً وثيقاً وان واجباً على المصريين ان يبحثوا عن مواضع هذا الاتصال وان خير ميادين البحث انما هي الأدب وكتبه والعقائد وطقوس العبادة.»[١]. ويتابع هيكل فيذكر طائفة من الأمثلة على ذلك .

اذا اعتبرنا ما ذكرناه آنفاً الناحية النظرية من دعوة هيكل لكتابة التاريخ المصري ، فإننا نجده مطبقاً لنظريته في ما كتبه عن آثار الفراعنة وما اقتبسه من قصصهم .. ففي السياسة اليومية كتب

١- س.أ.ع. ١٤٦ ، ٢٢ ديسمبر ١٩٢٨ .

أربع مقالات بين سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٣ عن آثار وادي الملوك يتحدث فيها عن قبر توت عنخ امون ومقابر وادي الملوك ومعابد الكرنك في طيبة [١]. يتحدث بلهجة مفتخر معتز بماضيه ومدنيته فتتضاءل أمام ناظريه آثار الرومان واليونان التي شاهدها في روما وفرنسا ؛ يقول : «أجل لو رأوها لقالوا عن أجدادنا انهم اجداد الفن وعن مصر أنها مهد المدنية. ولو رأوا حنوط الورد واللحم وما تنبت الأرض من بقلها لتضاءلت مدنيتهم امام ما يرون . لو رأوا خلود هذا الزهر الرقيق السريع الى الذبول وبقاء تلك الحنطة المتآكلة ، وقرنوا اليها حديدهم الصلب يفنى ويتآكل رغم عنايتهم ، وحجارته القاسية تنهار وان شادوها ، إذن لأيقنوا ان هؤلاء المصريين القدماء وصلوا من المدنيه الى قمة نفخ بعدها في الصُور .» [٢] وعندما يصف قبر توت عنخ آمون تأخذه الغيرة على آثار هذا القبر وكأنه يخاف ان يدّعي تملكها الأجانب المكتشفون .

يقول : "تلك آثار اجدادنا نحن المصريين . تلك آثار الفراعنة. كشف عنها رجل ليس له بالفراعنة صلة ... وقام بالعمل ابناء الأقصر . لكنها آثار اجدادنا نحن ، فنحن وحدنا اصحابها وله الفضل عن كشفها وله منا الشكر والمنة ، وله على التاريخ الاسم الباقي ما بقي اسم الفراعنة. " [٣] وامام عظمة هذا الاكتشاف يأخذ هيكل على الحكومة المصرية توانيها وقلة اكتراثها للأمر في البداية ، وانها لم تعنَ هي او جهات حفظ الآثار المصرية باطلاع المصريين على اية معلومات عن هذا الأثر المصري . إلا حينما وصلت الجرائد من انجلترا حافلة بالأخبار عنه:

١- هذه المقالات منشورة في "في اوقات الفراغ" وسنعتمد عليه كمرجع لها .

٢- هيكل ، «في اوقات الفراغ» ، ص ص .٢٦٠ - ٢٦١ .

٣- نفسه ، ص ٢٥٩ .

«تكرمت وزارة الأشغال المصرية فأصدرت بلاغاً تافهاً مبهماً.» [١]

اما معابد الكرنك فيصفها وصفاً رائعاً في مقالة يُسميها «في حضرة الفراعنة» وينم ذلك عن اعتزازه الشديد بمصر . فهو يقول : «هياكل النيل التي ظلت آلاف السنين تتعانق ومياه النيل . معابد خوفو . واوزوريس . وآمون . وسيستوس . وطريق أباء الهول . والبحيرة المقدسة . اطلال طيبة الأزلية الباقية . قدس اقداس مصر القديمة . عظمة الماضي ومجد التاريخ . المدنية البائدة الخالدة . الانسانية في كمالها الأسمى . آثار اجدادنا العظام . آثار المصريين الذين حكموا وسادوا ...» [٢]

اهتمامه هذا بآثار الماضي يبدو أيضاً في كتاباته في السياسة الاسبوعية فنجد مثلاً مقالة عام ١٩٢٩ ، بعنوان «يوم بصقارة: على اطلال مقابر منف» ، وفي عام ١٩٣٠ مقالة بعنوان : «في حمى انس الوجود» . يصف في المقالة الأولى ، واثناء رحلة سياحية قام بها الى صقارة ، آثار هذه المنطقة واهرامها . ويتحدث عن بيت ماريت التي تحوي مقابر منف القديمة ، وسرابيوم ، مدفن العجول المقدسة ، فيقول : «مَنف عاصمة الفراعنة التي شهدت عظمة مصر ومجدها ما يُسلي المصري عن ضياع مجده وما يدعوه للدأب في سبيل استعادته .» [٣]

في المقالة الثانية يصف أسوان ومناظرها وجمالها ويتوقف طويلاً مبهوراً أمام معبد إيزيس او قصر "أنس الوجود" كما يُطلق

١- هيكل ، "في اوقات الفراغ" ، ص ٢٤٧ .

٢- هيكل ، « في اوقات الفراغ » ... ص ٢٦٣ .

٣- س . أ . ع ١٥٥ ، ٢٣ فبراير ١٩٢٩ .

عليه.[١] ويتلقف هيكل باهتمام أحد الكتب لمؤلف فرنسي [٢] اسمه «الأقصر بعد الفراعنة» (Luxor Sans les Pharaons) ويكتب عنه مقالتين في عددين متتاليين [٣] يُشيد فيهما بالكتاب وبما يذكره من ان معظم مظاهر الحياة في الأقصر الآن تكاد تكون نفسها في الأقصر القديمة. فالشبه شديد بين الطقوس التي تقام اليوم لبعض اولياء الله المسلمين والطقوس التي كانت تقام لآلهة طيبة الأقدمين . ويقول هيكل انه من العجب "ان تكون انت معتقداً بأن بعض العادات والعقائد هي اسلامية فإذا بها فرعونية وثنية ."[٤] ويعود هيكل مجدداً لطرح نظريته التي يؤمن بها اشد الايمان : «وهي أن وحدة الزمن ، وتعاقب المدنيات

١- راجع : س.أ ، ع ٢٠٥ ، ٨ فبراير ١٩٣٠ .

٢- هو الكاتب الأثري المسيو "لوجران" الذي اقام بالأقصر حوالي ٢٠ سنة .

٣- س . أ . ع ١٦٥ و ع ١٦٦ في ٤ و ١١ مايو ١٩٢٩ .

٤- س . أ . ع ١٦٥ .

ولا يروق مثل هذا الكلام لبعض النقاد ، امثال عمر دسوقي الذي يشن حملة على هيكل الذي تعلّق «بأذيال الفرعونية متلمساً اسباباً واهية» . ويقول : « من التكلف والتعسف ان نرجع بعادات المصريين وتقاليدهم الى قدماء المصريين ، وقد عفى البطالسة والرومان في سنوات طويلة على آثار هذه التقاليد الوثنية ، ولا سيما بعد ان دخلت مصر في المسيحية على يد الرومان . ولما جاء العرب لم يجدوا للغة الفرعونية ولا للتقاليد الفرعونية أثراً في حياة المصريين . أجل ان هناك بعض رواسب فرعونية ممثلة في قليل من الالعاب التي يمارسها اطفال المصريين في الريف ككرة اليد وكرة المضرب وغيرهما ، ولكن هذا لا يجعل مصر الحديثة اقرب الى مصر الفرعونية » . انظر عمر دسوقي ، في الأدب العربي الحديث ، ص ٢٣٦ . وسنعود الى هذا الكتاب فيما بعد باسم : دسوقي .

وازدياد اتصال الانسان بالعالم عن طريق العلم وما الى ذلك مما نحسبه حقائق ثابتة لم يغير من تأثير الوسط الطبيعي في الناس تأثيراً يجعلهم هم هم برغم تعاقب القرون.» [١]

ويعلق هيكل اهمية كبرى على الأساطير لما تذكيه من روح قومية ، فيقول عنها انها «الروح القومي الصحيح لأنها هي التكييف لصلة ما بين الانسان والوجود» . غير ان المصريين لم يخلعوا على آلهتهم ذاك الشعر الكثير الذي خلعه الإغريق على آلهتهم - باستثناء كليوبترا لأن دم آبائها لم يكن مصريا خالصاً كما يقول - والسبب في ذلك يُرجعه هيكل الى الفرق بين طبيعة مصر وطبيعة اليونان . فآلهة مصر تتسم بالسكينة والحكمة ، ومصر مهبط وحي الحكمة اكثر منها مهبط وحي آلهة الشعر وشياطينه. [٢] ويتابع بحثه في طيات الماضي فيجد ان علماء مصر او كهنتها، كما كانوا يُعتبرون ، كانوا يجتمعون للنقاش في المذاهب والنظريات التي يختلفون عليها . ثم يدونون ذلك على أوراق البردى بلغة رمزية وينقشونها على الأهرام بلغة رمزية ايضاً وذلك لحكمة منهم وهي «الخوف من الغزاة من ناحية وسمواً بالعلم عن ان يجدف به الجهال من ناحية أخرى.» [٣]

ونترك تاريخ مصر القديم لنرى إسهام هيكل في تسجيل تاريخ مصر الحديث . يرى طه حسين انه «ارّخ للحياة المصرية المعاصرة ادق تاريخ واعمقه واصدقه» [٤]، وذلك في سلسلة مقالات يتناول في كل

١- س . أ . ع ١٦٦ .

٢- س . أ . ع ١١٦ ، ٢٦ مايو ١٩٢٨ ، والمقالة بعنوان «افروديت» .

٣- س . أ . ع ٢٤٧ و ع ٢٤٨ . واستند هيكل في هذه المعلومات الى كتاب لعمه صالح سالم هيكل والكتاب يدعى « مفتاح الحياة» .

٤- السيد ، ص ٩٠ من مقالة لطه حسين .

منها شخصية مصرية ؛ بدأها منذ عصر إسماعيل (خلا ترجمة لكليوبتره) حتى عصره . اراد على حد قوله ان «يرسم صورة لحياة مصر السياسية في هذا العصر الأخير» . ثم جمع هذه المقالات في كتاب تراجم مصرية وغربية » (اهداه الى حافظ عفيفي) مضيفاً الى التراجم المصرية تراجم لكبار رجال الغرب وهم بالتحديد : تين وشكسبير وبيتهوفن وشلي: وكانت هذه التراجم قد نشرت قبلاً في السياسة الاسبوعية في مناسبات خاصة . اما التراجم المصرية فهي لكليوبترا [١] ، والخديوي اسماعيل [٢] والخديوي توفيق [٣] ومحمد قدري وبطرس غالي [٤] ومصطفى كامل [٥] وقاسم أمين [٦] واسماعيل صبري [٧] ومحمود سليمان[٨] وعبد الخالق ثروت[٩] وحسين رشدي[١٠].

ويقول محمد حسين هيكل انه كان يتمنى لو انه جعل الكتاب

١- س . أ . ع ٤٩ ، ١٢ فبراير ١٩٢٧ ، كتبها لمناسبة تمثيل فرقة منيرة المهدية اوبرا انطونيو وكليوبترا على مسرح برنتانيا . وشاركها محمد عبد الوهاب .

٢- س . أ . ع ٦٣ ، ٢١ مايو ١٩٢٧ .

٣- س . أ . ع ١٠٢ ، ١٨ فبراير ١٩٢٨ .

٤- س . أ . ع ٩٤ ، ٢٤ ديسمبر ١٩٢٧ .

٥- س . أ . ع ٦٧ ، ١٨ يونيه ١٩٢٧ .

٦- س . أ . ع ٥٨ ، ١٦ ابريل ١٩٢٧ .

٧- س . أ . ع ١٠٥ ، ١٠ مارس ١٩٢٨ .

٨- س . أ . ع ١٥١ ، ٢٦ يناير ١٩٢٩ ، وقد كتبها بمناسبة وفاته .

٩- س . أ . ع ١٣٦ ، ١٣ اكتوبر ١٩٢٨ .

١٠- س . أ . ع ١٠٦ ، ١٧ مارس ١٩٢٨ ، وقد اسقط هذه الترجمة من الكتاب دون ان نعرف السبب ، برغم ان هيكلاً يقول عنه انه خدم مصر وكتب لها في صحف التاريخ السياسي صفحة مجيدة.

كله تراجم مصرية صرفة يصل التراجم فيه بين عصور مصر المختلفة ، لكن خوفه من عدم سماح الفرصة له للرجوع الى تواريخ العصور القديمة جعله يسارع لنشر كتابه ليظهر للقارىء ، حسب قوله ، ان شعب مصر «أعرق الشعوب حرصاً على قوميته واكثرها تضحية في سبيل الحق والحرية والعرفان.» [١] في هذه التراجم ، يهتم هيكل بشكل خاص بتسجيل الأحداث المصرية - سياسية كانت او فكرية - المتزامنة مع حياة الشخص المترجم له ، فهناك تفصيل مثلاً لديون مصر إبان عهد اسماعيل ، وللثورة العرابية ، وحادثة دنشواي ، واتفاقية السودان ، وبعث قانون الصحافة ، واخفاق سياسة الاعتماد على اوروبا وعلى تركيا وما الى هناك من احداث هامة مرت بمصر .

وقد قوبل هذا الكتاب بحماسة من جانب المفكرين المصريين كطه حسين والعقاد وتيمور وعبد الرحمن الرافعي الذي نظر الى الكتاب من زاويته القومية وبعث برسالة للسياسية الأسبوعية او بالأحرى للدكتور هيكل ، يقول فيها: «رسمت في تلك التراجم صورة حية من تاريخ مصر القومي من عهد اسماعيل الى اليوم . في ترجمة اسماعيل تصور نهضة مصر القومية والسياسية من بدء النصف الثاني من القرن التاسع عشر . في ترجمة توفيق باشا تعقب على نتائج حكم اسماعيل وتصور الثورة العرابية على حقيقتها : نهضة وطنية قامت لكنها اخفقت بسبب سوء سياسة زعمائها ودسائس السياسة الانجليزية ، وسوء نية تركيا حيال مصر . ترجمة مصطفى كامل تصور بها الحركة الوطنية لمقاومة الاحتلال، فوصلت بين حلقات النهضة

١- هيكل ، تراجم، المقدمة ، وقد نشرها في س . أ . ع ١٩٨ ، ٢١ ديسمبر ١٩٢٩ بعد أسبوع من صدور الكتاب .

الوطنية قديمها وحديثها» . ويقول عن ترجمة قدري باشا انها تصور النهضة العلمية الفقهية ، وترجمة قاسم بك امين تصور النهضة الاجتماعية ، وترجمة اسماعيل صبري تصور نهضة الشعر والأدب ، وفي ترجمة عبد الخالق ثروت «صورة حية من تاريخ مصر السياسي الحديث من انتهاء الحرب حتى عصرنا الحالي» [١] وقد برع الرافعي في استنباط انواع صور النهضة هذه التي اراد ان يبرزها كمجموعة منسقة من صور الحياة القومية المصرية ، على حد قوله ، تجمعها فكرة واحدة هي إحياء تاريخ مصر القومي. [٢]

غير ان البعض عزّ عليه ان يجد هذه المجموعة من العظماء في الكتاب دون ان يكون هناك ذكر لسعد زغلول ؛ ذلك لأن هيكلاً أرّخ لثروت باشا المعاصر فلمَ لا يؤرخ لسعد ، وكان ردّ هيكل ان الترجمة للمعاصرين صعبة بدليل ان ترجمة ثروت باشا جاءت ناقصة حسبما اشارت المقتطف في حينه . ثم يقول : «فكرة الترجمة لسعد لم تغب عن بالي ... لكن ايقنت إن ترجمتُ لسعد اتهمت عند اصدقائي ومعارفي انفسهم وعند الجمهور كله بأنني قصدت الى الاتجار والى تمليق عواطف الشباب بغية الترويج للكتاب.» [٣] ويضيف انه اذا ذكر عن سعد امراً غير محمود سيُتهم بأن الخلاف الحزبي دعاه الى الحط من قدر سعد [٤]. ونراه صادقاً كل الصدق في ذلك لأنه عندما مات سعد كتب مقالة تأبينية بعنوان : «الأمة رجل واحد في المصاب به» داعياً لأن تكون

١- س . أ . ع . ١٩٩ ، ٢٨ ديسمبر ١٩٢٩ .

٢- نفسه .

٣- س . أ . ع . ٢٠٦ ، ١٥ فبراير ١٩٣٠ .

٤- نفسه .

الأمة كلها رجلاً واحداً في خطبها الفادح بموت سعد ، وتكون رجلاً واحداً في تنفيذ السياسة التي رسمها دفاعاً عن الاستقلال وذوداً عن الحياة البرلمانية .[١]

ثالثاً - الفن المصري :

كان للفن المصري ايضاً نصيبه من اهتمام هيكل . فكتب عدة مقالات يحض فيها على خلق فن يُعبر عن الواقع المصري ؛ وأخذ يُشجع كل جديد فيه ويدعو إلى التخصص في انواع الفن أكان ذلك في الغناء او الموسيقى ، حسب موهبة الفنان وقدراته ؛ لأن المواهب الطبيعية ، حسب رأيه ، يجب ان تهذب وتدرب والاّ فهي معرضة للفساد.[٢] ويكون هذا التدريب الصقل بطرق علمية صحيحة ، وحتى يتم هذا الأمر، يقول: «سنبقى نتلمس الكتاب الذي يهز العالم فنجده ولكنه في غير مصر ، وقطعة الموسيقى التي تسحر السامعين فنجدها ولكن في غير مصر ، والقصيدة التي تبهر القلوب والأسماع فنجدها ولكن في غير مصر. هذا ومصر غنية غاية الغنى بأسباب الفن فما لها لا تكون غنية كذلك بصلة ما بين الفن والعلم؟ »[٣] ، وفي مقالة أخرى لهيكل بعنوان «هل من خطوة جديدة في سبيل الفن المصري»[٤]، يعالج «المعنى القومي» في الفن ، ويقصد به المعنى القومي الذي يُحس به من يشاهد متاحف اوروبا كفلورنسا واللكسمبور . ويضيف بأن الفن المصري في معارضه

١- س . أ . ع ٢٧ ، أغسطس ١٩٢٧ .

٢- س . أ . ع ٢٦٣ ، ١٢ سبتمبر ١٩٣٠ . والمقالة بعنوان : « تهذيب المواهب وصلة ما بين العلم والفن » .

٣- نفسه .

٤- س . أ . ع ، ٩٦ ، ٧ يناير ١٩٢٨ .

هذه السنة (١٩٢٨) بدأ يتميز بالقومية الأمر الذي لم يكن وارداً في المعارض السابقة.[١] وهنا ايضاً يُلقي مسؤولية تأخر الفن المصري على عاتق الفنانين المصريين والكتاب والمؤرخين على حد سواء . فهؤلاء يجب ان يبحثوا في متون التاريخ المصري ويتلمسوا نواحي الروح المصرية ، ويثبتوا مظاهر جمال الطبيعة في كتبهم وقصصهم ورواياتهم.[٢] اما هو فالذي استطاع تقديمه مقالات تُشيد بالفنانين الناشئين وتشجعهم وتمدح اعمالهم- منهم الفنان محمود سعيد .فقد حثه على الالتفات الى التاريخ المصري لاستخراج لوحات فنية منه – وقدّم له نماذج كي يستوحي منها فقال : « لديه في المنصورة صفحة مجيدة من تاريخ مصر ايام الحرب الصليبية حين انتصر المصريون في موقعة دمياط واسروا لويس التاسع عشر واعتقلوه بالمنصورة.»[٣] اما المثال مختار فكان هيكل معجباً به أشد الاعجاب لأنه انكب على بعث الفن المصري القديم . وقد كتب عنه مقالة بعنوان : «المثال مختار : بعث الفن المصري القديم.»[٤] ويُشيد بالتمثالين اللذين صنعهما مختار وهما «حافظة الأسرار» ، وتمثال «لقطة وادي الملوك» . وكان مختار قد صنع تمثال "نهضة مصر" وقدمه لصالون باريس عام ١٩٢٠ واثار حوله اعجاب عالم الفن هناك ، كما يذكر هيكل . والمثال صنع ابا هول ناهضاً بصدره وساقيه الأماميتين «ليرى الناس من بأسه وقوته ما يعيد الى أذهانهم ان الطمأنينة الى الحكمة ليست ضعفاً وان مصر ما تزال تجرى في نفوس

١- س.أ.ع. ٩٦، ٧ يناير ١٩٢٨ .

٢- نفسه .

٣- نفسه .

٤- س . أ . ع ١٥٤ ، ١٩ يونيه ١٩٢٦ .

ابنائها نفس الروح التي جرت في نفوس اجدادهم»[١]... ولكن تماثيل مختار ، يقول هيكل، "وان بقيت مصرية الروح – والروح المصرية ككل روح قومية لها كيانها الثابت – فقد تطورت وصارت جديدة تنطق بما يجيش في صدر المصري اليوم وتمثل ما يخالج فؤاده من الآمال وما يطمح اليه من المثل العليا لحاضره ومستقبله.»[٢] ويؤكد هيكل ان «الفنان لا ينقل بل يخلق ، لا يستعير من الماضي ، بل يسبغ على الماضي روح الحاضر وقوته.»[٣]

ولما افتتحت جماعة «الخيال» معرضها في مصر الذي بشر بتكوين «فن مصري النزعة صريح في مصريته» ، حسب تعبير هيكل ، كتب مقالة يشجع فيها جماعة «الخيال» ويبين مذهبها القائم على العودة بقواعد الفن الى بساطة الفن المصري القديم في تخطيطه وعظمته وقوته في التعبير، ثم يقول ان صورة القديس يوحنا اثارت اغتباطه لأنها ذكّرته بـ«صورة قديمة عزيزة على المصريين جميعاً وهي صور الزير سالم وابو زيد الهلالي» ، ويضيف ان قصص الزير والهلالي واساطيرها متصلة في النفس المصرية بتاريخ مصر القديم الى حد كبير.[٤]

ومن ضمن التفاتاته الى انواع الفن ، استوقفته حالة الموسيقى والغناء والتمثيل في دار الاوبرا . والواقع ان مقالته : «خواطر في دار الاوبرا»[٥] تنم عن مدى وعيه القومي الذي عمقه كثرة

١- س.أ.ع. ١٥٤، ١٩ يونيه ١٩٢٦ .

٢- نفسه .

٣- نفسه .

٤- س . أ . ع ٩٣ ، ١٧ ديسمبر ١٩٢٧ ، والمقالة بعنوان : «الفن المصري» .

٥- س . أ . ع ١٠٥ ، ١٩ يناير ١٩٢٩ .

اطلاعه على الفنون الغربية ، خاصة اننا نعلم من كتاباته شدة ولعه بالأوبرا والموسيقى الغربية . فهو يرى أن أغلب المسرحيات التي تمثل في دار الأوبرا تمثل بغناء اوروبي فيحرم المصريون من لذة الاستمتاع بها خلا القليل منهم، حتى هؤلاء لا يجدون لذة حقيقية في الذهاب إليها؛ فكثرة الحضور في الأوبرا هم من الأجانب واكثر المسرحيات تمثل بالايطالية او بلغة اوروبية اخرى. وهنا يتساءل هيكل : «أكذلك قُضي على اهل هذا البلد ان يعيشوا في فنهم عيالاً على غيرهم ؟ ... ما نحسب الأوبرا أنشئت ، يوم أُنشئت ، من اموال المصريين وبعرق جبينهم ليستمتع بها الأجانب النازلون مصر ويُحرم منها المصريون ... وهل أجدب النبوغ واجدبت العبقرية من مصر فليس لنا لغة للمسرح ولا موسيقى للمسرح ولا غناء للمسرح ولا مغنون ولا موسيقيون يحاولون خلق شيء من هذا ؟ هذه المبالغ التي تزيد على العشرة الآلاف من الجنيهات أفما كانت تعاون على ظهور النابغة الذي يخلق الموسيقى القومية والغناء القومي والأوبرا القومية والمسرح القومي.»[١] ومن ثم يضيف : «هل شُيدت الأوبرا القومية لهذه الغاية؟ هل شيدت من ستين سنة (١٨٦٩) لتظل طول هذه المدة فلا يمثل فيها أثر قومي واحد مما شيدت له . ولا تعرف الواحها اوبرا مصرية واحد تمثل فوقها.»[٢]

رابعاً : التغني بالطبيعة المصرية :

عندما اراد محمد زكي عبد القادر ، احد دعاة القومية المصرية آنذاك ، ان يوضح الطرق التي يجب ان يتبعها الكتاب الناشئون لخلق ادب مصري ، كان من اهمها ، في نظره ، العناية بالأدب

١- س.أ.ع ١٩،١.٥ يناير ١٩٢٩ .

٢- نفسه .

الريفي وخدمة الفلاح صحياً وروحياً وثقافياً.»[١] وتقدم بالشكر بشكل خاص للدكتور محمد حسين هيكل الذي لم يبخل بكلمات الاعجاب والتشجيع وبث الثقة في نفوس الكتاب الناشئين.[٢] وكان هيكل يعتبر دوماً ان وصف الطبيعة المصرية والتحدث عن جمالها هو من صميم الشعر القومي . وهو يتغنى بجمال النيل وواديه ويمجد الطبيعة المصرية ويدعو الشعراء الى ذلك كي يعجبوا بها بين قومهم.[٣] وقد تكلمنا عن هذه الناحية عندما تحدثنا عن زينب . والآن في السياسة ، وبعد خمس عشرة سنة نجد هيكلاً لا يزال يطلق النداء نفسه : الطبيعة المصرية مصدر لمختلف فنون الأدب المصري . ففي عام ١٩٢٩ كتب مقالة بعنوان «مصر الساحرة ، وعقوق أبنائها جمالها.»[٤] اللافت للنظر في المقالة وصف فيضان النيل . وهيكل، حسب نظريته في تأثير الوسط الطبيعي على الانسان ، يرى دوماً ان هذه الطبيعة المصرية هي القاسم المشترك بينه وبين اجداده الفراعنة ، فيقول : «وما كادت عيني تقع على النهر تحركت في نفسي كل عواطف الاكبار والتقديس وحتى ذكرت مناظر النهر التي شهدتها بالأقصر وأسوان والسودان ما زادني بجماله وروعته شعوراً وما وصل بهذا الشعور بين نفسي ونفوس اجدادنا

١- ملحم ، ص ٨١ .

٢- نفسه . ص ٨٢ .

٣- دسوقي ، ص ٢٣٨ .

٤- س .أ . ١٨٦ ، ٢٨ سبتمبر . هناك مقالات عديدة اخرى لكتاب قوميين مصريين آخرين حول هذ ا الموضوع . انظر مثلاً مقالة لنقولا يوسف بعنوان : « الأدب المصري والوصف : مناظر مصر الطبيعية مورد غني للوصف في الأدب المصري » (س.أ. ع ١٥٢) .

الفراعنة الأقدمين الذين كانوا يرون في البحر معبودهم الذي أتاح لهم الحياة.»[١] ثم يلوم اولئك المصريين المتعلمين الذي يتغنون بجمال الصحراء العربية وما خلقت هذه الصحراء من صفات الكرم والحب والحماسة تجلت في الشعر العربي القديم؛ لكنهم معذورون ، على حد قوله ، لأنهم ليسوا شعراء ولا كتاباً ولا رجال فن، وان احداً لم يلفت انتباههم الى الجمال الموجود في واديهم وواحاتهم وما تحويه من جمال وروعة . وفي آخر المقالة يجدد دعوته للشباب والشعراء للتغني بجمال الريف المصري ليعيدوا «الى النيل مجداً كان وسيبقى ابد الدهر له» .

ونمثل بمقالة أخرى مهمة لهيكل عالج فيها مشكلة هجرة المصريين من الريف الى المدن محاولاً تحليل اسباب هذه الهجرة وامكانية تلافيها.[٢] من اسباب الانجذاب الى المدينة، كما يرى ، الاعلانات والدعايات عن اماكن التسلية واللهو والمتاجر بينما الارياف تفتقر الى اعلانات عن متعها وجمالها . حتى وإن قام اصحاب الفن والأدب لاثبات جمال الريف في فنهم فإنهم يفعلون ذلك دون توخي المنفعة الخاصة كما يفعل المعلنون في المدن لذلك يكونون اقل تأثيراً . من جهة اخرى يصف هيكل ما لحياة الريف من طمأنينة وراحة ودعة ، ويقترح ان يقيم اهالي الريف محاولات لترقية حياتهم مما يجعلهم يستغنون عن لذة المدينة ، مقدماً بلدان اوروبا نموذجاً فيذكر ان «في انجلترا يهرع اهالي المدن كل اسبوع الى الريف توخياً للمتعة والراحة.[٣]

١- س.أ.ع ١٨٦، ٢٨ سبتمبر .

٢- س . أ . ع ١٢٠٨ مارس ١٩٣٠ . عنوان المقالة : « هجرة الريف الى المدن اسبابها وخطرها وضرورة تلافيها » .

٣- نفسه .

والاحساس بجمال الطبيعة المصرية يقودنا إلى التنويه بما ورد في كتاب «ولدي» لهيكل . هذا الكتاب ألّفه على شكل سلسلة مقالات في وصف زيارته لأوروبا بين سنتي و١٩٢٧ و ١٩٢٨ ، نشرها في السياسة الاسبوعية ؛ فهو، برغم انغماسه الشديد في وصف جمال الأماكن التي زارها ، يعود دائماً الى مصر - يُقارن ما يُشاهده في اوروبا بما هي الحال عليه في مصر ، ولا تنسيه محاسن الطبيعة في سويسرا والبندقية وبودابست وفيينا محاسن طبيعة مصر وقراها . فعندما يتذكر صور مغارب الشمس التي ارتسمت في ذهنه (في مقال اسماه : مغرب شمس - بين بودابست وفيينا) ومن بينها مغرب شمس وهو على بحيرة ليمان ، ومغرب شمس شهده في الرفيرا ووراء جبال «فل فرانش» ، عندما يتذكر هذا يتسارع الى ذهنه صورة مغارب شمس مصر الساحرة ويخص بالذكر ما شهده بين طهطا وسوهاج،[١] ويعثر القارىء على هذا الوصف الذي يخصه بمقالة في «في اوقات الفراغ» وهو وصف جميل للغروب في مقطعين طويلين مما يدل ، دون شك، على طول نفسه في الوصف.[٢]

وتذكره بوابة اثرية في عاصمة تشيكوسلوفاكيا ببوابة المتولي بالقاهرة [٣]؛ وتذكره الموسيقى والرقص الحديث على متن باخرة «الأوزارامو» الالمانية بـ «دلوكة ابي الودع» في قرى الريف. [٤] حتى أن شدة القيظ في جنوا تذكره «بشدة القيظ والرطوبة في مصر.» [٥]

١- س. أ . ع ٩٠ ، ٢٦ نوفمبر ١٩٢٧، وأيضاً في « ولدي» ، ص ١٨٠ .

٢- هيكل ، في اوقات ، ص ص ٢٤٨ - ٤٩ .

٣- هيكل ، ولدي ، ص ١٩٢ .

٤- نفسه ، ص ٢٠١ .

٥- نفسه ، ص ٢٠٧ .

وهكذا، فمصر حاضرة في ذهنه وخياله انّى كان . واثناء زيارته لبرلين التي يُبهر بعظمتها يقول : «اعترف ان بي ضعفاً امام القديم، يجعلني اقف بين يديه خاشعاً مقدساً . قد يكون هذا الضعف في نفسي المصرية راجعاً الى تقديس آثار الفراعنة الأقدمين.»[١]

اما قرية مازاكوفتش المجرية فتجعله يرى البون شاسعاً بين قرى اوروبا والقرى المصرية من حيث التطور . ففي قرية مازاكوفتش مدرسة بينما لا تجد قرية من قرى مصر تحوي مدرسة ، ويقارن وضع الفلاح هنا وهناك فيقول : «تذكرت الفلاح المصري ... هذا الفلاح الذي تتصبب ثروة مصر من عرق جبينه لا يعرف منزله سريراً ولا كتاباً ولا شيئاً من معاني النعمة الانسانية بل هو بالوجار اشبه منه بالبيت . وللحيوان فيه من اسباب الحياة مثل ما للانسان او خير مما للانسان . وهو مع ذلك بعض راس ماله ، كما ان بيت الفلاح المجري بعض راس ماله. فأما فرق المعيشة بين الفلاح المصري وغيره من فلاحي اوروبا فيثير في النفس عواطف الاشفاق عليه ما لو عرفه لما رضي عن حاله ولا صبر عليها»[٢]. ولا يسعه وأمامه أوروبا بروعتها ومدنيتها إلاّ ان يتذكر الشرق وماضيه وقوته ، ويرى ان جمال الغرب لم يخلق في نفوس اهله من العظمة مثلما كان لأهل الشرق ويتساءل : «هل كانت هذه الصحارى الفسيحة الممتدة على جانبي النيل ايام الفراعنة امتدادها اليوم ، والصحراء الممتدة حول بيت المقدس مبعث الديانتين الموسوية والمسيحية ، وصحراء العرب المحيطة بمهبط الرسالة على محمد عليه السلام – هل كانت هذه الصحارى يومئذ افعل اثراً من تلك

١- هيكل ، ولدي ، ص ٢٥٠ .

٢- نفسه ، ص ١٧٣ .

الجبال البديعة.»[١]

هذه النزعة للتغني بجمال بلاده وتاريخها التي يعززها شعوره القومي ، يراها آخرون حصيلة تأثر بأدباء فرنسا في اواسط القرن التاسع عشر حيث ظهرت عشرات الكتب : روايات ومسرحيات وقصائد ، تدعو الى تمجيد الطبيعة واستلهام التاريخ . وقد عاصر هيكل كثيراً من هؤلاء الادباء فتأثر بهم كل تأثر.[٢]

خامساً : في الاصلاح :

كتب هيكل في صحيفة السياسة ، كما كتب من قبل في صحيفة الجريدة ، مقالات عديدة في مختلف نواحي الإصلاح، ومع الفارق الزمني الذي يقارب العشرين سنة نجد هيكلاً لا يزال مستمراً في الدعوة لاصلاح التعليم برغم من ان النواحي التي يطالب بالاصلاح فيها اصبحت مختلفة ومتغيرة مع تغير الزمن . فالأزهر والمعاهد الدينية ، حسب رأيه ، اصبحت مقصرة ودون المستوى الذي تتطلبه الحياة العملية، لذلك فمتخرجوها لا يستطيعون منافسة المتخرجين من المدارس الأخرى.[٣] ثم هناك ازمة ، حسبما يرى ، في اختيار المدرسة الملائمة لأولاد المصريين . فما يُلقى بالمدارس الأجنبية لا يتفق مع روح مصر وحياتها ، ولا يُدرس فيها تاريخ مصر «فيخرج الشاب وليس بينه

١- هيكل ، ولدي ، ص ٢١٤ .

٢- دسوقي ، ص ٢٤٠ .

٣- س . أ. ع ١٢٢ ، ٧ يولية ١٩٢٨ . المقالة بعنوان : « اصلاح الأزهر والمعاهد الدينية » وقد خاض هيكل معركة مع شيخ الأزهر حول هذا الموضوع كما ذكرنا سابقاً في البحث .

وبين وطنه اتصال نفساني وعقلي صحيح.[١] والنوع الثاني وهو المدارس الحكومية لا يرتكز التعليم فيها على قاعدة التعليم الصحيحة، بل الطفل فيها «وحدة من وحدات القطيع البري يجري واياها فيسبقها او تسبقه» ، ويرى هيكل بأن الحل هو انشاء مدارس عالية الأجور شرط ان نضع لها نظماً جديدة تتفق مع قواعد التربية والتعليم [٢]، وينادي هيكل بالعناية بالصحافة وحاجتها الى مدرسة والى تشريع : مدرسة تؤهل لصحافة المستقبل تدرس فيها فنون الصحافة من اخبار وتحرير وتصوير وطباعة ... وتشريع يحمي حقوق الصحفيين المتخرجين.[٣]

في مقالة «الدين والعلم ورجال الدين والعلم» ، يقرر هيكل ان الخلاف ليس موجوداً بين الدين والعلم بل بين رجال الدين ورجال العلم؛ وسببه الاستئثار بالسلطة وبنظام الحكم . ويعطي امثلة رينان وبرجسون وديكارت وروسو الذين كفّرهم رجال الدين وحاربوهم برغم اثباتهم وجود الله ، ويضيف الى هؤلاء الرجال محمد عبده في مصر الذي لقيَ قسوة من رجال الدين ورُمي بالكفر والالحاد ، وهو صاحب رسالة التوحيد[٤] ، وهو يعالج مسألة الدين والعلم في ثلاث مقالات (اعداد ١٥ ، ١٧ ، و ٢٠) ومن ثم فإن تأييده لحركات التجديد جعله يكتب عدة مقالات في هذا الموضوع ، قد نستشف مضمونها من عناوينها :

١- س . أ . ع ١٨٧ ، ٥ اكتوبر ١٩٢٩ . والمقالة بعنوان : « الحيرة في تعليم الناشئة ، المدارس المصرية والمدارس الأجنبية »

٢- نفسه .

٣- من مقالة « الصحافة في مصر حاجتها الى مدرسة تدرس فيها فنوناً »
س . أ . ع ١٤٥ ، ١٥ ديسمبر ١٩٢٨ .

٤- س . أ . ع ١٤ ، ١٢ يونيه ١٩٢٦ .

«الشرق يُبعث من جديد»[١] و «لا صلة البتة بين التجديد والالحاد»[٢] و«حركة التجديد في الشرق»[٣] و «النهضة الحديثة في الشرق . الجهاد في سبيل حرية الفكر»[٤] ومن الالتفاتات الطريفة عند هيكل مقالة له بعنوان «العجائز» تحتل صفحة كاملة من اربعة اعمدة في الصحيفة . يصف في هذه المقالة اقبال العجائز في اوروبا على متع الحياة فهن «لا يرين من الحياة هما ولا تعبا ً ويرين حقاً لهن على الحياة وحقا ً للحياة عليهن ان ينعمن بها الى آخر لحظة من لحظاتها»[٥]، ويقارن بين حياتهن هذه وحياة العجائز في مصر اللواتي ينقطعن للصلاة والعبادة طيلة ما تبقى لهن من سنوات الشيخوخة.[٦] ثم هناك لهيكل مقالة عن الحياة والموت وموقف الإنسان منهما[٧]؛ وقد أثار التفكير في هذا الموضوع في عقله عندما كان يزور مقابر العظماء في فرنسا : مقابر روسو وفولتير ونابليون . ونفاجأ في هذه المقالة باعتراف هيكل بأن فكرة الانتحار دارت في رأسه ايام التلمذة ؛ فعندما كان بالابتدائية اخذ القدّوم وحاول ان يكسر به رأسه ، لكن تردده انقذه. ثم في الثانوية عام ١٩٠٥ ، اعتزم على تناول الكلورين اذا ما اخفق في الامتحان . لكن نجاحه انقذه هذه المرة ايضا ً .

سنقف عند هذا الحد من الشواهد على الدعوة إلى القومية

١- س . أ . ع ١٤٧ ، ٢٩ ديسمبر ١٩٢٨ .

٢- س . أ . ع ١٥٦ ، ٢ مارس ١٩٢٩ .

٣- س . أ . ع ١٣٩ ، ٣ نوفمبر ١٩٢٨ .

٤- س . أ . ع ٥٧ ، ١٩ إبريل ١٩٢٧ .

٥- س . أ . ع ٣٥ ، ٦ نوفمبر ١٩٢٦ .

٦- نفسه .

٧- س . أ . ع ٤ اكتوبر ١٩٣٠ .

المصرية في السياسة والسياسة الاسبوعية . والواضح مما تقدم ان هذه الصحيفة عندما تبنت الدعوة إلى القومية كانت تفعل ذلك ايمانا ً بتجديد الحركة الفكرية والثقافية في مصر . صحيح ان الدعوة اخفقت في عزل الأدب المصري عن الأدب العربي لكنها تركت اثرا ً بارزا ً في الفكر المصري والأدب المصري في فترة ما بين الحربين . ولم يسلم هؤلاء، القوميون المصريون من لوم النقاد والأدباء على نزعتهم الانعزالية هذه ؛ لكن معظمهم وبعد الثلاثينيات تخلوا عن هذا الاتجاه ، وكان منهم هيكل الذي كتب مقالا ً لينا ً في عام ١٩٣٢ قال فيه ان الاتحاد السياسي او التحالف السياسي بين بلاد الشرق العربي امر صعب التحقيق في ظل الدول الاستعمارية ولذلك فهو "يقترح تمتين وتعضيد وحدة الثقافة واللغة والشعور والتفكير وذلك عن طريق عقد اجتماعات ومؤتمرات عربية تضم مفكرين وادباء من جميع الدول العربية يعملون على التقريب بين الأمم العربية تقريبا ً روحيا ً يزيل كل شكوى»[١] ...

هذه اللهجة اللينة بدأها في اواخر العشرينيات ، وان لم تغير حينذاك من هدفه واتجاهه . ففي عام ١٩٢٧ يقول في إحدى مقالاته: «تزداد الروابط المادية والمعنوية بين امم الشرق العربي كل يوم توثقا ً لازدياد شعور كل واحدة منها بأواصر القربى ولحم النسب بينهما في الخلق والتفكير وتصور الحياة.»[٢] وفي عام ١٩٢٨ يقول في مقالة «مؤتمر الشرق العربي»[٣] ان هناك مباحث عديدة يستطيع هذا المؤتمر طرحها . فهو يستطيع بحث صلات امم الشرق تاريخيا ً وفقهيا ً ولغوياً، «وسيكون من اثر ذلك ان تقوى الرابطة العلمية والرابطة الفكرية بين

١- س . أ . ع ٩٠٦ ، ١٧ سبتمبر ١٩٣٢ .

٢- س . أ . ع ٨٩ ، ١٩ نوفمبر ١٩٢٧ .

٣- س . أ . ع ١٤٤ ، ٨ ديسمبر ١٩٢٨ .

اهل هذه البلاد المرتبطة في التاريخ بروابط كثيرة والمتفقة الآمال للمستقبل اتفاقاً كبيراً.»[١] إن هذه الليونة التي بدأت تظهر في اواخر العشرينيات في بعض كتابات هيكل ستتمخض عن تحول في مجرى تفكيره مع بداية الثلاثينيات ، عندما أصدر كتابه «حياة محمد» (١٩٣٥).

١- س.أ.ع ٨٠١٤٤ ديسمبر ١٩٢٨ .

خاتمــة

بيّنا فيما تقدم كيف نشأت الدعوة الى القومية المصرية وكيف اشتدت وانتشرت عند فئة كبيرة من المثقفين المصريين ، خاصة التيار الذي التف حول جريدة "الجريدة" . وقد قدّمنا محمد حسين هيكل نموذجاً لهذا التيّار ولأولئك الذين تشربوا مبادىء الفكرة القومية الإصلاحية . فقد عمل محمد حسين هيكل مدة طويلة لهذه الدعوة بما يستتبع ذلك من توجهات علمانية وديمقراطية ، متأثراً باطلاعه الواسع على الفكر الغربي ، واعجابه بكبار روّاده امثال بين روسو وكونت وغيرهم .

غير ان هيكلاً تحول مع بداية الثلاثينيات من القرن الحالي عن النمط الفكري الذي سار عليه طوال العشرينيات فقد اتجه الى الكتابات الاسلامية التي افتتحها بكتاب "حياة محمد" (١٩٣٥)، ثم اصدر كتاب "في منزل الوحي" (١٩٣٧) و"الصدّيق ابو بكر" (١٩٤٢) و "الفاروق عمر" (جزءان: ١٩٤٤ ، ١٩٤٥) "والامبراطورية الاسلامية" (١٩٦٠) و"الشرق الجديد" (١٩٦٣) و "ذو النورين عثمان بن عفان" (١٩٦٤). وسنكتفي بالإشارة الى ان الدافع الرئيسي لاتجاهه الى الكتابة في التاريخ الاسلامي ، الى جانب دوافع اخرى يشير اليها في "مذكراته"[١] وفي "حياة محمد"[٢] وفي "في منزل الوحي"[٣] ، كان مكانته الاجتماعية والسياسية . فإن انتماء هيكل لطبقة الاعيان ، ورئاسته لحزب الاحرار الدستوريين الذي كان يطمح في ذاك الوقت الى المشاركة في الحكم ،

---

(١) انظر : ج١ – ص ٣٢٨ و ٣٢٩ .

(٢) انظر : ص ١٥ و٦١.

(٣) انظر : ص ٢٤ و ٢٥ .

جعلاه يماشي التيار السائد ، برغم المغامز التي غُمز بها لانقلابه الى البحث في التاريخ الإسلامي ووصفه بالرجعية بعد ما كان يعتبر من طليعة المجددين .

المصـــادر

محمد حسين هيكل : - تراجم مصرية وغربية (القاهرة)

- زينب مناظر واخلاق ريفية ، ط ٣ ، دار المعارف، القاهرة.

- في أوقات الفراغ ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

- ثورة الأدب ، مطبعة مصر ، القاهرة ، د . ت .

- مذكرات في السياسة المصرية ،ج١ و ج٢ وج٣، القاهرة ، ١٩٥١.

- جان جاك روسو حياته وكتبه ، ط ٣ ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨ .

- ولدي ، ط ٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، د. ت .

- حياة محمد ، ط ١٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨.

- في منزل الوحي ، ط ٤ ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٧ .

- الأمان والمعرفة والفلسفة .

المراجع باللغة العربية

أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، بيروت ، د. ت .

أحمد زكريا الشلق : الشيخ حسين المرصفي وكتابه رسالة الكلم الثمان ، القاهرة ، ١٩٨٤.

- أحمد فتحي زغلول وقضية التغريب ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

- حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية ، القاهرة، ١٩٧٩ .

- حزب الأحرار الدستوريون ١٩٢٢ - ١٩٥٣ ، ط ١ ، القاهرة، ١٩٨٤ .

أحمد لطفي السيد : الدكتور محمد حسين هيكل ، القاهرة ، ١٩٥٨.

آرثر ادوارد جولد شميت (الابن) : الحزب الوطني المصري (مصطفى كامل - محمد فريد) ، القاهرة ، ١٩٨٣.

أسعد داغر : مصادر الدراسة الأدبية ، ج٢ وج ٣، بيروت ، ١٩٥٥ .

ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩ ،ط٤ ، بيروت ١٩٨٦ .

ألكسندر شولس : مصر للمصريين - أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨ - ١٨٨٢ ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

انجيل بطرس سمعان : - دراسات في الرواية العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

انور الجندي : تطور الصحافة العربية في مصر ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

أنيس صايغ : الفكرة العربية في مصر ، بيروت ، ١٩٥٩.

أياد ملحم : السياسة الأسبوعية والحركة الأدبية المعاصرة في مصر ، رسالة استاذ في الآداب ، الجامعة الأميركية في بيروت ، ت١ ١٩٦٧ .

جلال الشرقاوي : رسالة في تاريخ السينما العربية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

حسين فوزي النجار : الدكتور هيكل وتاريخ جيل ١٨٨٨ ١٩٥٦، القاهرة، ١٩٨٨ .

- الجريدة تاريخ وفن ، رسالة دكتوراه ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر في مصر ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

صلاح عيسى : الثورة العرابية ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٧٢ .

طه عمران وادي : الدكتور محمد حسين هيكل حياته وتراثه الأدبي ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ودوره في السياسة المصرية حتى ١٩١٤ ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل ، ج ١ ، ط ٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

- عصر محمد علي ، ط ٢ ، مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ، ١٩٤٧ .

- مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، ط ٤ ، القاهرة ، ١٩٦٢.

عبد العزيز رمضان : مذكرات سعد ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

عبد العزيز شرف : محمد حسين هيكل في ذكراه ، القاهرة.

عبد المحسن طه بدر: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ١٩٧٠- ١٩٣٨ ، دار المعارف ، لقاهرة ، ١٩٧١.

- الروائي والأرض - ط ٢، القاهرة ، ١٩٨٣ .

علي الراعي : دراسات في الرواية المصرية ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة ، ١٩٦٤ .

عمر دسوقي : في الأدب العربي الحديث ، ج ٢ ، ط ٦ ، دار الفكر العربي، ١٩٦٤.

فاروق ابو زيد : عصر التنوير العربي ، بيروت ، ١٩٧٨ .

فتحي رضوان : عصر ورجال ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

فؤاد مرسي خاطر : حول الفكرة العربية في مصر القاهرة ، ١٩٨٥ .

لويس عوض : تاريخ الفكر المصري الحديث من عصر اسماعيل الى ثورة ١٩١٩، ج١ وج٢ ،القاهرة ، ١٩٨٣ .

محمد أحمد خلف الله : عبد الله النديم ومذكراته ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

محمد حسين عبد الله :الواقعية في الرواية العربية ، القاهرة، ١٩٧١.

محمد عمارة : رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

- الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي ، ج١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، ١٩٧٣ .

-جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، القاهرة ، ١٩٨٤ .

- الأعمال الكاملة للامام محمد عبده ، ج١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ .

- الأعمال الكاملة لقاسم أمين ، طـ ٢ ، دار الشروق، القاهرة ، ١٩٨٩ .

محمد كامل يحيى : الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية في العصر الحديث ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ،ج١ وج٢ ، ط ٦، بيروت ، ١٩٨٣ .

ناجي علوش : أديب اسحق ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨٢ .

نصر الدين عبد الحميد نصر : مصر وحركة الجامعة الاسلامية من عام ١٨٨٢- ١٩١٤ ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

نفوسة زكريا سعيد : تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها في مصر ، القاهرة ، د. ت.

هاملتون جب : دراسات في حضارة الاسلام ، بيروت – نيويورك، ١٩٦٤.

يونان لبيب رزق : الحياة الحزبية في مصر في عهد الإحتلال البريطاني ١٨٨٢- ١٩١٤ ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

المراجع باللغة الأجنبية

Adams , Charles C . *Islam and Modernism in Egypt.* London , 1933

Ahmed, Jamal M. . *The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism.* London . 1960

Arnette , Mary. *Qasim Amin.*

AL- Husry Khaldoun. *Three Reformers* . Beirut ,1966.

Buhairi, Marwan ed. *Intellctual Life in the Arab East , 1890 - 1939 .* American University of Bierut, 1981 .

The Earl of Cromer, *Modern Egypt* . London, 1908.

Gendzier, Irene. *The Practical visions of Ya`qub Sannu`* . Harvard University, 1966.

Kohn , Hans. *Nationalism : It`s Meaning and history.* NewYork, 1955 .

Landau , Jacob. *Parliaments and Parties in Egypt* NewYork, 1954 .

Nadav , Safran. *Egypt in search of political Comminity.* Cambridge, Massachusettes , 1961 .

Smith, Charles. *Islam and the search for social order in modern Egypt : A Biography of Muhammad Hussayn Haykal* . State University of NewYork Press . Albany, 1982.

Storrs, Ronald. *Orientations*. London , 1937 .

الدوريـــات

جريدة الجريدة : ١٩٠٧ - ١٩١٤

السياسة الاسبوعية : ١٩٢٦ - ١٩٣٠